حسن نجيلة

ذكرياتي في البادية



أول مقال ظهر له في صحيفة الحضارة السودانية في عام ١٩٢٩م.

- وبدأ عموده الشهير بعنوان (خواطر) في الحضارة ثم أنتقل به إلي عدة صحف ولم يتوقف إلا عند وفاته عام ١٩٨٣م .
- أسهم قلمه بدور أساسي في إنجاح صحيفة الرأي العام اليومية المستقلة التي صدرت في ١٥مارس ١٩٤٥م .
- أسس صحيفة الرأي العام العدد الأسبوعي .
- أنشأ أول مجلة عربية ثقافية بأسم (القلم الحر) التي كانت تطبع في بيروت وتوزع علي جميع العواصم العربية ومن خلالها عرف القراء العرب الأدب السوداني وفنونه ،و توقفت عام ١٩٦٩م .
- ظل معتزا بدوره كمعلم ، وقد سبقت شهرته كمعلم شهرته ككاتب وصحفي ومؤرخ .
- مؤلفاته عديدة ولكن وصل منها إلي القراء (ذكرياتي في البادية) و(ملامح من المجتمع السوداني) و (ذكرياتي في دار العروبة) و (أيام في الاتحاد السوفيتي) .
- تحت الطبع ، خواطر ، ويوميات ، وأحاديث الفكر والثقافة .





دار عزة للنشر والتوزيع
الخرطوم - السودان
ناشرون وموزعون ووكلاء دور نشر

الغلاف : جمال خليفة

ذكرياتي في الباديـة

حسـن نجيلـة





الكتاب : ذكرياتى فى البادية

المؤلف : حسن نجيلة

رقم الإيداع : ١٤٦٠٩ / ٢٠٠٥

تاريخ النشر : ٢٠٠٥

ردمك : ٩٩٩٤٢ - ٥٤ - ٠٠٤ - ٤

الناشر دار عزة للنشر والتوزيع

الإدارة شارع الجامعة - الخرطوم - جنوب وزارة الصحة .

ت. ٨٣٧٨٧٢٠٠ فاكس : ٨٣٧٩٧٠٨٤ (١ - ٢٤٩ +)

التوزيع دار عزة للنشر والتوزيع ت : ٨٣٧٨٧٢٠١

السودان - الخرطوم . ص.ب : ١٢٩٠٩

بريد الكترونى azza ph @ yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الكتاب الوثيقة والمؤلف

أ ما بالنسبة للمؤلف فهو المؤرخ والأديب الأستاذ حسن نجيلة (رحمه الله) فهو لا يحتاج الي تعريف ، تكفي الإشارة الي أن مؤلفاته تحولت الي مرجعية هامة لتاريخ السودان الحديث وبوجه خاص (ملامح من المجتمع السوداني) الجزء الأول والجزء الثاني ، والذي تناول ببراعة الأجواء الوطنية والسياسية والثقافية والأدبية والفنية والإجتماعية لحقبة هامة ما تزال لها تأثيراتها النافذة علي الحياة ا لسودانية ، أما كتاب (ذكرياتي في البادية) و قد تشكلت مادته من أول تجربة له عاشها كمعلم صغير في البادية ، وقد عاشها بعيون ووجدان مفتوح في مجتمع البادية بكل موروثاته وصدق حياته المتنوعة نقل دقائق تلك الحياة من أفراح وأتراح ومناسبات تجمع بين هذه وتلك وهو ينقل بطريقة بارعة كيف عومل لدي بداية وجوده كمعلم وإعتباره ضيفاً يحظي بالإحترام ولكنه بالقطع ليس بفرد منها ،ثم كيف إنزاح هذا الحاجز ، فأصبح مقرباً الي شيخ قبيلة الكبابيش سير علي التوم والي أبنائه التلاميذ ثم الي عموم مجموع القبيلة التي قبلت به كعضو فيها يشاركها مناسباتها ويتعاطي معها حياتها فيشرب من المياه الجارية أو الراكدة في الأرض أو يتلقي الماء مباشرة من السماء في زمن الخريف وهطول الأمطار ويتعلم ركوب الجمال ليدخل حلبة السباق مع شبابها وفتياتها ، ثم ينقل الطقوس والمراسيم لدي وصول الحاكم البريطاني للقبيلة الكبيرة ، وكيف يستقبله شيخ الكبابيش وكيف تتم ضيافته علي الطريقة البدوية الصرفة وكيف كان الحاكم البريطاني يحاول أن يجاري زعيم القبيلة فيتناول بيده الأكل الساخن والشواء الذي يحمل لذعة الجمر ، ثم يتناول الشاي الأسود وبعدها يشعل غليونه فيما هو يسأل عن الأحوال ، ثم يتناول غيرها وهو ينتقل من صورة الي أخري بتنوع الإنتقال من مكان الي آخر ثم هو ينقل كيف تصمت القبيلة بأكملها لحظة قدوم مولود جديد وتظل الأم تتوجع وتئن وهي صامته لا تنطلق منها صرخة ولا آهة لأن الصرخة أو الآهة تؤلم زوجها وأولادها وأهلها ، ولكن ماتكاد تنطلق صرخة المولود إلا وتدب الحياة في القبيلة بأسرها وتنطلق أصوات الفرحة والترحيب بالقادم الجديد .

لقد تناول الأستاذ نجيلة هذه الحياة البدوية الخصبة بإسلوب أخاذ فيه كثير من العذوبة والسلاسه يجعل القارئ لها وكأنه جزء منها .

لقد تحولت هذه الحياة البدوية التي كتبها الأستاذ نجيله قبل أكثر من أربعين سنة الي وثيقة لحياة كانت ولم يعد لها وجود في الزمن الماثل (مع الأسف الشديد) .

ولذلك فإن دار أكاديمية العلوم الطبية والتكنولوجيا للطباعة والنشر ومن منطلق الحرص والمحافظة علي هذا التراث السوداني والإنساني والنادر رأت الإهتمام به وجعلت كتاب (ذكرياتي في البادية)مقدمة برنامجها للنشر ليكون ميسوراً للإطلاع عليه والإحتفاظ به لأجيال لاحقه وإعتبرت هذا بمثابة مسئولية قومية وثقافية يستوجب الإضطلاع بها .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

دفعني الى تسجيل هذه الذكريات عن بادية الكبابيش أمران ، أولهما - وهو الاهم ، يقيني بأن هذه الحياة البدوية الرعوية آخذة فى الانقراض . فالاتجاه السائد الآن أن يستقر البدو وأن تقام لهم المصانع التى تمكنهم من الاستفادة من ثروتهم الحيوانية من لحوم وألبان ووبر ، ولا بد ان يتم هذا على نحوٍ ما ... وقد اتيح لي ان ازور بادية الكبابيش عام ١٩٥٢ فوجدت ان معالم حياتهم التى عرفتها آخذة فى التغير ، وقد اطلت بوادر حياة مدنية جديدة ممثلة فى هذه السيارات التي رأيتها أمام خيمة ناظر القبيلة وبعض اهله فلم يعودوا يقطعون الفلوات كآبائهم على ظهور الجمال .

ووجدت فى بعض بيوت الشعر - التي لم تتغير صورتها عما عهدت - «الراديو» يحتل مكانه يربط بينهم وبين انباء العالم المختلفة وينشر الوعي بينهم ، وتذكرت كيف كان البريد من سودري لايصلني فى البادية إلا بعد مدة طويلة ، وكنت الوحيد فى البادية كلها الذى يقرأ الصحف ويحتكر معرفة مابينها من أنباء !.

ومن هنا عنيت بتسجيل هذه المذكرات عن هذه الحياة البدوية الرعوية الآيلة للزوال عساني بهذا أهدى مرجعاً قد يكون مفيداً فى المستقبل لمن ينقب من احفادنا عن تاريخ وتطور الحياة الإجتماعية فى بلادنا .

والامر الثاني أن أهدي أبناءنا فى هذا العهد صورة من الحياة الشاقة المرة التي عاشها جيلنا لعلها تكون حافزاً جديداً لهم وهم يستقبلون عهداً يضع على عواتقهم مسؤوليات جساماً ، هي مسؤوليات بناء هذا الوطن الذى صار خالصاً لهم .

ولهذا ولكي اعطي هذا الجانب حقه - اعني تصوير الجو الذي كان يعمل فيه جيلنا - تعرضت للحديث عن بعض الإداريين الانجليز الذين التقيت بهم فى تلك الفترة ...

وفى الكتاب لمحات وطنية وأدبية جاءت متناسقة مع جو الذكريات عن البادية ، لقد بذلت ما استطعت من جهد لاقدم فى هذا الكتاب ما يحقق دوافعة ، والله الموفق .

حسن نجيلة

إلى سودري

في أول ينايرعام ١٩٣١ تخرجت في مدرسة العرفاء وعينت مدرساً بمدرسة سنجة الأولية وما كاد يمضى عليّ في التدريس شهر واحد حتى استدعيت إلى مكتب مفتش مركز سنجة وكان يسمى (مكلارين) وكان هذا الاستدعاء بالنسبة لي - كموظف صغير - حدثاً مثيراً ولقيني الرجل ببشاشة ، وسألني عما إذا كنت أعرف الشيخ السير علي التوم ناظرعموم الكبابيش ؟ فأجبت بانني سمعت به ولكنى لم أره ، وكان مكلارين هذا قد عمل لفترة مفتشاً لدار الكبابيش فأفاض في الحديث عن الشيخ علي وأثنى عليه ثناءً عاطراً ، ثم فاجأني قائلاً : لقد اتفقت الحكومة مع الشيخ علي لتوفد إليه مدرساً لتعليم أبنائه ، ووقع الاختيار عليك ، ولما كانت هذه المهمة لا تخلو من عسر ومشقة فقد رأت (المعارف) ألاترسلك الي هناك إلا بموافقتك . وأنا أتركك الآن لتعود إلي في الغد برأيك الأخير .. ثم حدثني عن حياة البادية حديث الخبيربها ، وصارحنى بأني سألقى الكثير من الصعاب وأني سأعيش في (خيمة) وسأكون بعيداً عن كل ما في المدن من ألوان الحياة ، وان الغذاء الذي اعتدته هنا لن اجده في البادية ، واني سأكون متنقلاً بخيمتي مع العرب كلما انتقلوا من مكان لآخر .

وعدت الي أهلي وأصدقائي أستشيرهم ، ورأيت اكثرهم يأبى علي أن اقبل العمل في هذا الجو البدوي الذي لا اعرفه ولا يلائمني على حد تعبيرهم . لكنى استخرت الله وقبلت - وجاءت برقية من الخرطوم تطلب الي السفر عاجلاً للعاصمة ، وهناك سمعت من المسؤولين احاديث كثيرة عن الشيخ على التوم ، كانت كلها تتفق في ان الرجل (شيخ العرب) جليل القدر ، شهم كريم وكلها تحرص علي ان استرضيه جهدى حتي لا يرفض بقاء المدرسة في حيه البدوي ، ووضح لي ان الرجل لم يكن راضياً كل الرضا على فكرة المدرسة .

ووصلت الابيض حيث قدمت نفسي للمسؤولين هناك ووجدت المستر «لي» مفتش دار الكبابيش على علم بموعد وصولي ، وقد ارسل لي سيارة بالمحطة لتقلني اليه حال

وصولي واتفقنا على موعد مغادرتنا للابيض بالسيارات حتى مركز سودري ، وهو المركز الرئيسي لقبيلة الكبابيش ، ولقبائل الكواهلة والهواوير والكاجا والمجانين .

ولست انسى اول رحلة لي بالسيارات من الابيض ، اذ ما كدنا نخلف الابيض وراءنا ونوغل في السير حتى تبدى لي عالم جديد ، وراعتني مناظر الطبيعة التي لم أرلها مثيلا من قبل ، فقد انبسط امامي سهل اخضر تتخلله احياناً اغوار ونجود وتلال وجبال تختلف عرضاً وطولاً ، وتطالعنا احياناً اشجار ضخمة باسقة ، واخرى لا تكاد ترتفع من الارض الا قليلاً ، وصيد يتراءى من بعيد يرعى وادعاً ، حتى اذا ما احس بدويّ العربة نفر وعدا يسابق الريح بعيداً عنا ، وفي منظره وهو يرعى آمناً ، وهو يعدو مذعوراً ، جمال وروعة تبهج النفس . . . وقد يفاجئنا ذئب او ضبع اوابن آوى ، لكنه سرعان ما يختفي هارباً بمجرد اقتراب السيارة منه .

ويبدو ان كل الوحوش هناك مرَّوعة من الصائدين . فان أهل كردفان عامة مولعون بالصيد والقنص ولهم في ذلك طرق شتى برعوا فيها كل البراعة وتبلغ حد الاعجاز احياناً .

وفي منتصف الطريق بين الابيض وسودري وقفت بنا السيارة عند بضع قطاطي من القش وهي الاستراحة التي خصصت للموظفين الذين يمرون بهذه النقطة ، وعلى بعد منها كانت هناك قطاطي متناثرة في غير نظام ، الا ان المنطقة كلها رائعة المنظر الطبيعي ، وعلمت انها قرية « المزروب » - وفي هذا المكان جاءنا شيخ مهيب المنظر يتبعه عدد من الرجال وسلم على المفتش الذي قدمني له بوصفي مدرس ابناء السير على التوم ، وعرفني به .. الشيخ جمعه سهل ناظر قبيلة المجانين - وتلك اول مرة في حياتي اسمع فيها باسم هذه القبيلة ، وكنت في مستهل الشباب وأوشكت ان أفسد الموقف بسؤال سخيف !

وسلمَّ عليَّ الشيخ جمعه في حرارة وسألني عن موطني وأهلي ، وكنا وحدنا داخل القطية - المستر لي وهو وانا .. واذكر ان مد يده الي جيبه وأخرج اوراقاً لا أعرف ما بها ومدها اليَّ قائلاً : أرجو ان تسلمها لجناب المفتش عند وصولكما لسودري - وقبل أن أرد عليه ، امتدت يد المستر لي في سرعة خاطفة الي الأوراق وتناولها ، ثم نظر اليَّ كمن يقول : عن اذنك ! وأحسست بأن الموقف لا يحتمل وجودي فخرجت من القطية الى اخرى مجاورة كان فيها جنود البوليس الذين كانوا يرافقون المفتش في هذه الرحلة ، ويركبون العربة من الخلف وقد جرت العادة الا يسافر المفتشون او الموظفون البريطانيون عامة وحدهم سواء على الجمال ام العربات اذ لابد من ان يرافقهم عدد من البوليس المسلح ، وانطلقت العربة من المزروب صوب سودري بعد ان ودعنا الشيخ جمعه سهل

ناظر قبيلة المجانين الذى توثقت صلتي به فيما بعد إذ التقيت به اكثر من مره في مركز سودري خلال رحلاتي بين البادية والابيض وهو رجل على حظ من علم الفقه ويزعم انه ذو بصر بعلم الفلك وفي الواقع انه كأكثر حُذّاق الباديةيعرفون ما يسمى - بالمنازل - من علم النجوم ، وعن طريقها يعرفون تقلبات الجو في الصيف وفى الشتاء وعلى وجه خاص فصل الخريف ، متى يبدأ ومتى ينتهي وفي أي من هذه المنازل تنزل الامطار غزيرة ، وفي أيها تشح . ولكن الشيخ جمعه يذهب الى اكثر من هذا فيما يزعمه من معرفة بالأفلاك التي كان يكثر من التحدث عنها في مجالسه معنا وهو في جملته رجل بسيط المظهر متدين .

بلغنا مركز سودري بعد مسيرة أكثر من ساعة بالسيارة فى تلال رملية مرهقة انسنتي روعة الطريق وسخاء الطبيعة ما بين الابيض والمزروب . . .

وسودري قرية صغيرة كل منازلها من قطاطي القش حتى المركز وبيوت الموظفين اعدت سقوفها من القش وهي تقع في مرتفع لطيف تحيط بها من كل الجوانب سلاسل من الجبال العالية تكسب منظرها الطبيعي روعة وفتنة - ونزل من المفتش في داره وانطلقت بي السيارة الى دار مأمور المركز السيد عبد الرحمن العاقب الذي رحب بي واكرم وفادتي تكريماً لا انساه ما حييت وفي داره وجدت مكتبة عامره اذ كان السيد عبد الرحمن كثير الاطلاع غزير المعلومات الا انه قل ان يناظر بهاأو يباهي بعرضها خلال احاديثه ، وقد وجدت في هذه المكتبة مادة خصبة لملء الفراغ الذي كنت احس به كلما ذهب الموظفون الي مكاتبهم وبقيت وحيداً . . . نسيت أن اقول ان عدد الموظفين في المركز كان اربعة فقط هم المأمور والمترجم (ومحاسب وصراف) ومساعد الحكيم ، واذكر أنهم اجتهدوا لكي ينتفعوا بوقت فراغهم فانشأوا ميداناً للتنس ، وكان المفتش الانجليزي - صاحب هذه الفكره - يلح على جمعهم في هذا الميدان ليشبع هوايته في هذه اللعبة ، وقد دار بينى ، بينه ذات مرة نقاش بيزنطي ، وانا عائد من الكبابيش في احدى اجازتي ، وكان مدار الحديث ، متى يتعلم فتية الكبابيش رياضة التنس ؟

وكانت لعبة التنس هي الرياضة المفضلة في ذلك العهد ، نشرها الموظفون البريطانيون وحثوا الموظفين السودانيين عليها وقد برع فيها واشتهر عدد منهم .

اعود الي سودري عند اول وصولي اليها فقد هالني بادئ بدء كثرة الغربان فيها كثرة غيرمعهودة ، ولا بد من ان تكون أول ما يلفت نظر الزائر فأينما التفتَ ترى جيوشاً منها على الارض والاشجار ورؤوس المنازل وسابحة في الفضاء وأصواتها الناعبة لا تنقطع من اذنيك ، ولقد قر في أذهاننا منذ عهد بعيد التشاؤم من الغربان ، الا ان سودري علمتني

التفاؤل بها إذ صارت جزءاً هاماً من حياتنا اليومية المألوفة ويخيل اليّ أنها أضعاف أضعاف عدد الناس هناك ، والعجيب انها تكاد لا تهاب الناس او تخشاهم على ما عرف عن الغراب من فرط الحذر فقد جاء في الأمثال أن الغراب أوصى ابنه قائلاً : اعلم يا بني ، ان الله خلق ابن آدم مستقيم العود سوياً ، فإن رأيته يبدأ في الانحناء فاعلم أن وراء ذلك شراً - فلا تنظره وطر مسرعاً ! . ولكن غربان سودرى - لم يوصها أبوها بهذا ، فانك تقترب منها حتى تكاد تمسها قدماك ، فتطير وتهبط قريباً منك كأنها لا يعنيها من أمرك شئ ، لقد صارت أشبه بحمام مكة . مع الفارق العظيم بين مكة وسودري ، والحمام والغراب ! .

وفى سودري سوق لا تعدو متاجرها أصابع اليدين وكل تجاره من الذين اصطلحنا على تسميتهم « بالجلابة » النازحين الى تلك المناطق النائية - وتقوم متاجر السوق جميعها فى صف واحد وهي من الطين الاخضر الا متجراً واحداً يقف في صف وحده لتاجر يوناني يسمى - لوانيدا - ... ولا بد من ان تجد تاجراً يونانياً أينما كان هناك سوق ، والحق يقال ان لوانيدا هذا ، كان تاجراً مرحاً طلق اللسان فى حديثه بالعربية يفيض ذكاء وحيوية ...

وللسوق في سودري يومان تزدهر فيهما - الاثنين والجمعة - ويكاد يكون هذا طابع أكثر الأسواق الصغيرة في السودان - اذ يقدم اليه أهل القرى المجاورة بحاجاتهم التي يريدون بيعها وشراء ما هم في حاجة اليه ، وتتوسط السوق أشجار ضخمة وارفة الظلال يجلس فى هذين اليومين باعة الحاجات الذين وفدوا من القرى ... وقد هالني أول مرة أزور فيها السوق ان رأيت تحت ظلال الاشجار مقادير ضخمة من « المريسة » تباع للغادين والرائحين وتكاد تكون هي السلعه الوحيدة التى يتكالب عليها رواد السوق ...

ولم أكن قد ألفت هذا المنظر من قبل ثم عرفت ان المريسة هنا طعام يغني عن الوجبات الأخرى اكثر منها للسكر ، فهي تشبع وتروي وتسكر لمن يفرط في شرابها ،

أذكر في مستهل الثلاثينيات ان كان طبيب بريطاني يقوم باجراء ابحاث عن مرض الكلازار وقد اتخذ منطقة الفونج ميداناً لدراسته حيث كان يتفشى هذا المرض في بعض انحائها ، وكان يعاونه الدكتور منصور علي حسيب الذي نقل الى مستشفى سنجة أول عهده بالعمل ... ثم جاء من بعده الدكتور محمد حمد ساتي وإستمر يواصل التجارب مع الطبيب البريطاني المذكور ، وقد لاحظت وقد قضيت فترة في المستشفى أعاني من الملاريا التي قل ان يسلم منها احد في هذه المنطقة آنذاك - ان الطبيب البريطاني الذي يشرف على بحث مرض الكلازار قد أمر باعطاء المريسة كغذاء للمصابين بهذا المرض بل

لعله ، ان لم تخني الذاكرة - قد أمر بتعميمها لكل مرضى الدرجة الثالثة مؤكداً انها غذاء جيد يفيد مرضى الكلازار خاصة .

ومهما يكن من امر الطب من تحديد مدى الغذاء الذى تمده المريسة لشاربيها فان سكان هذه المناطق أدركوا هذا بالسليقة وتوصلوا اليه من تجاربهم الخاصة ولهذا فان - يوم السوق - يتميز عن سائر الايام بهذه الجرار من المريسة التي تتفاوت ضخامة ، يعب منها الشاربون في لذة ونهم . . . وأحسبها ما تزال حتى الآن تحتل مكانها المرْموق تحت ظلال تلك الاشجار الضخمة الباسقة يستظلون بها نهارهم ، حتى اذ جاء المساء وفرغت الدنان ، عادت بها بائعاتها منتشيات بما حصلن عليه من ربح وفير فى ذلك اليوم ، وعاد الكثيرون من شاربيها وهم أكثر نشوة وشبعاً وريا ! .

ان سكان منطقة سودري ينتسبون الى قبائل - الكاجا - ويقولون انهم « بديرية دهمشية » وأحسب أن لهم صلة بالنوبة . والحديث عن أصولهم وتاريخهم معقد ولا تتضح فيه حقيقة يمكن الركون اليها نهائياً ، وهم يتحدثون العربيه في لهجة ينفردون بها مع عبث ببعض الحروف يتعذر عليهم النطق بها ، فهم يخلطون مثلاً بين العين والألف فيضعون كلاً منهما مكان الآخر ، وكذلك يفعلون بحرفي الخاء والحاء ، ويغلب عليهم سواد اللون- وفى عاداتهم اختلاف واضح عن العرب من حولهم وهم يعيشون فى حرية اجتماعية واختلاط كامل ، فلا تعرف نساؤهم الحجاب .

في ذلك العهد كان ناظرهم الشيخ النعمة سوركتي وهو رجل سهل الطباع ، والغريب أنه لا ينتمي الى قبيلة الكاجا ، بل الى قبيلة الدواليب التي تعتبر فرعاً من قبيلة الركابية ، وللدوالهب في مركز بارا مكانة دينية مرموقة . وقد توفي الناظر النعمة سوركتي ناظر قبائل الكاجا ، ولم تجد الحكومة آنذاك من افراد اسرته من يخلفه ، فضمت نظارته للمرحوم الشيخ علي التوم ناظر الكبابيش ، وبهذا اتسعت رقعة نفوذ الكبابيش في تلك المنطقة .

ولليل المقمر فى سودري سحر آسر كم اقضَّ مضجعي وتركني ساهراً أتأمل الرمال البيضاء والجبال العالية من جانب ، ويحمل اليَّ النسيم من بعيد اصوات فتيات الكاجا يغنين ويرقصن حتى مطلع الفجر ، والفتية من حولهن يرقصون معهن ،ان اكثر من حلقة رقص ينبعث منها الغناء شجياً طوال ساعات الليل . . . ولكننا لا ندنو منها ، انها ليست كحلقات البدويات العربيات تحيط بها تقاليد اصيلة تمنع الشغب والتعدي وتبيح اللهو الحلال . . . بل كثيراً ما تنتهي حلقات الرقص عند الكاجا بالشغب او الترصد للاعتداء لما يثيره تنافس الشباب حول الفتيات الحسان ولما في حياتهم الاجتماعية من حرية تدنيهم من الاباحية .

الى حمرة الشيخ

الجمال ترقل بنا إرقالاً ونحن نغادر مدينة سودري الصغيرة متجهين غرباً صوب بادية الكبابيش وقد ودعنا الرفاق في تلك المدينة الصغيرة التي ترقد على سفوح سلسلة من الجبال تحيط بها من كل جانب ، وقد ساروا معنا على خيولهم ومطاياهم موظفين وتجاراً كعادتهم دائماً كلماغادر مدينتهم الوادعة واحد منهم او ضيف من ضيوفهم - وقد التأم الموظفون والتجار في هذه المدينة فى حلقة واحدة وفي مودة صادقة ، وألفة محببة ربما كان مصدرها أنهم كلهم من النازحين الى هذا المكان ، من جاء يسعى للرزق تاجراً ، او جاءت به الوظيفة بالرغم منه ، وقد كان في مقدمة ركب المودعين السيد عبد الرحمن العاقب مأمور المركز والذى لن أنسي أفضاله وتوجيهاته السديدة لي وانا ادخل تلك التجربة العنيفة علي صغر السن وحداثة العهد بالوظيفة .

وتوقف ركب المودعين بعد ان ساروا معنا شوطاً طويلاً ، وترجلنا جميعاً لكي نودع بعضنا بعضاً ، ثم امتطينا ركائبنا ، وانطلقوا هم شرقاً صوب مدينة سودري وانطلقنا نحن غرباً الى « حمرة الشيخ » زعيم البادية الشيخ السير علي التوم .

وكان ركبنا - أو على الاصح - ركب مفتش المركز المستر لي الحاكم بأمره في تلك المنطقة - يتكون من ثمانية من جنود البوليس المدججين بأسلحتهم وكان اثنان منهم يتقدمان الركب يحملان علمَيْ الحكم الثنائي يرفعانهما امامنا كلما شارفنا حياً بدوياً او قرية من القرى او جماعة من المسافرين او الرعاة على قلة ذلك في هذا الطريق إيذاناً بأنه ركب الحاكم ، ويخفضان العلمين عندما نتجاوز الحي او الجماعة .

وخلف جنديي العلمين يسير « جناب المفتش » على جمل أحسن اختياره وأكملت زينته . . . السرج الواسع الجميل ، عليه « الفروة البيضاء » « المرعز » كما يسمونها .وقد تدلى طرفها على صفحتي الجمل ، ويسيل على العنق حتى يد المفتش « رسن » من الجلد الناعم المضفور بعناية فائقة ليحكم به سير الجمل إرقالاً او إيجافاً او إيخاداً .

وقدر لي ان اسير بجانب المفتش على جمل استؤجر لي من اعرابي تركناه يسير مع

جمال الحملة التي تسبقنا عادة في التحرك لبطء سيرها ولتصل الي المكان المعين لنزولنا حيث يتمكن خدامو المفتش من اعداد معدات الراحة له لدى وصوله . ولم يكن على الجمل الذي يحملني زينة ما ، سوى « السرج » الذي اعارني اياه صديق من التجار عندما رأي حقارة سرج الاعرابي الذي جاء به على الجمل لركوبي ، وكانت هي تلك أول مرة في حياتي اركب جملاً ... وكان يسير من خلفنا الجنود الستة الباقون ، كل اثنين منهم في صف واحد وكلهم بأسلحتهم وهم يرقلون خلف المفتش وفق سرعته في السير لحراسته أو لإعطاء ركبه الهيبة الرسمية الحكومية .

واخذت احاول الاستقرار على ظهر الجمل بشتى الطرق والاوضاع ، فقد كانت تلك تجربتى الأولى كما قلت ... وزاد قلقي واضطرابي عندما أخذت سرعة الركب تتزايد ، وكان اكثر ما يشقيني ويزيد من عنائي منظر هذا الانجليزي وقد ثبت على ظهر الجمل هادئاً مطمئناً وقد حشا غليونه وأوقده وأخذ يدخن في هدوء والجمل يرقل به كأنه في رحلة على سيارة تتهادى به في الريف الانجليزى ! ... وكبر في نفسي ألا أحسن ركوب الجمال وقد ولدت في البلد الذي عرف بها ويسبقني إلي ذلك فتي إنجليزي لم يرها من قبل إلا مصورة علي الورق ... وكان الجنود الذين يرقلون من خلفنا ينظرون الي في قلق ، فقد أدركوا بحكم خبرتهم منذ ان تحرك ركبنا أنني لا أحسن ركوب الجمال ، وكانوا يتوقعون سقوطي من على ظهر الجمل بين كل لحظة واخرى ، فتأهبوا لمعونتى سلفاً ...

وخيل الي ان المستر لي ينظر الي خلسة ويخفي عني ابتسامة ساخرة وقد فطن الي عجزي من مجاراته في الركوب ! فزاد ذلك من حنقي ، وازددت اصراراً على التشبث بسرج الجمل والاستقرار عليه رغم ما كان يصيبني من كدمات على ظهري من النتوء الخلفي للسرج ... وكان هذا هو الدرس الأول - او قل التجربة الأولى التي اخذتها من هذه الرحلة .

وبعد أن سرنا مدي ثلاث ساعات ، كانت كلها عذاباً بالنسبة لي ، حتى خلتها لفرط عذابي ثلاثة اعوام ، بلغنا نهاية المرحلة الاولى للرحلة حيث نزلنا عن الجمال في فضاء رحب تناثرت فيه بعض الاشجار التي كانت تتفاوت في احجامها ووفرة ظلالها وذهب كل منا الى الشجرة التي اعدها له جماعة (الحملة) الذين سبقونا الى هذا المكان يحملون الزاد والماء والعتاد .

ونزل المستر لي نشيطاً مرحاً ، وغليونه لا يغادر فمه ،ونزلت محنيَ الظهر من عناء التجربة ولما لحقني من اذى السرج وهو يصدمني في سلسلة الظهر بسبب عدم استقراري عليه والجمل يخب بي غير آبه وتمددت على الرمل لآخذ حظي من الراحة ، وقد فاتني ان

استمتع بجمال الطبيعة وجلالها من حولي لما كنت اعاني من ألم ، ولم التفت الى ذلك طوال هذه الرحلة الاولى ، وقد عجبت فيما بعد بعد ان طفت بها اكثر من مرة وصرت خبيراً بركوب الجمال كيف فاتني ان اتملى هذا الجمال المنوّع في هذا الطريق الحافل بالجبال والتلال والوديان ، والجميع بين قسوة الصحراء حيناً ونضرة الطبيعة وسخائها احياناً اخرى .

ونصبت للمفتش في ذلك الخلاء منضدة سفرية صغيرة ، بجانبها كرسيان من نوعها ، وقدم له الشاي كاملاً علي طريقة اهله الانجليز - الشاي والكيك والزبدة والمربى ... الخ فجلس اليه ودعاني لمشاركته فاعتذرت اذ كنت في اشد الحاجة للراحة والتمدد على الرمل مباشرة ...

وكان هو يجلس الى الشاي بكامل زيه كما لو كان في ارقي الفنادق الحاشدة بالناس !. ولقد ادهشني اكثر عندما جاء اوان تقديم العشاء له ، اذ رأيته يعنى بلبس العشاء الخاص ويلف حوله ذلك الحزام الاسود حفاظاً على التقاليد ... وعجبت لماذا نسخر نحن من عاداتنا وتقاليدنا وها هو شاب انجليزي يحرص على هذا التقليد الذي لا معنى له وهو في قلب الصحراء يتناول عشاءه وحيداً !.

كان علينا ان نسير اربعة ايام ليلاً ونهاراً حتى نبلغ (حمرة الشيخ) مقر الشيخ علي التوم وعاصمة قبيلة الكبابيش ، تلك القبيلة ، ذات النفوذ الواسع فى تلك المنطقة الشاسعة بغرب السودان وحيث توجد أضخم ثروة حيوانية من الأبل تموج بها وديان تلك المنطقة ومراعيها ومناهلها ، والرجال من خلفها يحرسونها باسلحتهم النارية اذ لا يوجد رجل واحد يسير خلف ابله ولا يحتقب بندقية وقدراً غير قليل من الرصاص ... ولا تسل من اين لهم السلاح والرصاص فان لهم مصادر شتي تمدهم بها... وكان الانجليز يعرفون هذا ويتغاضون عنه ، ذلك لأن رعاة الكبابيش كثيراً ما يتعرضون عندما يوغلون في الصحراء في فترة الشتاء الى هجمات مسلحة من بعض القبائل الرعوية الخاضعة للحكم الفرنسي كقبائل الكنين والفيزان في شمال افريقيا وتدور بينهم رحى معارك عنيفة يغنم فيها المنتصرون أبل المهزومين ، وقد يعيد المهزومون الكرة عاماً آخر ويتربصون بأيٍ من افراد القبيلة الاخرى يرعون ابلهم على الحدود فيغيرون عليهم ويثأرون لقتلاهم ولابلهم المنهوبة .

كنت شديد اللهفةوالشوق لرؤية الشيخ علي التوم الذي سمعت عنه الكثير قبل بدء هذه الرحلة ، كما كنت تواقاً للتعرف الي هذه البيئة البدوية الرعوية التي اخترتها بمحض رغبتي ميداناً أستهل به حياتي العملية . وقد حدثني المسؤولون سلفاً عن الصعاب

التي سألاقيها وعن خشونة الحياة وقسوتها في البادية لشاب مثلي لم يفارق المدينة منذ نشأته . ولم أتهيب التجربة فقد كنت في مستهل الشباب حيث يلذ اقتحام المخاطر وحيث نعيش في مُثُل فتنا بها ، واعتقدنا ان لنا رسالة لم يخلق لها غيرنا ... وما اعذب احلام الشباب وطموح الشباب !. وقد أفادنا ذلك الغرور - ان شئت ان تسميه غروراً او ذلك الطموح الذي كان يدفعنا دفعاً لخوض كل تجربة مهما قست .

وهأنذا أخوض التجربة ، وما أبعد الفارق واقساه بين الاحلام والطموح وبين الواقع ... الصحراء تمتد وتمتد كأن لا آخر لها ، والجمال ترقل بنا صباحاً ومساءً ، حمرة الشيخ تزداد بعداً وعسراً وقد أدمى سرج الجمل ظهري وما زال الغد مجهولاً !.

وفي اليوم الرابع اشار احد الجنود الى جبال بدت من بعيد كأنها سحابة دكناء توشك ان تنفجر ماءً ، وقال : هناك تحت سفوح هذه الجبال ترقد حمرة الشيخ ... وتهللت طرباً ، فقد اشرفت على بلوغ المكان الذي جئت اليه وفي ذهني حشود من الصور التي افتن في ابداعها من حدثوني عنه قبل ان ابلغه ، وما أبعد الفارق بين ما سمعت وما خبرت فيما بعد وزاد من بهجتي اني سأرتاح من عناء ركوب الجمل .

واشرفنا علي (الحمراء) كما اسماها استاذي الشاعر الفحل المغفور له الشيخ محمد سعيد العباسي الذي التقيت به هناك وعرفته عن كثب وشهدت كيف اوحت اليه هذه الحمراء بأروع شعره الذي حفل به ديوانه . ولهذا حديث آخر من بين هذه الاحاديث .

وبعث المستر لي الى الشيخ علي التوم بنبئه بأن ركبه موشك على بلوغ الحمراء وانه سيكون معهم في الحي فى نحو التاسعة من صباح الغد ، وتحرك ركبنا في رحلته الاخيرة صوب الحمراء واقتربنا من مضارب الحي ، واذ بفرسان كثر يعدون نحونا وقد أطلقوا لخيولهم العنان ، وتعالت صيحاتهم في قوة وعنف ، وزاد من قوتها وعنفها تجاوب اصداء الوادي من حولنا معها ، ورفع الجندبان العلمين عاليين امام المفتش ، الذي بدا من حولي مزهواً وقد ارتدى مظهر الكبرياء والسلطان ، واوشك ان يقصيني من جانبه حتى لا أفسد عليه مظهره الرسمي ، وحتى لا أفهم ان لي حظاً من مشاركته في هذه الحفاوة ! .

عشرات من الشيوخ والشبان على صهوات الخيول ومثلهم علي ظهور الجمال أحاطوا بنا من كل جانب وقد هدأوا من الصياح ، وخيولهم ذات السرج العربية تصهل في عتوٍّ وهي تجاذب اللجم بعد ان كبحوا جماحها كأنها لا ترضي هذاالهدوء ...

كنت قد رأيت في مقدمة الخيل وهي تعدو نحونا بعض خيول ظننتها قد ألقت فرسانها على الارض وانطلقت بدونهم ، اذ لم أتبين فرساناً عليها ، فلما دنت رأيت على ظهرها اطفالاً لم يتجاوز اكبرهم الثامنة من عمره ، ولم تبن لي اجسامهم الصغيرة من بعد لأن

السرج العربية ذات الاكمام العالية على ظهور هذه الخيول قد حجبت الجانب الاكبر من اجسادهم الصغيرة .

وعرفت عندما ترجلنا للسلام والتعارف ان هؤلاء الاطفال هم تلامذتي الذين جئت لتعليمهم ، واذا بي أتلقي منهم اول درس في الفروسية !.

وترجل المفتش ليحيي المستقبلين، والعلمان مرفوعان امامه يحملهما الجنديان ومن ورائه الجنود الستّه المدججون بالسلاح مترجلين . وتقدم رجل ربع القامة يميل لونه الي السواد يرتدي (سروالاً) طويلاً تدلي حتى قدمية ، وقميصاً تجاوز الركبتين بقليل ، حول عنقة (ملفحة) بيضاء ، نظيف الثياب ، وعلي رأسه عمامة صغيرة بيضاء ، مستدير الوجه ، استرسلت لحيته الواضحة المشيب قليلاً ، فعرفت انه الشيخ علي التوم . وبعد ان حيا المفتش في ترحاب بدوي حار ، قدمني اليه المستر لي قائلاً : هذا هو فلان الذي اختير لتعليم أولادك ، فعانقني مرحباً واكثر وأطال في عبارات الترحيب حتى اخجلني وعجزت ان أباريه فيها . . .

وعدنا مرة اخرى الي ركائبنا ، فقد كان هذا اللقاء على بعد عدة كيلومترات من الحي كعادتهم كلما جاءهم زائر هام ، وتقدم الركب الجنديان حاملا العلمين وخلفهما المفتش وبجنبه هذه المرة الشيخ علي التوم على فرس رائع المظهر والزينة وهو يتحدث هاشاً باشاً الى ضيفه الذي كان يبادله اللطف والبشاشة .

واقتربنا من الحي ودوي (النحاس) يزداد قوة وعنفاً كلما ازددنا اقتراباً ، ولما بلغنا الحي ، استقبلتنا صورة اخرى من الحفاوه بالضيف الحاكم . كان هناك فتيات كثيرات يغنين ويصفقن ويرقصن وزغاريدهن تصم الآذان مع دوي النحاس الذي التف حوله عدد من الشبان والشيوخ (يعرضون) بالسيوف والعصي والسياط ، اما الفرسان الذين استقبلوا ركبنا خارج الحي فقد أخذوا يقومون باستعراض فروسي جميل على ضربات النحاس ، واستهواني منظرهم فوقفت مشدوهاً مبهوراً انظر الى اولئك الفرسان وفي مقدمتهم تلامذتي الصغار وهم علي ظهور الخيل كأعتى الشبان واشدهم جلداً .

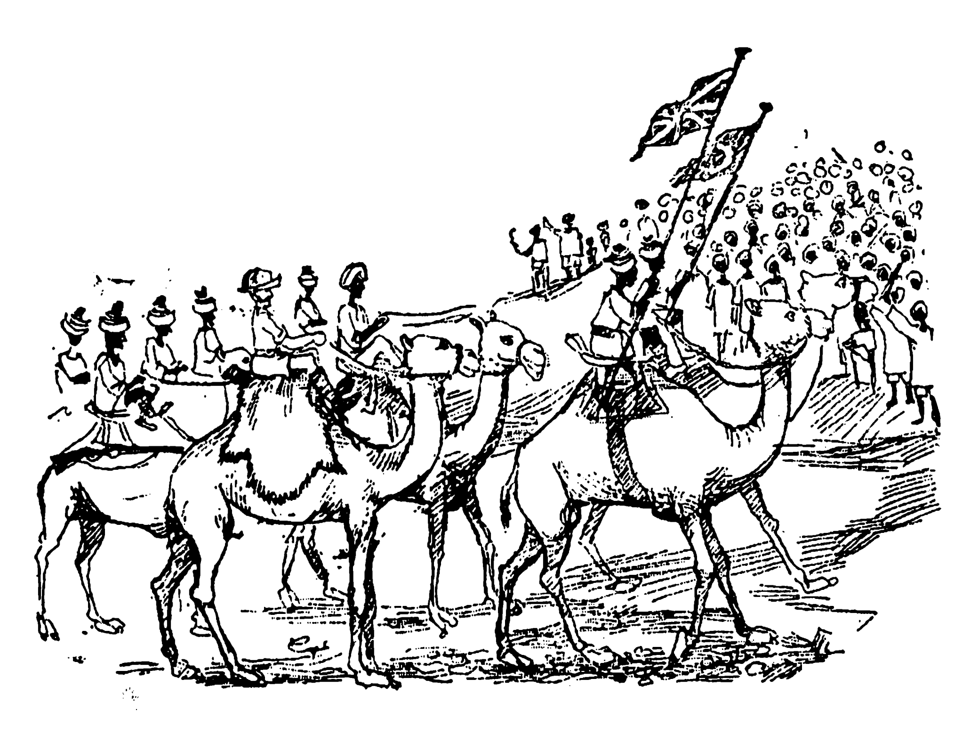
وانفض سامر العرض والاستقبال بعد فترة وكان بالنسبة لي شيئاً جديداً يغاير كل ما عرفت وألفت من قبل .

وألقيت نظرة فاحصة على حي الحمراء الذى جئت اليه مشتاقاً متلهفاً . . . كان حياً بدوياً خالصاً ليس عليه مظهر واحد من مظاهر الحضارة ، وانما هي بيوت من الشعر تناثرت في غير انتظام ، بعضها في العراء ، وبعضها احتمى بالاشجار التماساً لظلها ، ولا حجاب ولا (حيشان) تحجب بيتاً او تخفي داراً . كلها مكشوفة ينتظمها هذا الهواء

الطلق ورباط القبيلة الذي جعل منهم كلهم اسرة واحدة متماسكة لا غريب بينها يخشونه ولا يقيمون من اجله الاسوار !

وخصصت لي خيمة صغيرة لسكناي ، سرني انها وضعت بالقرب من اشجار متشابكة ظليلة . ووضعت داخل الخيمة سريري السفري الصغير الذي احضرته معي بعد ان عرفت ضرورته ممن خبروا حياة البادية وعليه لحاف بسيط ومنضدة سفرية صغيرة ، ومقعد مماثل ، ولا شئ سوى هذا .

ولكن هذا على ضآلته كان ترفاً حضارياً ينظر اليه البدويون والبدويات خلسة كلما ساروا امام خيمتي في كثير من العجب والتساؤل - عندما جاءني الشيخ علي التوم لأذهب معه لتناول الغداء عقب وصولنا ، وألقى نظرة علي خيمتي من الداخل ، ورأى المنضدة والمقعد والسرير السفري عليه (لحاف) قال ، وهو يخفي ابتسامة ماكرة ... لماذا كل هذا يا ابني ؟!



إلى حمره الشيخ

في دار الشيخ علي

كنت أسير بجانب الشيخ علي التوم الزعيم البدوي الكبير نحو منزله لأتناول معه طعام الغداء لأول مرة عقب وصول ركبنا الى الحمراءوكأن يسألني عن رحلتي وما لقيت من مشقة السفر الطويل في حنو الوالد الكريم وأنا أجيبه زائغ البصر أتلفت هنا وهناك الى بيوت الشعر التي يسكنها البدويون من حولنا وقد استهواني منظرها وأسرتني بساطتها ، حتى دخلنا بيت الشيخ علي ، أو (البيت الكبير) كما يسمونه ، أذ أن للشيخ بيوتاً عديدة لنسائه الأربع وبعض السراري وقد جعل من هذا البيت الكبير مقراً لأجتماعاته مع قاصديه ، ومحكمة للنظر في القضايا المختلفة وداراً يحتفي فيها بضيوفه الأحصاء ولم يكن هذا البيت يتميز عن غيره من بيوت البدويين بشئ إلا أنه أكبر حجماً نسبياً ، فهو أشبه بالخيمة الواسعة الأرجاء وقد خلا من أي مقعد أو سرير أو أي قطعة من قطع الأثاث التي تزدحم بها بيوت الأثرياء في المدن ، هناك (عنقريب) صغير عليه سجادة وفرشت الأرض الرملية بالسجاد لنجلس عليه ونتناول الغداء .

وتربع الشيخ علي الأرض المفروشة بالسجاد وتربعت بجانبه ، وخلال حديثه عرفت أنه ينتظر المستر لي ليتغدى معنا .. وصعقت ، أترى أن للشيخ داراً أخرى غير هذه سينقل اليها عندما يحضر المستر لي ؟ أم أنه سيتربع معنا ايضاً على الأرض ..والطعام ؟ ماهو ؟ هل سيقدم على النهج الأفرنجي تكريماً لهذا المفتش الإنجليزي أم سيكون طعاماً بلدياً ؟ ..وأن كان بلدياً كما يدل عليه هذا المظهر البسيط الذي نحن فيه فكيف يتناوله هذا الشاب الإنجليزي الأرستقراطي والذي شهدته في قلب الصحراء لايشرب الشاي الا كاملا ولايتناول العشاء إلا إذا ارتدى له زيه التقليدي !

ودخل علينا احد الرجال ليقول للشيخ ان المفتش قادم ، وأسرع الشيخ الى ملاقاته ووقفت أرقب دخولهما .

وجاء المستر لي وبدا لي انه كان على معرفة تامة بتقاليد هذا الغداء وليست هذه مرته الاولي مثلي ... وتربع على السجاد ، ودار الحديث بينه وبين الشيخ علي عن رحلة لهما قاما بها معاً في العام الماضي ، وكنت أرقب المستر لي وهو يمد رجله آنا ، ويتكئ شبه

مضجع آناً ولا يبدي تبرما لما كان يلقى في جلسته تلك وكان بالطبع يرتدي زيه الرسمي ، ولم تكن هناك حشايا او مساند تعينه علي جلسه مريحه فما تعرف دار زعيم البادية شيئا من هذا المتاع الحضري .

ودخل الخدم يحملون جفاناً سوداءمن الخشب مليئة بالثريد مكللة باللحم وجفانا مثلها عليها شواء اخرج من الجمرلتوه ... فتذكرت قول الشاعر العربي يفخر بجفان كهذه يقدمها لضيوفه وقد لامه قومه على اسرافه في الدين .

يعاتبني في الدين قومي وإنما ديوني في أشياء تكسبهم حمدا

الي ان يقول :

وفي جفنة ما يغلق الباب دونها مكللة لحماً مدفقةً ثردا

ولكن زعيم البادية لا باب لداره ، وانما هي خيمة من الشعر تخفق فيها الريح من كل جانب ، وتدخلها من حيث شئت ولا حرج فكلا جانبي خرشي طريق لها .

ولكن زعيم البادية ايضاً لا ديون عليه يعتذر عنها بهذه الجفان التي يكرم بها ضيوفه ، فهو من اثرياء المعدودين في السودان ، وثراؤه غير خفي تنطق به هذه (الخزنة) التي يخرج بها حاملوها من الدار لتحملها جمال خاصة كلما تحرك الحي من مكان الي مكان . وهي ليست خزنة من الحديد الصلب ، فالشيخ غير حفي بمثلها ، وانما هي (جربان) من الجلد أودع في كل منها ما يملأه من القطع الفضيه المختلفة ، ولا تقبل خزائن الشيخ غير هذه القطع الفضية اطلاقاً « فالريال » هو وحدة التعامل في كل البادية ، وفي اكثر مناطق الغرب ، وهم يعنون بالريال في ذلك الوقت ، الريال المصري الذي يساوي عشرين قرشاً -- وكل شئ يقدر ثمنه على اساس هذا الريال ، ويسمونه الريال (المجيدي) ولعل مبعث هذه التسمية انه صك لاول مرة في عهد السلطان عبد المجيد . وبجانب « جربان » القطع الفضية نعلم ان هناك جراباً حشدت فيه اخراس من الذهب ، فالشيخ يحيل بعض النقد الى اخراس من الذهب ... اما العملة الورقية فلا مكان لها في خزينة الشيخ بل لا مكان لها في كل البادية اطلاقاً ، والتجار الذين يقصدون البادية لشراء شئ من بهائمها لايحملون معهم غير النقود الفضية مؤثرين الريال المجيدي اكثر من غيره لسهولة تداوله بين ايدي البدويين .

ودعانا الشيخ لندنو من الطعام ونأكل ، فنظرت الى فتى الامبراطوية الانيق وابن

الحضارة العريق ،ماذا تراه يفعل !... ولم يطل تساؤلي فلقد دنا من الشواء اولا واخذ يتناول منه بيده ويأكل في شهية ويتخير منه ما يطيب له ! ... ثم أدنيت منا جفنة الثريد ... خبز ومرق ولحم ، وأدخلت يدي في الجفنة علي طريقتنا المعهوده لآخذ حظي من الثريد ، وظننت ان فتي الامبراطورية الانيق سيعزف عن جفنة الثريد ، ولكنه سرعان ما اهوى بيده الى صميم الجفنة كما فعلنا نحن وصار يلتهم الثريد التهماماً والمرق يسيل من بين اصابعه ، والشيخ يعزم علينا ملحاً ،وهو يجامله ويتابع الأكل بيده ، مثنياً علي الشواء والثريد .

وانتهى الطعام وتمددنا على السجاد ، وحشا المستر لي غليونه واخذ يدخن كمن شبع من افخر الطعام واشهاه ... وجاء الخادم بالشاي الأحمر - استغفر الله - بل الشاي الاسود ، فما يطيب الشاي للبدويين الا اذا غلي في النار حتى يسود لونه ثم يوضع عليه سكر كثير ،وعجبت لنفسي فقد وجدت عناء في تجرع ذلك الشاي بينما كان الستر لي يعب منه كلما استزاده الشيخ من تناوله .

وعرفت في تلك السويعات أشياء جديدة لم اكن ادركها من قبل لحداثة سني وفقداني للتجارب - اذ كنت في مستهل حياتي العملية - عرفت الى اي مدى يعمل هؤلاء البريطانيون لتحقيق مصلحة امبراطوريتهم وتدعيم استعمارها فهذا الشاب الانكليزي الذي بدا لي طوال الرحلة ونحن نشق الصحراء ارستقراطياً عريقاً لا يتنازل قيد شعرة عن تقاليد حضارته في تناوله لطعامه وشرابه وهو وحده في العراء . ويعود بدوياً كباشياً يتناول بيديه الشواء الذي انضج على الجمر مباشرة ، ويلتهم الثريد الذي يسيل مرقه من بين اصابعه ، ويشرب الشاي الاسود الذي يحتاج تناوله لغير معتاده الي قوة احتمال خارقة ، ويظهر لزعيم البدويين استطابته لهذا الطعام وشهيته لتناوله ... انها مصلحة الامبراطورية ومقتضيات السياسة التي عليه ان ينفذها !...

وخلال الاربع سنوات التي قضيتها بين مضارب البدويين ، تكرر هذا المشهد حتي صار مألوفاً لديَّ، ولم يعد غريباً عليَّ ان نجلس هذه الجلسة علي الارض ونأكل الشواء والثريد ، ولا شئ غيرهما - مع كبار رجال الادارة البريطانيين الذين كانوا يزورون الشيخ علي تباعاً ، بل إن بينهم من رأيته يصرعلى أكل (المرارة) كما يفعل السودانيون ويستطيبها !...

ولست انسى جلسة كهذه كان واسطة العقد فيها داهية السياسة الانجليزية في السودان المستر نيوبولد وقد جاء لزيارة الشيخ علي ، ونيوبولد - كان مديراً لكردفان عندما التقيت به لأول مرة في الكبابيش - وهو صديق حميم للشيخ فشهدته يلتهم الشواء

والثريد بيديه ويشرب الشاي الاسود ويتمدد على السجاد المفروش على الارض . وقد اعود الى هذه الشخصية الكبيرة في حديث آخر من هذه الذكريات .

وفي الواقع ان نيوبولد مدير كردفان في تلك الفترة ، هو صاحب فكرة اعداد مدرسة متنقلة لتعليم ابناء زعيم البادية ، وقد علمت فيما بعد ان الشيخ علي كان يرى ان يرسل ابناءه ليتعلموا في مدارس امدرمان ، فله بام درمان ابن عم اتخذه وكيلا بها ليرعى شؤون الكبابيش الذين يفدون اليها بكثرة لبيع بهائمهم ، وتعتبر ام درمان سوقهم الرئيسية .

وكان للشيخ علي وجهة نظر خاصة ، ألا تفتح مدرسة في البادية لسببين ، أولهما عدم ايمانه بجدوى تعليم البدويين الرعاة ، فما غناء التعليم لراع يسير خلف إبله او غنمه من موردالى مورد ومن مرعي الى مرعي ؟ ... وكان كثير من زعماء العشائر لم يكونوا من دعاة التعليم في مناطقهم لأسباب ، ربما كان أهمها خوفهم من ان يدفع التعليم ابناء القبيله الى التمرد على سلطانهم ! .

والسبب الثاني الذي كان يخشاه الشيخ علي ، وجود موظف حكومي يعيش معه في البادية ، فقد يكون عيناً عليه وعلى اهله وهو يعلم مدى الحرية التي يعيش فيها الكبابيش بفضل رعايته لهم واطمئنان الحاكمين اليه وتجاوزهم عن كثير من اخطاء الكبابيش ... فالسلاح مثلاً يباع في وضح النهار دون خشية من أحد والرصاص كذلك يباع بينهم في سهولة ويسر ، ويصنع بعضه محلياً اذ يستجلب البدويون نوعاً معيناً من (البارود الجبلي) والقصدير ونوعاً معيناً من الكبريت ويصنعون من هذا الخليط رصاصاً يصلح للاستعمال ... لهذا كان الشيخ علي لايطمع في اكثر من تعليم ابنائه شخصياً في احدى مدارس ام درمان .

اما نيو بولد فقد كان يرى ان تفتح مدرسة في البادية ليعلّم ابناء زعيم البادية في عقر دارهم فلا ينتقلون لأم درمان ، ولا عجب ان يصر على هذا الرأي فهو يعلم جيداً ان النهضة الوطنية قد غرست بذورها في ام درمان وانها اخذت تبرز وتنمو بوجه يخيف الانجليز ، ولن يغيب علي رجل مثل نيوبولد أن يقدر مدى ما يمكن ان يخلقه تنشئه اطفال يعدون لزعامة قبيلة من أهم قبائل غرب السودان في مدينة تعتبر مهد الحركة الوطنية ومصدر الوعي السياسي .

أكتب الآن بعد سنوات وسنوات مرت بها على البلاد أحداث كثيرة ، وشاء الله أن أشهد بعيني مصرع الفكار لنيوبولد ، فإن فضل الله علي التوم احد تلامذتي الصغار الذين كان نيوبولد يخاف من تعليمهم في ام درمان حتي لا يجرفهم الوعي الوطني ، فضل الله

هذا كان أول نائب لأول برلمان سوداني وقد فاز بالتزكية عندما وقف في صف الشعب الذي كانت تهدر جموعه كالسيل هاتفة بجلاء المستعمرين وخروجهم من البلاد ، وقد كانت فجيعة الانجليز في اصدقائهم الذين عاشوا لهم السنوات الطوال وظنوهم سيقفون بجانبهم ضد التيار الوطني لا تماثلها فجيعة ... ومن ذلك موقف تلامذتي ابناء الزعيم البدوي الذي منحه الانجليز ارفع أوسمتهم وألقابهم وكانوا يجلسون معه القرفصاء على الارض ويأكلون الثريد بأيديهم ويشربون الشاي الاسود استجلاباً لصداقة وطيدة حسبوها كامبراطوريتهم لا تغرب عنها الشمس ، وقد غربت عنهما معاً . لقد كان اولئك الابناء في مقدمة المناضلين عن حرية بلادهم واستقلالها ولم يترددوا قط في مناصرة الحركة الوطنية جهرة والوقوف بجانبها والانجليز ما زالوا بسلطانهم في داخل البلاد يشهدون بأعينهم مصرع عهدهم وزوال استعمارهم ...

أعود الي جلستنا تلك بعد هذا الاستطراد - وقد شبعنا انا والمستر لي شواءً وثريداً وشاياً اسود ، وخرجنا من بيت الشيخ وهو يشيعنا بعبارات الشكر وكلمات الترحاب تنثال من فمه انثيالاً .

وعدت إلي خيمتي افكر في هذا الجو الجديد الذي قدر لي ان اعيش فيه وقد زادتني تصرفات المفتش الانجليزي قوة وعزيمة ومضاء ،فإن كان هو في سبيل امبراطوريته وتدعيم سلطانها ، ركب الجمال وشق الصحراء ، ورضي بطعام بدوي جديب ، فماأحراني أن أصبر على المشقة والحرمان والعناء لأفعل شيئاً لهؤلاء الاطفال البدويين المحرومين من نعمة التعليم .

ومن عجيب المفارقات أنني ما كدت اعيش بينهم قليلاً حتى اذهلني ان أعرف ان عدداً كبيراً من الشيوخ - وفي اولهم الشيخ علي التوم نفسه - ممن عاشوا فترة المهدية في ام درمان تحت رقابة الخليفة عبد الله ، قد تعلموا القراءة والكتابة وحفظوا قدراً من القرآن ويحسنون معرفة الصلاة ويؤديها اكثرهم في حينها ، اذ ان فترة وجودهم في ام درمان في عهد المهدية قد مكنتهم من تعلم قدر من هذا الذي ذكرت ، وما كاد الحكم الثنائي يوطدار كانه ويعود الكبابيش الي مناطقهم ومراعيهم ،وتكاثروا مالاً ورجالاً حتى نشأ اطفالهم في أمية مطبقة ، وكانت المدرسة الاولية التي افتتحتها في أول ١٩٣١م هي أول مدرسة اولية تحظى بها بادية الكبابيش وأول معهد للتعليم يقام بينهم منذ أن غادروا ام درمان و عقب حلول الحكم الثنائي وزوال عهد الخليفة عبد الله ،

وكان شيئاً فريداً ان ترى بعض الآباء يقرأون بعض سور القرآن ، وبعضهم يحسن تهجي الكلمات بينما تجد ابناءهم لا يعرفون حرفاً من حروف الهجاء ،

ظل المستر لي معنا اكثر من شهر وقد ضرب خيامه أمام الحي . كان يجتمع مع الشيخ علي بعض ساعات النهار ، ثم يظل يكتب ويقرأ ولم يكن يتدخل في قضايا الكبابيش ، اذ كان الشيخ علي صاحب السلطة المطلقة في ذلك ، ولا يستطيع كباشي واحد ان يتجه الى اي مركز حكومي ليقدم شكواه . وقد وضح لي ان مفتش المركز كان يطيل بقاءه بين البدويين اظهاراً لوجود الحكومة وهيبتها بالاضافة الي مشاوراتهم مع الشيخ علي في بعض الشؤون المحلية اذ لولا هذه الزيارات الرسمية التى كان يقوم بها الاداريون الانجليز للبادية لما أحس البدويون بوجودهم .

وقد لحظت طوال فترة بقائي هناك - وقد امتدت الى اربع سنوات - ان الانجليز لم يكونوا يسمحون لأي اداري سوداني بالذهاب لبادية الكبابيش وخاصة حي الحمراء مقر الشيخ . ولعل هذا يعود الى ما ذهبت اليه من انهم بزياراتهم وحدهم للبادية يريدون ان يؤكدوا وجودهم كحاكمين .

كان المستر لي يدعوني مساء كل يوم لأتناول معه الشاي امام خيمته ، حيث توضع منضدة للشاي حولها كرسيان لنا ، ويرسل جندي البوليس لدعوتي في الموعد المحدد للشاي ، وكان يهدف من وراء هذا الى امرين ، ان يستفيد مني في قراءاته لبعض الكتب العربيه وكان يعد نفسه للجلوس لامتحان عال فيها ، وان يحاول ازالة ما كنت احس به من شعور بالوحشة وانا ما زلت جديداً على البيئة البدوية ولم أختلط بعد بأحد من أناسها - ولم اكن أدري قط ما كانت تبعثه جلساتنا تلك من ريبه وحذر عند الشيخ علي التوم الذي كان يجلس عادة في مثل ذلك الوقت امام « البيت الكبير » - مقر اجتماعاته - وحوله عدد كبير من اهله وعشيرته ، يشربون الشاي ويتناقشون في امورهم وينظرون ما يعرض من قضايا الافراد وكل من هو في ذلك الاجتماع له حق المشاركة في الحديث عن القضية المعروضة - وكان الشيخ علي اذا ما رآني مقبلاً على خيمة المفتش وجلسنا معاً نشرب الشاي ونقرأ ، التفت الى من حوله قائلاً مبدياً تخوفه : « ها عرب ! نحن ما كتلنا . دحين الزول دا شيخ حيران » ؟! وقد عرفت ذلك فيما بعد ، بعد ان اطمأن الي وقربني منه وخلطني بأهله وأسبغ عليَّ بره وعطفه مما حبب اليَّ البقاء معهم في ظروف قاسية .

كانت من عادة الشيخ علي في مجلسه ذاك أن يجلس وحده على « عنقريب » صغير ليس عليه شئ ، ويجلس الناس على الارض الرملية مباشرة ، فإذا زاره غريب - وكان ممن يستحقون التكريم - وضع له فروة على الارض ليجلس عليها ، ولا يجوز لاحد قط ان يشاركه الجلوس على العنقريب ، ولم يكن ذلك عن كبرياء منه ، فقد كان كريماً شهماً متواضعاً ، ولكنها تقاليد القبيلة التي يجب ان تصان . فالشيخ وحده هو الذي يجلس

على العنقريب ، وكل من عداه جلوس على الأرض ،

وقد رأيته يلتزم بهذه التقاليد عندما يدخل على احد الاداريين الانجليز ، ففي ايامي الأولي ، كنت اشعر بغصة الألم وانا اراه معي قدم الى خيمة المفتش يخلع نعليه امامها ويلقي بعصاه او سوطه على الارض ويدخل عليه ويجلس على سجادة كانوا يعدونها لجلوسه خصيصاً ، ويجلس المفتش على كرسيه ، ويتبادلان الحديث ! وكنت انا اذا ما جئت الي خيمة المفتش تعمدت الجلوس على الكرسي ، وقد اوحي لي صغرالسن وقلة التجربة أني بهذا احرض الشيخ على ترك عادة الجلوس على الارض امام المفتش ! ولكني انهزمت امام اول تجربة جمعت بنا معاً . . . فقدكان المستر لي يتعمد الاجتماع بي في غيبة الشيخ لعلمه باصراري على الجلوس علي الكرسي ،وما كان ينتظر مني غير هذا - وقد ذكرت كيف كان يدعوني مساء كل يوم لتناول الشاي معه ونجلس جلستنا تلك والشيخ وعشيرته علي مقربة منا . . . وذات يوم اقتضت الظروف ان نجتمع الثلاثة للتحدث في شؤون المدرسة ، وجاءني رسول المفتش يدعوني ، وذهبت الى خيمته لأجد الشيخ علي يجلس جلسته تلك ،على السجادة ، والمستر لي يجلس على كرسيه ، وتملكتني حيرة لم يطل امدها ، أأجلس على الكرسي كما كنت افعل ؟ ام اجلس بجانب الشيخ على السجادة ؟ يبدو ان المستر لي كان قلقاً جداً ان اجرح الشيخ ، ولكني أسرعت وجلست بجانب الشيخ على السجادة ،وبدت علي وجه المستر لي مظاهر الرضاء عن مسلكي !.

كان المستر لي متعلقاً باللغة العربية حريصاً علي تفهمها وتذوقها ولم تقف جهوده عند نجاحه في الامتحان العالي للغة العربية الذي كان يعقد لهم بعد اجتياز الامتحان الاول - وكانوا يمنحون مكافآت سخية كلما اجتازوا امتحاناً - بل صار يقرأ كتب الادب العربي ويتذوق الشعر ،وكانت تعجبه قصص توفيق الحكيم ، لهذا فقد اختير من مفتش لدار الكبابيش ليكون مفتشاً للرئاسة بمصلحة المعارف ، وقد سماه المدرسون « الشيخ لي » لما رأوا حسن تفهمه للغة العربية .

وكان المستر لي هذا لايثق في السوادنيين ،ويندر ان يمنح ثقة لأحد ، ولعله يبطن حقداً عليهم وكراهية لهم ، وان بدا هادئاً ناعم الملمس مهذباً ، وقد اتضح ذلك من العديد من تصرفاته - ففي مركز القضارف ، وكان مفتشاً للمركز -- احرق مرة قرية كاملة لسبب تافه - واذكر ان السيد محمد احمد السلماني وكان آنذاك يعمل في القضارف ويراسل جريدة الرأى العام ، ان بعث اليها بهذا الخبر فأحدث دوياً في المجتمع واهتمت به الحكومة اهتماماً بالغاً . . . حدثني ايضاً الصديق السيد ميخائيل بخيت الذي كان مترجماً في مركز القضارف في عهد المستر لي ، انه لقي مرة عدداً من الاعراب على

جمالهم في مكان محرم فيه الصيد من غابات تلك المنطقة ، فعرهم المستر لي أنهم من الصيادين وانهم يقتحمون منطقة الصيد المحرمة عليهم ، فما كان منه الا ان امرهم بالابتعاد عن الجمال ، ثم اخرج مسدسه وقتل الجمال رميا برصاص مسدسه عقاباً وارهاباً للصيادين !.

وقد نقل ليعمل في مكتب حكومة السودان بالقاهرة ، ولقيته مرة في الخرطوم وقد أعيد من القاهرة ابان نشوب الحرب الاخيرة واعلان دخول السودان فيها - فحدثني انه كان سعيداً في القاهرة لأنه استطاع ان يزيد من ذخيرته اللغوية في اللغة العربية وانه التقي بكاتبه المفضل توفيق الحكيم ... ولم ألقه بعدها وقد اسندت اليه خلال الحرب مهمة تتصل بالمخابرات في شرق السودان وكان بارعاً في التنكر يجيد اللهجات المحلية هناك . وبعد انتهاء الحرب عمل لفترة في مصلحة المالية ، ولم يوفق في احتلال منصب مرموق في السلك الادراي حتى عاد الى اهله .

وجائنامفتشاً لدار كبار الكبابيش بعده فتي في مستهل الحلقة الثالثة رقيق مهذب يسمي (دي بنسن) وقد شغل في أواخر ايامه منصب مديرالخرطوم - كما جاءنا المستر سكوت الذي كان يعمل في مصلحة المعارف . وقد وضع فيها كتابه للاطفال للمدارس الاولية وما زال يدرس فيها حتى الآن باجراء تعديلات يسيرة عليه ، وقد زارنا معاً في البادية ، ونصب لكل منهما خيمة امام الحي وكان يؤذيني ان أرى الشيخ علي بطلعته المهيبة وشعره الأشيب وهو يخلع نعله امام خيمة الفتى (دي بنسن) ... وكان من عادة المستر سكوت ان يفسح لي مجال الحديث معه ، ولا يضيق ذرعاً بما كنت أبديه احياناً بحكم سني واني لم اعمل في اجواء المراكزحيث تشتد سطوة المفتشين ويخشاهم الناس ، وجو البادية الطليق يوحي بالصراحة والشجاعة ... قلت مرة للمستر سكوت ، اني افهم ان يجلس الشيخ على الارض عندما يكون مع المدير او المفتش الأول للمركز ، ولكنني لا أدرى كيف يفعل هذا الفتى كالمستر دي بنسن وهو في سن أبنائه ، وكيف تقبلونه ؟ وصمت قليلاً ، ثم قال ... اولاً عليك ان تفهم انا لم نطلب منه هذا ، وانما هي تقاليد قبيلته الا يجلس احد علي كرسي او مقعد امام « الحاكم » ودون التفات الي موضوع السن ، فأنت تري في مجلس الشيخ رجالاً يفوقونه سناً ويجلسون امامه علي الارض ويتربع وحده علي العنقريب ... هذه واحدة ، اما الاخري وهو ما لا تعرفه انت ، انه لا يفعل هذا امامنا عن ضعف او استخذاء ، فإنا نسمع احياناً من الشيخ علي كلما أقدمنا او حاولنا الاقدام على تصرف يحد من سلطانه او يحد من حرية قبيلته التي تتمتع بها الآن - نسمع من القول مالا يجرؤ اي سوداني آخر من المتعلمين الذين يجلسون بجانبنا على الكراسي ان يسمعنا اياه مهما فعلنا به !...

وكبر الشيخ أضعافا في نظري منذ ذلك الحين ولم يعد يؤذيني جلوسه امام المفتش بتلك الصورة ، فقد كان صدى حديث ، سكوت ، عبء يملأ أقطار نفسي .

***

العيد سباق وغناء ورقص

أود ان اسجل اولاً هذه الرسالة التي تلقيتها من صديق كريم قرأ ما كتبت عن المستر لي وآثر ان يثبت بعض الجوانب التي جاءت في حديثي عنه ، والرسالة تقول

تكملة لحديثك عن المستر لي وولعه بالأدب العربي وأغاني الكبابيش اذكر ان وقعت في يدي مذكرة كتبها عندما كان مديراً لشؤون الموظفين في (مصلحة المالية) سابقاً رداً علي رسالة تلقاها من المستر هيج يطالب فيها بالتصديق على بعض الوظائف تمهيداً لتطبيق نظام الحكومة المحلية في الكبابيش .

استهل المستر لي مذكرته في الرد على المستر هيج بما استهل به امرؤ القيس معلقته اذ كتب باللغة العربية :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

ولعل الحديث عن دار الكبابيش أثار كوامن ذكرياته فتمثل بهذه الشطرة الباكيه من المعلقة ... ثم كتب بعد هذا باللغة الانجليزية ما ترجمته :

(اذكر ان الشيخ علي التوم كان يلح علينا لشئ ما ، ولكنني اجزم بأن هذا الشئ لم يكن ابداً الحكومة المحلية ، وعلى اي حال فسيمضي الكبابيش في ترداد أغانيهم وينشدون ... وثم أورد نص هذه الاغنية الكباشية باللغة العربية) :

سمحات تلات فيات
البِلْ مع البنات
وخيلاً مربطات
صهباً مجنبات
ليلة الكبوس كان جات
في التور ابو ضرعات

وهذايؤكد ان الرجل كان حتى آخر عهده بالعمل في بلادنا يجتر ذكرياته عن الكبابيش

ويبكي عهده بينهم بكاء امرئ القيس حبيبه ومنزله ، ولا يجد بأساً من ان يستشهد في مذكرة رسميه ببيت من المعلقة وقطعة من أغاني الكبابيش .

وهذا حق فقد كان الرجل مولعاً بالادب العربي وبأغاني الكبابيش ، والاغنية التي استشهد بها تصور الحياة المثاليه في نظر الرجل الكباشي ، فالحياة المثلى عنده تتجلى في ثلاث فئات ، الابل والبنات والخيل ، فالابل هي الثروة الرئيسية التي يقتنيها للمباهاة وقل ان ينتفع بها انتفاعاً مادياً يستحق الذكر ، اذ ان المتعة النفسية التي يجدها في تكاثرها امامه لا تعادلهامتعة مادية اخرى ، وكلما كثر عددها ازداد جاهاً ونفوذاً بين اهله . . . والبنات - مصدر من مصادر متعته وسعادته ، ولهذا قل ان تجد ذا زوجة واحدة من أثرياء البدويين وذوى الجاه منهم ، اما الخيل فهي مظهر الفروسيه والشجاعة ،وبها تكتمل مظاهر الفتوه والقوة عند البدوي ،ولا شئ آخر في هذه الدنيا العريضة يعدل عنده الثلاث فئات ، الابل ، والبنات ، والخيل .

وفي الواقع ان كنوز العالم كلها لا تساوي عند البدوي هذه الابل التي يشقى من اجلها ويجوب الفلوات خلفها بحثاً عن المرعى والماء ، وكلما كثرت عنده شعر بالزهو والاطمئنان ، ويجد مشقة وعسراً عندما يعمد الى بيع بعضها ، وهو لا يفعل ذلك الا لدى الضرورة لمواجهة أهم الالتزاما ت المادية التي لابد منها ، كدفع الضريبة السنوية المقدرة عليه وشراء مؤونته من الذرة لطعامه ، والكسوة متى ما احس بضرورتها له ولأسرته

وما حاجته للمال وهو لا يبني قصراً ولا يبغي ترفاً ، فبيته خيمة صغيرة من وبر ابله يحمله على بعير أنى شاء ، حيث يطيب له المقام في ذلك الخلاء الواسع وطعامه من لبن ابله او غنمه وشئ من دقيق الذرة ، وثوبه واحد حتى يبلى . وقد لا يعرف الماء اليه سبيلاً ليغسله حتي يستحيل لونه الى لون التراب الداكن . . . كل هذا وهو يسوق امامه ثروة من الابل تقدر بألوف الجنيهات .

ومن طرائف ما اذكر ان شيخاً ثرياً من اقرباء علي التوم ، سألني مرة عن الحياة في المدن الكبري ، ثم تطرق الحديث بنا فسأل عن (لندن) ماهي ومن يسكنها ؟ وكان قد سمع بها عندما زارها الشيخ علي التوم عام ١٩١٩ مع أول وفد سوداني يذهب اليها مكوناً من كبار السودانيين - رجال دين وزعماء عشائر لتهنئة ملك الانجليز بالنصر عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى . وكان أكثر ما اهتم بمعرفته هذا الشيخ الثري ان يدرك شيئاً عن ثروة ملك الانجليز وم تتكون ؟ والثروة في نظره بالطبع تعني قدراً كبيراً جداً من الابل يليق بملك الانجليز ، فلما عرف مني انه لا يملك شيئاً منها بل انه لا توجد ابل

قط في بلاد الاجانب ، ابدى دهشة بالغة وعجب كيف لا يكون لملك عظيم (مراحات) عديدة من الابل وكيف يبلغ هذه المكانة بدونها ؟!

ولا عجب ، فجمال الحياة وثراؤها ونعيمها كله ينحصر في هذه الثلاث فئات التي جاءت في الاغنية التي استشهد بها المستر لي والكل ما عداها باطل قلت اننا ودعنا المستر لي وعدنا الى الحي ، واخذت اعد نفسي لهذه الحياة البدوية التي صارت تتكشف لي كل يوم عن جديد أجهله .

واقبل بعد فترة قصيرة عيد الاضحي ، وكنت متلهفاً لقدومه لأعرف كيف يحتفلون به ، وكنت قد سمعت شيئاً عن عاداتهم في مثل هذه المناسبات وبالرغم من ان مركز سودري قد ابلغنا بثبوت الشهروحدد يوم العيد كما جاء في نشرة قاضي القضاة الرسمية ، الا ان البدويين كانوا لا يأبهون بكل هذا ، فالشهر يثبت بالرؤية عندهم وحدهم ، ولهذا كانت اعيادهم تتأخر يوماً في الغالب الاعم ، وكذلك بدء الصوم في شهر رمضان

وأقبل العيد ، ومنذ الصباح الباكر كان نحاس الشيخ يقصف كالرعد ، معلناً عن العيد ، وجبال الحمراء من حولنا تردد الصدى فيزداد الدوي عنفاً وتهيأت للذهاب الى المكان المعد للصلاة في واجهة الحي ، ومع ان المكان قريب جداً فقد عجبت اذ رأيت الاكثرية الساحقة تتجه الى مكان الصلاة علي الخيل او الجمال ، وقل من كان يسعى بقدميه مثلي ، وازداد عجبي وانا أرى اسراباً من الفتيات والنساء وهن في أكمل زينة وأبهى حلة يتجهن ايضاً نحو مكان الصلاة . ! وقلت في نفسي ما شأن هؤلاء الحسان المزهوات بزينتهن وصلاة العيد ؟ !... وكن يتخطرن من هنا وهناك في ثياب زاهية ذات الوان صارخة ، مشرقات باسمات ، ووجدتني أردد مع ابي الطيب المتنبي قصيدته المشهورة :

من الجآذر في زي الأعاريب	حمر الحلي والمطايا والجلاليب
ان كنت تسأل شكا في معارفها	فمن بلاك بتسهيد وتعذيب

الي قوله :

أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها	مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية	وفي البداوة حسن غير مجلوب

ودنوت من مكان الصلاة ، في فضاء رحب امام الحي ، وحولي جموع من الفرسان على الخيول المطهمة ، وآخرون على جمال صهب خفيفه الحركة ، ووجوه زهاها الحسن ان تتقنع - كما قال ابن ابي ربيعة ، فكشفن عن مفاتنهن دون خشية ، وممهيخشين ؟ وكلهم أهل وعشيرة .

ولا تسلني كيف وقفنا للصلاة في صفوف تتلوى كالثعبان ، والفتيات خلفنا قيد الذرع منا وهمساتهن وضحكاتهن المنغمة تعبث بمشاعرنا ، وعطورهن النفاذة تكاد تصعد بها انفاسنا .

وأمنا شيخ من الفقهاء الذين نزحوا للبادية منذ عهد بعيد واستقروا بها يبيعون الرقى والتعاويذ للبدويين ، وتزوج من البادية وصار واحداً من اهلها ، وخطب خطبة العيد من كتاب قديم ممزق بلغة عربية فصيحة مسجوعة ، واكاد اجزم ان احداً من المصلين لم يعرف ماذا كان يقول الخطيب . . .

مهلاً . نسيت ان اقول شيئاً هاماً ، ان اكثر المصلين من الشيوخ جاءوا بشئ عجيب ، ان كلا منهم كان يحمل معه بعض (بعر) ابله ويضعه امامه في احترام زائد قرب موضعه للصلاة ، وكنت اراقب هذا في حيرة بالغة ، عرفت السر فيما بعد انهم يتفاءلون بهذا ويعتقدون انه يجلب السعادة لهم فتزداد ابلهم وتتكاثر . . . وما كادت الصلاة تنتهي حتى عمد كل منهم الي الذى احضره وصار(يشتته) في اهتمام بالغ ! ، الم اقل ان الابل هي كل شئ في حياة البدويين ؟. . .

وحسبت ان القوم سينصرفون الى بيوتهم بعد ان ادوا الصلاة ، وهنا بدأسر هذه المجموعة من الفتيات والفرسان ينكشف لي رويداً رويداً ، فان إحتفالهم التقليدي بالعيد بدأ بعد الصلاة مباشرة .

اسرع الفرسان الى صهوات خيولهم ووقفوا صفوفاً فى أول الميدان ، وفي مقدمتهم الشيخ علي التوم واخوانه وكبار شيوخ القبيلة وابناؤهم وكلهم على صهوات الخيل ودوى النحاس يرتفع فى قوة وعنف في طرف الميدان .وبدأ عرض الفروسية . . . وخرج من صف الفرسان الشيخ علي التوم واخوه محمد التوم يعدوان عدواً منتظماً بحصانيهما وتكاد تحسبهما على حصان واحد لشدة توافق خطوات العدو والتزام الفارسين ، ويسمى هذا العرض عندهم بـ(القَلَب) بفتح القاف واللام .

وتعالت زغاريد النساء والفتيات عندما برز الشيخ علي واخوه يبدآن العاب الفروسية . وتتابع الفرسان بعدهما ، كل اثنين معاً ، من اول الميدان حتى آخره في عرض فروسي رائع والخيل تركض بهم ركضاً تحس فيه بالزهو والخيلاء اذ تحكم الفرسان فيها فلا يتجاوز حصان حصاناً آخر . . . وكلما اكمل الفرسان شوطاً بدأو اشوطاً آخر ، وكان يبدأ الشوط الجديد دائماً الشيخ علي التوم واخوه الشيخ محمد التوم ثم يتتابع الشيوخ والشباب بعدهم يكملون العرض ، وزغاريد النساء تعلوو ترتفع والنحاس يوالي إيقاعاته التي كانت تساعد الفرسان على التحكم في عدوهم - أو قلبهم - وفق هذه الايقاعات .

وانقضى هذا العرض الممتع ، وحسبت اننا سنعود الى الحي ولكن كانت هناك ايضا مفاجأة اخرى لا تقل روعة عن تلك . واستطعت بعدها ان ادرك لماذا تجمعت الفتيات في ازيائهن الزاهية حول مكان الصلاة ،مثلما ادركت منذ قليل لماذا جاء الرجال للصلاة على صهوات الخيل والمكان قريب !.

اسرعت الفتيات عقب انتهاء العاب الفروسية الي حلقات متقاربة وفي ذات الساحة التي شهدت صلاة العيد والعاب الفرسان ، وتعالت اصواتهن الندبة بغناء جماعي شجي وسرعان ما تجمع الشبان حولهن ، وصارت لكل حلقة ، نصف من الرجال ومثله من الفتيات وارتفع من صدور الرجال كرير منغم مع صفقة موقعة بايديهم وايقاع منتظم بارجلهم وانتظمت بهذا موسيقي بدائية حلوة الوقع ساذجة النغم ...

وبرزت الي منتصف الدائرة فتاة ممشوقة القوام ، وقل ان ترى بين البدويات من اثقلها السمن - فنضت ثوبها عن رأسها وعنقها وجانباً من الصدر ، واخذت ترقص على تلك النغمات ، تارة في هدوء وسجو ، وتارة تقفز قفزات موقعة ، ورأسها وعنقها وصدرها تهتز وتنثني في انسجام وتوافق ، وهي تدنو من الشباب الذين « يطمبرون » حتى لتكاد تلامسهم بجسمها وتخص كلا منهم « بشبال » تومئ به من شعرها ايماء على بعد خطوة او خطوتين من الشباب المعني ، وهو يحني لها رأسه في اجلال رداً لتحيتها ... حتى اذا ما ارضت كل فتى من الذين يصفقون ويطمبرون ، عادت الى اخواتها في خطوات راقصة وهي تنثني وتتأود وقد تختتم رقصتها « بشبال » اخير تخص به الفتاة التي تقود الغناء في تلك الحلقة ...

وتعود فتاة اخرى الى الدائرة لتأخذ حظها من الرقص ، وقد تحمل هذه المرة في يدها « سوطاً » يشاركها الاهتزاز والتثني .

وحول هذه الحلقات الراقصة يجتمع الفرسان على خيولهم وراكبو الجمال من خلفهم يتطلعون الي الرقص من علي ظهور الجمال ، وتراهم يتبادلون الانتقال من حلقة الى اخرى ، اذ هناك اكثر من حلقة راقصة تعلن الابتهاج والفرحة بالعيد ... وتظل هذه الحلقات في رقص وغناء ومرح الى ما يقرب من منتصف النهار ...

وفي الحي ترتفع رائحة الشواء حيث يقدمونه لبعضهم مصحوباً بمشروب محلي يصنعونه من الدخن اقرب الى « المريسة » يسمونه « ام شكة » ويكاد لا يخلو منه بيت ولا يتردد احد في تناوله ... وقد يكتفون بهذا الشراب وحده عن اي طعام آخر ... ولا يقدمون في بيوتهم غير هذا الشراب والشواء والشاي الاسود .

وعند الظهيرة يركب « الشيخ علي »حصانه ومعه خاصة اهله حيث يطوف على

بيوت الحيّ والاحياء القريبة مهنئاً بالعيد ، لكنه قل ان ينزل عن حصانه ليتناول شيئاً من طعام او شراب الا عند بعض خاصته .

فاذا جاء المساء ونشر القمر شعاعه الفضي على تلك الرمال البيضاء تجمعت الفتيات مرة اخري في حلقات وارتفعت اصواتهن الندئة العذبة بالغناء ، وخف اليهن الشباب وتنتظم حلقات الرقص ، ويبقى هذا السامر البدوي في غناء ورقص ومرح حتى الهزيع الاخير من الليل .

وكنت اطوف مع شبان الحي - وقد انست اليهم وانسوا الي - علي هذه الحلقات ، وكنت اعجب لمنظر الشيوخ وقد عبث الشيب بهم وتخددت وجوههم وهم يقبلون علي هذه الحلقات في نشوة الصباومرح الشباب ولا يرون في ذلك بأساً . . . إن حلقات الرقص هذه لا يتحرج أحد مهما كانت سنه او مكانته من الوقوف عندها وأن يأخذ حظه من الامتاع بمشاهدتها . . . فهي اشبه بدور السينما والتمثيل في البلد المتحضر لا يخجل شخص من غشياتها .

وكان يعجزني ان اقف مثلهم طويلاً لدى هذه الحلقات ، فأعود الى خيمتي مجهداً أحاول النوم - ولكن تلك الاصوات الحلوة الآسرة المنبعثة من تلك الحلقات تلاحقني بذلك الغناء الشجي الذي يصور عواطفهم الحرة الطليقة ، فتقض مضجعي وينفر النوم عني وأظل ساهراً حتى الهزيع الاخير من الليل وتخفت تلك الاصوا ت الرائعة . . . ولكم كانت تهزني هزاً اغانيهم الساذجة الحلوة تتحدث عن عواطفهم المشبوبة وحبهم الجارف ون تورية او خداع . . . ولكم كانت تلك الاصوات تشدو بمثل هذه الاغنية العاطفية :

سرجه علي مقافي
ودعته في العافي
ياتومي ما تجافي
عهدي المعاك صافي

اي . . . لقد ركب الحبيب جمله مولياً (مقافى) وودعته متمنيه له العافيه (في العافي) . . . فيا ايها الحبيب لا تجف (ما تجافي) فان عهدي الذي قطعته لك عهد نقي صاف لا خداع فيه ولا زيف .

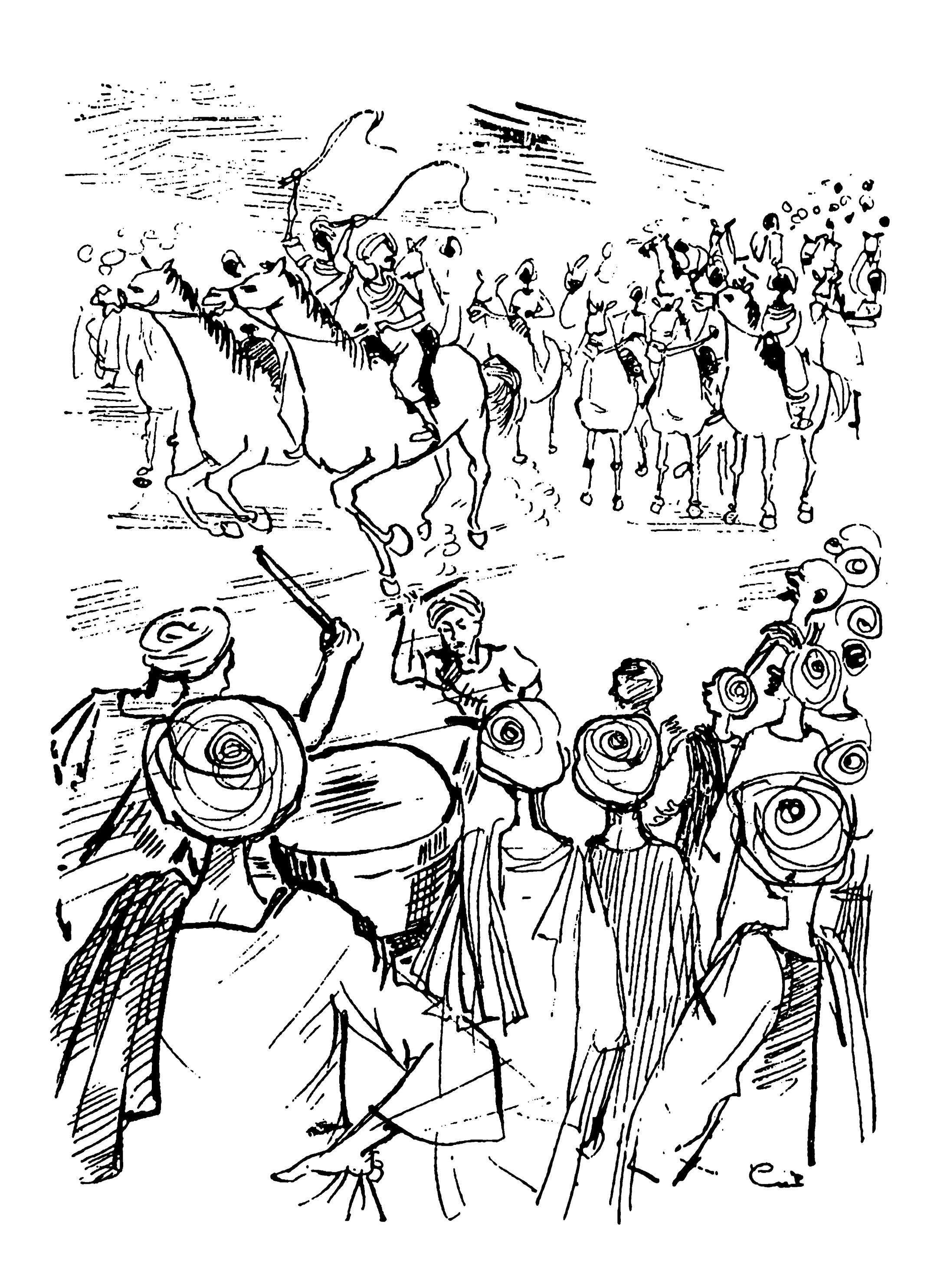
لست ادري وقد مضت السنون وانقضى اكثر من ربع قرن على ذلك العهد النضر ، اما تزال ظباء الحمراء تحتفل بالعيد بمثل ذلك الغناء والرقص والمرح الدافق ؟ والشبان والشيوخ على خيولهم وجمالهم يتحلقون من حولهن يرتوون من ذلك النبع الفياض بالسحر والفتون ؟ ونحاس الشيخ علي بدوي كالرعد يلهب المشاعر ويزيد من حيوية

تلك الحلقات المرحة ؟

لست ادري ... ومن لي بأن ادري ، وانا كما يقول شوقي :

وهب الزمان أعادها هل للشبيبة من يعيد ؟ ؟ !

***



العهد ، سباق وغناء ورقص

مع نيوبولد في البادية

ذات يوم ونحن ما زلنا في الحمراء او حمرة الشيخ ، كما يسمونها جاء الى الشيخ علي جندي من مركز سودري يحمل رسالة من المفتش تنبئه بأن المستر دوجلاس نيوبولد مدير كردفان آنذاك - في طريقه لزيارة الحمراء .

ونفح الشيخ - كعادته الجندي حامل البريد هبة مالية سخية وكتب للمفتش معرباً عن سروره بهذه الزيارة .

وفي الواقع كما ايقنت فيما بعد - ان بين نيوبولد والشيخ علي صداقة شخصية وثيقة العرى ، وان كلاً منهما كان يحمل للاخر تقديراً بالغاً . وما رأيت الشيخ علي يهش لزيارة اداري بريطاني كما كان يهش لزيارة نيوبولد ، وقد بدأت الصلة بينهما عندما عمل نيوبولد في أول عهده بالادارة مفتشاً لدار الكبابيش وتوثقت صلاته بالزعيم البدوي منذ ذلك العهد .

قلت ان الشيخ علي نفح الجندي الذي جاء بالبريد بهبة مالية سخية ، وهنا لابد لي من ان اقف قليلاً لاتحدث عن كرم هذا الزعيم البدوي الكبير . فقد اشتهر بسخاء اليد وكان يقصده أصحاب الحاجات - ليس من أهله وحدهم بل من مختلف انحاء البلاد وخاصة من كردفان ويندر ان تشرق شمس يوم جديد دون ان يكون في ضيافته عدد من طلاب الحاجات ما كان يرد واحداً منهم قط ولم يضق بهم ذرعاً او يبدي تبرماً من كثرة تهافتهم عليه طوال فترة الاربع سنوات التي عشتها معه . وأذكر بصفة خاصة « الشناقيط » الذين كانوا يعبرون السودان في طريقهم لاداء فريضة الحج اذ كانوا يتعمدون السير عن طريق دار الكبابيش التماساً لعون الشيخ علي ، فكان يعينهم ويجزل لهم العطاء وكانوا يدعون له في مناسك الحج ويكتب له ذلك من يستطيع الكتابة منهم ، ويؤكده من يعود بنفس الطريق .

وكان اذا ما قصد مركز سودري اوبارا في مهمة رسمية وهو قبل ان يتحرك من

باديته ما لم يكن هناك اجتماع رسمي يدعى اليه أغدق العطاء على جميع الموظفين والجنود والمراسلات وكل من يعمل في « المركز » لا يفرق بين كبير او صغير منهم ، كل حسب منزلته وكانوا يتقبلون ذلك منه كلما هل ركبه عليهم في تقدير كبير وولاء شخصي أكيد ولا يرى احد من الموظفين في هذا العطاء معنى من معاني « الرشوة » بل كانوا يرون فيه معنى من معاني الابوة النبيلة ، ولم يكن الموظفون والجنود والعمال وحدهم الذين يعينهم بعطائه بل كانت فترة بقائه زائراً في المدينة فرصة للمعوزين وذوي الحاجات يقصدونه زرافات ووحدانا .

ومن الطرائف التي لن انساها ما حييت ان صديقاً لنا كان يعمل (مساعد حكيم) في مركز سودري وكان عمله يقتضيه ان يطوف على كثير من احياء بادية الكبابيش وخاصة حي الشيخ علي ليعالج المرضي هناك مما جعله على صلة قوية بالشيخ ، وكان هذا المساعد رجلاً لطيف المعشر واضح الشخصية - وذات يوم كان هو ومأمور المركز والصراف والمترجم يتآنسون عقب وصول البريد اليهم من بارا بالجمال ... ووصول البريد في تلك المناطق النائية حدث اسبوعي يترقبه الموظفون والتجار في لهف وشوق لانقطاعهم عن انباء العالم اذ لم يكن في تلك الايام قد ظهر « الراديو » الذي ربط بين جميع أنحاء العالم .

وفي هذا البريد كانت تصلهم جريدة « حضارة السودان » التي كانت توزع مجاناً على المكاتب الحكومية بوصفها جريدة شبه رسمية - وقد بسطوا في جلستهم تلك جريدة الحضارة بينهم يقرأون اخبارها ويتناقشون في محتوياتها ، كان في ذلك العدد حديث عن التعويضات التي اتفقت عليها حكومة السودان مع الحكومة المصرية لتعطي للأهالي الذين ستغمر مياه خزان جبل اوليا اراضيهم الزراعية والسكنية وذلك عندما تقرر بناء هذا الخزان باتفاق بين الحكومتين ، واحتدم النقاش بينهم حول هذه التعويضات التي اتفق عليها اتعتبر مجزية وكافية ام لا ؟ ...

وبينما كان النقاش محتدماً حول تعويضات خزان جبل اوليا ، وقف بالباب بدوي كباشي يسأل عن « الحكيم » يحمل رسالة من الشيخ علي ، وأدخل البدوي على المجتمعين ، وناول الحكيم الرسالة ففضها وشرع في تلاوتها .

بينما استمر الآخرون في نقاشهم ... وعلم صاحبنا من الرسالة ان الشيخ قد بعث اليه مع الرسول سبعة جنيهات ونصف الجنيه هدية خالصة له ...ولا يغيب عنا ان هذا المبلغ في ذلك الوقت يعد مبلغاً محترماً جداً ، اذ كان الجنيه الواحد ثروة غير يسيرة ، وشغل صاحبنا فترة عن النقاش بهذه الهبة السخية التي يبدو انها جاءته في الوقت

المناسب . لم التفت الى اصحابه ليواصل النقاش معهم وكان من انصار كفاية اعتماد التعويضات المقدرة .

وارتفع صوته الجهوري ليقول ، ويده تحاول اخفاء الرسالة في جيب الرداء . . .(الحقيقة يا جماعة ان مبلغ سبع جنيهات ونصف كفاية جداً لاعتمادات جبل اولياء) . . . !

ودهش رفاقه ، لكنهم ادركوا بسرعة فائقة ان في الخطاب سراً فهجموا عليه وانتزعوه من جيب الرداء ، فعرفوا ان السبعة جنيهات ونصف الجنيه هي هبة الشيخ (للحكيم) وليست اعتمادات جبل اوليا فأغرقوا في الضحك وكان مساعد الحكيم أكثرهم اغراقاً في الضحك ! .

ومنذ ذلك الحين اطلقوا على هبات الشيخ علي (اعتمادات جبل اوليا) فكان اذا جمعت الظروف احدهم بالشيخ ، او جاءهم زائر للمركز ، سأل كل منهم الآخر . . . كم كان اعتماد جبل اوليا ء؟ . . . وتتعالى الضحكات المرحة .

رحم الله الشيخ علي فقد كان (شيخ عرب) بكل ما كانت تحمله هذه العبارة عند آبائنا وأجدادنا من فضائل .

أعود الي زيارة نيوبولد ، فقد استعد الشيخ لإستضافته بنصب عدد من بيوت الشعر أمام الحي بعدد الضيوف القادمين . . . وجاء الموعد المضروب لوصول نيوبولد ، وقرع النحاس وخرج الفرسان كعادتهم للقاء الضيوف وفي مقدمتهم الشيخ وإخوانه وأبناؤه وبنو عمومته ، كنت ايضاً قد تأقلمت معهم ، فأحسنت ركوب الجمال والخيل ولم يعد يستعصي عليَّ ان أعدو بالحصان او الجمل الى اقصي مدى ، بل صرت أحياناً أسابق شبان البادية وان كان يندر ان افوز بالسبق فقد كانوا أعتى واشد مراساً من ان يسبقهم دخيل علي حياتهم البدوية الخالصة .

وكنت ارتدي بادئ بدء عند وصولي البادية (الجلابية) فقط وكانت كل ملابسي ناصعة البياض ، فكنت كلما خرجت من خيمتي رمقتني الأعين من كل جانب وخاصة من اولئك الذين لم تتح لهم زيارة المدن ويرون مثل لبسي هذا ، فكانوا يعجبون لهذا الجلباب الطويل الناصع البياض ، وكان هذا مظهراً نابياً بينهم . وموضع التندر عند بعضهم ، والبدوي الذي يبدو لك في المدينة اقرب الى البلاهة وتبلد الاحساس ، ذو ذكاء فطري ، حاضر البديهة مرح يرسل التعليقات الساخرة اللاذعة في سهولة ويسر .

ولم أجد بداً من ان ارتدي مثلهم ، سروالاً طويلاً وقميصاً لايتجاوز الركبتين ، والتفح بالثوب احياناً .

خرجنا لاستقبال نيوبولد وانا معهم بهذا الزي البدوي على فرس بسرج عربي ،

حتى اذا ما ظهر موكب الزائر من بعيد ، انطلق الفرسان بخيولهم نحو الركب وصيحاتهم القوية تشق الفضاء ، فلما بلغوهم كبحوا جماح الخيل واحتاطوا بالضيوف من كل جانب .

واناخ نيوبولد الجمل الذي كان يركبه ، وفعل مثله الاداريون البريطانيون الثلاثة الذين كانوا يرفقوانه ، وترجل الشيخ عن فرسه وفعل ذلك كل المستقبلين وتقدم كل منهما نحو الآخر وتعانقا في لقاء حار ، ثم تقدم نيوبولد من المستقبلين واخذ يسلم عليهم فرداً فرداً ، وقد لاحظت انه يعرف اكثرهم وخاصة الشيوخ منهم اذ كان يسلم عليهم بحرارة ويسأل عن ابنائهم بالاسم ... وقدمت اليه في تلك اللحظات ، فبدت عليه الدهشة وهو يراني مندمجاً مع البدويين مرتدياً مثلهم ، وصافحني محيياً وهو ينظر اليَّ نظرة فاحصة وعلى وجهه شئ من الدهشة التي غلفها ببشاشة واضحة ... وكانت تلك أول مرة أرى فيها نيوبولد الذي لمع اسمه فيما بعد في دنيا السياسة ، ولم يدر بخلدي وانا أراه في البادية في مستهل عام ١٩٣٣ انه سيقوم بذلك الدور الخطير في تاريخ بلادي ،اذ لم يكن يعني في نظري آنذاك - وانا شاب متحمس في مستهل العمر غير مدير انجليزي يرهب الناس ويخيفهم ويحكمهم بالقوة ، وانتظمنا ركباً واحداً متجهاً نحو الحي ، وتقدم ركب المدير الجنديان حاملا العلمين المرفوعين وخلفهما نيوبولد والاداريون الثلاثة والشيخ علي وخلفهم ثلة من جنود البوليس (الهجانة) والمستقبلون من حي الحمراء ، كان موكباً كبيراً .

وبلغنا الحي ودوي النحاس يزداد ارتفاعاً كلما اقتربنا منه وحول النحاس عدد من البدويين الراجلين يعرضون علي ضربات النحاس وعدد من الفتيات يغنين ويرقصن كما جري التقليد في مثل هذه الاستقبالات .

ونحر الشيخ عدداً من النوق والخرفان تكريماً للضيوف ، وأطعم الحي كله من لحم الابل ، وظل يذبح يومياً عدداً من الخراف اكراماً لضيوفه طوال الفترة التي قضوها معه .

ودعا الشيخ المستر نيوبولد ورفاقه الثلاثة الى الغداء التقليدي الذي اعتاد ان يعده لزواره ، ودعاني معهم ، وأقبلنا على منزل الشيخ في موعد الغداء ... الارض كالعادة مفروشة بالسجاد ، ولا شئ سوى هذا ، وتربع نيوبولد عليها وفعل مثله الاداريون الآخرون ، وجلست والشيخ في مواجهتهم وفي مثل جلستهم ، واقبل الخدم يحملون جفان الثريد والشواء الذي تم انضاجه على الجمر مباشرة على طريقة البدويين المعروفة ، واقبل نيوبولد على الطعام بيديه ، تارة يأخذ حظه من الشواء وتارة يدفن يده في جفنة الثريد يلتهم منها ، وكنت انظر اليه متأملاً ، فما رأيت عليه تكلفاً فيما كان يصيب من الطعام ، ولم اره يتأفف من هذا الطعام البدوي الذي يتناوله بيده على غير مألوف عادته

، ومرة اخري ازددت ادراكاً وفهماً لتفاني هؤلاء البريطانيين في اداء رسالتهم نحو امبراطوريتهم وتثبيت اقدامها .

علي أني لحظت ان احد المفتشين الثلاثة ، ولعله لأول مرة يخوض هذه التجربة القاسية ، قد آذاه ما في الثريد من (شطة وملح) فما كاد يبتلع اللقمة الاولي حتى احمر وجهه وتوقف عن الطعام !... ثم لحظت ان جاره يتحدث اليه همساً باللغة الانجليزية لكي يعاود التجربة حتي لا يسئ الى ضيفهم الكبير بالامتناع عن تناول طعامه ، فمد يده الي قطعة من الشواء وكنت اتابعه بدقة دون ان يفطن اليَّ ، فما كاد يديرها في فمه حتى ازداد احمرار وجهه ثم ازدردها بسرعة ، واخذ يتحدث مرة أخرى الي جاره ، وابتسم زميله ، وما شككت في انه كان يقول له إنه لا يستطيع ان يمد يده مرة اخرى لهذا الطعام لأنه توقف بعدها عن مشاركتنا في الاكل ، وقال جاره معتذراً عنه ، بانه أحس بمغص مفاجئ !...

وفرغنا من تناول الثريد والشواء ، وجاء الخدم بالشاي الاسود في اكواب الزجاج الصغيرة ، فتناولوه وقد اوقد كل منهم غليونه وظلوا في انس لطيف دار اكثره بين نيوبولد والشيخ عن مواضيع عامة ، بعضها عن بعض عادات الكبابيش ، وموقف المرأة الكباشية من الرجل .

ونيوبولد ربع القامة ، اقرب الى البدانة ، حاد الذكاء ، يفهم ما تعني قبل ان تكمل حديثك ... دعاني في زيارته تلك اكثر من مرة الى خيمته لأشرب معه الشاي ، وقد سألني اولاً عن عملي ومبلغ رضائي عن حياتي في البادية ولم اخف عنه مدى ما اعاني من صعاب في حياة البادية ، وقد كتب في رسائله التي صدرت في كتاب بعد موته عن هذا اللقاء معي ، وقد فهم من حديثي عن صعاب حياة البادية لشاب مثلي اني اريد تحسيناً في وضعي المادي ...

وقد تحدث معي ايضاً عن تاريخ العرب وتاريخ هذه المنطقة خاصة ، مستعيناً بدراسته في الآثار التي تحفل بها منطقة غرب كردفان ، وقد عرفت انه مولع بهذه الدراسات وان له بحوثاً تاريخية قيمة اثبتت في (السودان في رسائل ومدونات) وانه قام برحلات طويلة الي المناطق الاثرية في غرب كردفان ودارفور ينقب ويبحث ويسجل ، وكنت عند مجيئى لدار الكبابيش قد علمت أنه كان قبل فترة في زيارة (لوادي هور) وهو واد يفيض بالماء في الخريف . يبدأ من جبل مرة ويشق الصحراء حتى دنقلا ، حيث يلتقي بالنيل هناك ويصب فيه وقد قامت حول هذا الوادي في الزمن الغابر حضارة تتحدث عنها آثارها التي لم تزل باقيه من رسوم وصور ونقوش وآثار من الفخار وغير الفخار بقي منها

ما يتحدث عن الحضارة التي كانت حول وادي هور رغم الآماد الطويلة التي مرت عليه منذ ان انتهت تلك الحضارة... ويبدو ان هذا الوادي ، الذي لا يفيض الآن بالماء الا في فصل الخريف ، كان نهراً دائم الجريان بدليل الحضارة التي كانت قائمة حوله عبر الصحراء .

ووادي هور ، هو الوادي الذي ألهم استاذنا الشاعر الكبير محمد سعيد العباسي -- رحمه الله - قصيدته المشهورة - التي حملت اسم هذا الوادي --وكان العباسي ، وهو رجل مولع بالترحال ، قد سافر اليه بالجمال وقضي علي ضفافه اياماً عديدة يستوحي مآثره وتاريخه يتأمل حاضر البلاد وكانت آنذاك ترزخ تحت نير الاستعمار ، فأنشأ قصيدته

بكرت تعاتب من بكر   أسوان نضو هوى أسر
يا قوم ما بي ما يسوء   فما لهند لاتسر

وفيها يقول :

سبحان ر بي أين وادي   النيل من وادي هَوَر
وادي الجحاجحة الألي   عمروه في خالي العُصُر

وسأتعرض لها في شئ من التفصيل عندما أتحدث عن العباسي في البادية .

لم ألتق نيوبولد شخصياً بعد زيارته هذه للحمراء ، الا مرة واحدة انقذتني دون ان يدري هو من (ورطة) كنت اعاني منها كثيراً ، الا اننا التقينا عن طريق ذلك الصراع المرير الذي خاضه الشعب السوداني ضد السياسة الاستعمارية التي قادها نيوبولد عندما صارسكرتيراً ادارياً للحكومة وتجمعت في يديه جميع خيوط السياسة... ولكن الله الذي تعالت قدرته ودامت حكمته وهب القوة والاستطاعة لهذا الشعب لينتصر في معركة غير متكافئةالقوى فتتحقق حريته ويتم استقلاله .

شندي ونيوبولد والعقاد

قلت في حديثي السابق ان نيوبلود قد انقذني من ورطة كنت أعانيها دون ان يدري بما أسدى اليَّ من يد .

نقلت الي شندي في أواخر الثلاثينيات بعد فترة خصبة عشتها في مدني ساهمت فيها مع رفاق أعزاء في تكوين الجمعية الادبية ذات الأثر المعروف في تاريخ تلك الحقبة - وشندي مدينة لطيفة لها في نفسي أطيب الذكريات وأبقاها ، التقيت فيها بمجموعة فريدة من الاصدقاء الأوفياءجمع بيننا حب المعرفة والالتقاء في كثير من الافكار ، وعندما برز مؤتمر الخريجين الى حيز الوجود كان لابد من ان نتجاوب مع العاملين به فكونا لجنة فرعية باسم المؤتمر وشرفني اولئك الرفاق باختياري سكرتيراً لهذه اللجنة وسكرتيراً للنادي ، وكانت لجان الأندية والمؤتمر المظهر الاجتماعي والوطني الذي يضم العاملين لخدمة البلاد ... وكان مفتشو المراكز ... وكلهم كانوا من الانجليز آنذاك ... يرقبون هذا النشاط الجديد لمؤتمر الخرجين يعملون له ألف حساب ويهتمون بأمر القائمين به او يتتبعونهم في دقة وحرص .

وكان مفتش شندي في ذلك الوقت المستر ريتشارد ، وهو انجليزي خبيث الطوية شديد الكراهية والمقت لأي نشاط بشتم فيه رائحة الوطنية ولهذا كان ينظر اليَّ نظرة سيئة وكنت أتوجس منه شراً . وكان ينظر الي جميع افراد مجموعتنا نظرة توجس وتربص ولكن شاء حسن حظنا ان يكون بجانبه بعض الاداريين السودانيين دوو الخلق والوطنية . ، كان مأمور المركزالمغفور له السيد عبد الرحمن رمضان ونائبه السيد مصطفي يوسف تكونه ، ثم حل الأخير محل الأول بعد نقله وكانا علي صلة وثيقة بمجموعتنا ويناصران جميع ألوان النشاط التي كنا نقوم بها وخاصة في محيط المؤتمر ، وقد استطاعا بمجهوداتهما الخاصة ان يصرفا عنا شر المستر ريتشارد ويقلما أظافر غضبه علينا كلما نقل اليه شئ عن نشاطنا في الدعاية للمؤتمر .

وكان يزور مجموعتنا الحين بعد الحين بعض أصدقائنا العاصميين ذوي النشاط الواسع

فيزيده ذلك حنقاً وسخطاً... اذكر ان زارنا السيد احمد خير وكان آنذاك موظفاً بمدني ومحور نشاط الجمعية الادبية وهو صاحب فكرة المؤتمر ، فاحتفينا به وقدمناه ليلقي محاضرة في النادي ، ومن شندي ذهب أحمد خير الي عطبرة فبورتسودان حيث حاضر في كل منهما... وقد خلف في شندي أثراً حميداً عند جمهور المدينة ولكنه ضاعف من مشاكلنا مع المستر ريتشارد الا ان الأخ مصطفي تكونه كان يكبح من جماح شره... ومع هذا فقد كان ريتشارد كلما التقى بواحد منا يشعره بما يعتمل في نفسه من شعور سئ نحوه .

وكنت أسكن بالقرب من محطة السكة حديد - مما جعلني في أكثر الاحايين أستقبل القطارات الرائحة والغادية ، وخاصة القادمة من الخرطوم حيث ألقى صديقاً أعرف منه شيئاً عن اخبار العاصمة او اعثر على شئ من الصحف المحلية ، وأحمل ذلك للرفاق اذ كنا نجتمع كلنا للغداء معاً... وذات يوم وأنا أسعى نحو القطار بالمحطة ، شهدت في مقدمته مجموعة من الاداريين والضباط البريطانيين كان من بينهم المستر ريتشارد يلتفون حول احدهم ، ولم اعرهم اهتماماً كبيراً وتخطيتهم مسرعاً نحو مؤخرة القطار حيث اعتدت ان ألقي المسافرين العاديين... ولكن سمعت صوتاً يناديني باسمي في لكنة انجليزية من بين مجموعة البريطانيين في تلك الحلقة ، والتفت نحو الصوت ولا اكاد أصدق سمعي ، ووقع نظري على المستر نيوبولد وهو يشيرالىَّ بيده أن أدنو منه ..وكان آنذاك قد رقي الي منصب السكرتير الاداري لحكومة السودان وهو منصب يضع بين يديه القيادة السياسية والادارية في السودان ، فهو المحور الذي تدور عليه كل سياسة الحكومة ، واقبل الرجل يسلم علي في حرارة ، وأخذ يتحدث الي عن اخبار الكبابيش في شغف ، ولم ينس شيوخهم فراداً فرداً ، وترك من حوله من الانجليز ليتحدث الي ملياً عن تلامذتي في البادية . ولم يفته ان يحدثني عن الوفيات التي حدثت اخيراً... وافاض في الحديث ، وما من شك انه عندما رآني جاشت في نفسه كل الذكريات العذبة عن دار الكبابيش التي كان يحبها ويؤثرها لفرط ما بينه وعلي التوم من مودة ... ولأنها كانت موطن ذكريات مستهل حياته العملية . ثم ودعني في حرارة ملحاً عليَّ ان ازوره عندما احضر للخرطوم... كل هذا والمستر ريتشارد ينظر الي ساهماً واجماً... قد ادركت مدى الحيرة البالغة التي انتابته في تلك اللحظات ، وضحكت عليه في سري . ! وقلت في نفسي الآن جاء دوري في الانتقام منه !.

وغادر القطار المحطة وعدت الى المنزل حيث تجمع الرفاق كعادتنا لتناول الغداء وسردت عليهم القصة وانا اغرق في الضحك ، وقلت لهم اراهنكم ان المستر ريتشارد لن يهدأ باله اليوم ، وسيكون أول ما يفعله في الغد أن يحضر اليَّ في المدرسة ليستوثق من امر

هذه الصلة ،وانه منذ اليوم سيبعد عن طريقه ، ورصح ما توقعه . فقد جاءني في الغد وعلى وجهه ابتسامه عريضة - وكان لا يلقاني الا متجهماً واضح الكبرياء - وتحدث إلي متلطفاً عن بعض اعمال المدرسة ثم سألني عن معرفتي بنيوبولد واين لقيته !. وكان المفتشون يعرفون عن نيوبولد صلاته العديدة بأناس عاديين ، قد يكون احدهم موظفاً صغيراً او « شيخ حله » او « فكي » يعتقد فيه بعض الناس ، وكان حريصاً على صلاته بهم ، يتبادل معهم الرسائل في الشؤون المختلفة ويشجعهم على الاتصال به في أي حين ... وكان المفتشون يخشون أمثال هؤلاء المتصلين بنيوبولد ويعملون لهم الف حساب خشية ان يتحدثوا عنهم بما يكره عنده ... ولم يكن ريتشارد يدري انني لم الق نيوبولد الا في فترة قصيرة في دار الكبابيش ، ولكن حب الرجل للكبابيش وقوة ذاكرته وحدة ذكائه وحرصه على صلاته بمن يعرف جعلته يحرص على تحيتي عندما رآني في محطة شندي وأن يتحدث اليَّ قليلاً عن تلك الفترة العذبة لكلينا في بادية الكبابيش .

وكان المستر يتشارد قبل ان يعين مفتشاً بالادارة مدرساً بكلية غردون القديمة ، وأذكر انه عندما نقل من التدريس للادارة - وكان ذلك امراً طبيعياً في عهد الانجليز أن يعمل أي منهم مدرساً او مفتشاً او مديراً لمصلحة من المصالح - فهو يصلح لكل شئ ! - اقام له طلبة الكلية حفل وداع القى فيه الطالب الشاعر - الدكتور علي ارباب - قصيدة طويلة جاء في مطلعها :

رأتني فتاة الخدر عيني تقطر	ودمعي علي جفني يسيل ويحدر
فقالت وقد ازري بها الشوق والهوى	فديتك هل لي من همومك مخبر
رويدك اني لست بالغيد مولعاً	ولا انا من يصبيه دن ومزهر
ولكنني في أثر من هو راحل	أودع ذكر المكرمات وأخبر

ومعذرة للصديق العزيز الدكتور علي ارباب فكم سخطت عليه سخطاً لا مزيد عليه وانا اتلو هذا الجانب من قصيدته :

أكلية الخرطوم نوحي عليه ما	ترنمت الاطيار وانبثق الفجر
وكنت لنا براً رؤوفاً وملجأ	حفياً ومعواناً اذا نابنا الضر
فسر يا كريم النفس غير مذمم	الى مركز أسمى ومجد يعمر

ولم يكن ريتشارد مفتش المركز بالرجل الكريم النفس مطلقاً ، وقد عانينا منه الأمرين وعجبت للدكتور علي ارباب كيف يثني على مثله ويأسى لفراقه ، (وقد لقيني بعد ان نشر هذا في جريدة الثورة) عدد من زملاء الدكتور علي في عهد التلمذة ومنهم السيد امين زيدان بوزارة التربية والتعليم فحدثوني عن ريتشارد المدرس حديثاً جميلاً وقالوا انه

كان مدرساً حقا يحنو على طلبته ويعنى بأمورهم وانه كان موضع ثقتهم وتقديرهم ، وان الطالب علي ارباب قد عبر عن شعورهم حقا وهو يودع ريتشارد المدرس بقصيدته تلك ، ولكن ريتشارد المدرس ما كاد ينقل الى سلك الادارة ويعمل مفتشا حتى لبس مسوح الحاكم المستبد وزاد من سوئه بطء فهمه اذ لم يكن من بين ذوي الذكاء الواضح .

وقد لقي مصرعه في ليلة هوجاء العواصف في حادث سئ . فقد كان هو ومدير المديرية الشمالية (المستر لاش) ، ونائبه المستر كروفورد والمستر هرسون قاضي المديرية كان أربعتهم يسمرون في سينما عطبرة ، وبعد انتهاء سهرتهم قرروا العودة للدامر مقرهم الدائم ، ولما كان كوبري عطبرة لا تسير عليه العربات فقد تركوا عرباتهم بالجانب الآخر - وعندما بلغوا الكبري عند عودتهم من السهرة بدأوا يعبرونه بأرجلهم حتي بلغوا موضع عرباتهم ، وكانت الليلة حالكة الظلام هوجاء العواصف ، وبينما هم في منتصف الكبري دهمتهم قاطرة جاءت من عطبرة متجهة نحو الدامر ، ولما كانت الليلة مظلمة عاصفة، فان السائق لم يرهم ومنعتهم شدة العاصفة وحلوكة الظلام من سماع صوت القاطرة تدنو منهم - وسقطت جثتا ريتشارد والقاضي هرسون في النهر وانتشلتا في اليوم الثاني ، ودفنا في عطبرة في احتفال رسمي .

وأصيب المستر لاش مدير المديرية باصابات خطيرة ظل بسببها رهين المستشفى بالخرطوم امداً طويلاً - ونجا نائب المدير المستر كروفورد باعجوبة اذ احتمي باحدى الفجوات في الكوبري ولم يصب بأذى . كان ذلك عام ١٩٤١ .

لم ألق نيوبولد بعد وقفتنا تلك في محطة شندي ، تلك الوقفة التي كفتني شر ريتشارد حيناً ، ولكن عندما زار الخرطوم الاستاذ عباس محمود العقاد وأخذنا نتردد عليه ، وشعرنا بمدي صلته الوثيقة بنيوبولد - وقد أشرت الي هذا في كتابي - ملامح المجتمع السوداني - وكنا نبدي السخط كلما سعينا نحو العقاد في منزله وسمعنا انه في دار نيوبولد ... وكانت رحى الحرب الاخيرة دائرة وروميل - القائد الالماني المشهور - في العلمين وجيوش ايطاليا في كسلا والكرمك.. وكانت النظرة السياسية تغلب على تفكيرنا وتلونه ... وقد أهديت العقاد نسخه من كتابي - الملامح - ويبدو انه لم تعجبه اشارتي لزيارته لنيوبولد وابداء السخط عليها ، ذلك السخط الذي استوحيناه من طبيعة الفترة التي كنا نعيشها اذ كان نيوبولد يمثل في نظرنا الاستعمار البريطاني بكل عتوه وسيطرته ، وقد اسقطنا الجوانب الأخرى من حياة نيوبولد تلك الجوانب التي استهوت العقاد وجعلته يعجب به كل الاعجاب .

وأذكر أنني عندما زرت القاهرة اخيراً ذهبت الى دار العقاد في ندوته وعرفته بنفسي

... فشاء ان يصحح ما ذكرته عن صلته بنيوبولد في كتابي فافاض بالحديث عن شخصية نيوبولد وعمق ثقافته وسعة أفقه وقال عنه إنه من طراز فريد من بين الرجال الذين عرفهم ... ويذكر القراء ان العقاد كتب رائياً نيوبولد بعد وفاته في الصحافة المصرية وأثني عليه ثناءً حاراً مشيداً بشخصيته وثقافته ... ومن أبرز صفات العقاد شجاعته في اعلان رأيه ، وان لم تخني الذاكرة فان العقاد في حديثه العابر عن نيوبولد في ندوته تلك اشار الي ان نيوبولد أهدى اليه جانباً من كتبه .

اعود قبل ان اضع القلم الي شندي وأذكر كيف كانت قبضة المفتشين الانجليز تشتد والحفنة المباركة من دعاة الوطنية تعمل ودائرة عملهاتتسع وخطط المستعمرين تتهاوى تحت ضربات المخلصين البررة ، ولم بستطع ريتشارد ومن خلفوه من أهله ان يمنع او يصد التيار الوطني الذي كان يزدادكل يوم قوة وعنفاً ولن أنسي ما حييت يوم أعلن زعيم الجعليين المغفور له الحاج محمد ابراهيم فرح في شندي تبرعه لمؤتمر الخرجين بمائة جنيه مساندة لدعوته لانشاء مال للتعليم لفتح مدارس اهليه ، في الوقت الذي اعلنت فيه الحكومة وحددت سياستها التي تأمر بوجوب ابتعاد زعماء العشائر والنظار والعمد من المساهمة اوالمشاركة في اي نشاط لمؤتمر الخريجين العام ، وتلقت لجنة المؤتمر الفرعية بشندي هذا التبرع في فرحة طاغية وحملته الى المركز العام للمؤتمر بام درمان فاحدث هزة وطنية في قلوب المؤتمرين وموجات من السخط والاستنكار عند الحاكمين ، وقد أشاد بهذا الموقف الوطني الرائع شاعر المؤتمر صديقنا الكبير علي نور بقصيدة مشهورة جاء فيها :

يا زعيم الجعليين ويا رأس القبيله
يافتي العباس قد أرضيت عمًا وخؤوله
جدت للمؤتمر السمح فشجعت ميوله
فارجع الناس الى الحق ففي الحق فضليه
واغنم الحمد فان الحمد من شأن « الجعوله »
شعبة للعرب تنمى وهي في الأصل أصيله
كلما يممها ذو حاجة أدرك سؤله
فهي أندى الناس كفا وهي بالعرض بخيله
انما مؤتمر الأمة للخير وسيله

لقد ذهب ريتشارد وذهب نيوبولد وانطوى عهدهما الى غير رجعة ، وبقيت الأرض لأهلها ...

الشيخ يثور لكرامته

لئن فتن شاعرنا الفذ استاذنا محمد سعيد العباسي بداره الحمراء بجبالها ووهادها ووديانها وهي مقر زعيم البادية في الصيف حيث تتجمع احياء بدوية عديدة حول الآبار ، فقد فتنتى كما فتنت البدويين كلهم « ام قوزين » تلك البقعة الخضرة حيث يتجمع البدويون حولها في اعقاب الخريف لينهلوا من ماء عذب فاضت به الامطار وامتلأت به هذه « الأضاة » التي يسمونها (ام قوزين) ولك ان تسأل ما هي الأضاةانها(الفولة) كما تسمى في أكثر مناطق كردفان إلا عند الكبابيش فهي الأضاة وهي كلمة عربية فصيحة استعملها العرب الاقدميون لهذا المعنى كما يؤكد ذلك القاموس . . .

لقد فتن استاذنا العباسي بدارة الحمراء وانشد فيها روائع شعره كقوله :

قل للغمام الأربد	لاتعد غور السند
وحي عني داره الحمرا	وقل لا تبعدي
منازل يا برق أروت	أمس قلة الصدي
يا ويحها كم نظمت	شمل هدي مبدد

ولكن ام قوزين اذا ما قيست بالحمراء فهي جنة فيحاء وارفة الظلال سهلة المورد لا يجد فيها البدويون ذلك العناء الذي يقاسونه كلما هبطوا الحمراء في الصيف ، فالماء هنا تفيض به الأضاة سهلاً ميسوراً ولماشيتهم دون عناء .

اما في الحمراء فهم يمتحون من آبار بعيدة الغور . . . آبار تتصل بأعمق تاريخ هذه البلاد ويسمونها (السواني) وهى آبار ليس للبدويين الافضل اكتشافها بعد ان دفنتها السوافي فهي تُمتُ الى عهد ما قبل المسيحية حيث الحضارة الزاهرة والتي نرى آثارها اليوم منبثة في تلك الصحارى تشهد بمدى ما كان يمور فيها من حياة خصبة ينطق بعظمتها هذا القليل الذي بقي منهم .

فالسواني هذه قد حفرت الى عمق بعيد في ارض رملية تنهار لأقل دفعة وإنك لتعجب كيف استطاع الاقدمون الوصول الى هذا الغور البعيد وكيف استطاعوا ان يحمطوا جوانب

البئر من الداخل بهذا البناء القوي المتماسك في الحجارة الصلبة المنحوتة والتي ظلت قوية متماسكة آلاف السنين حتى عثر عليها البدويون فنزحوا عنها الرمال وبلغوا الماء ولم يجدوا أنفسهم في حاجة الى إضافة حجر واحد الى جوانب البئر ، وما زالت السواني حتى اليوم مصدراً للماء للبدويين طوال اشهر الصيف وهي باقية كما انشأها اولئك العمالقة قبل عهد المسيحية في السودان .

ولما كانت هذه السواني بعيدة الغور جداً فقد صار من المستحيل ان يخرج الرجال الدلاء من اعماقها بطريقة اليد المعروفة فلجأوا الى طريقة اخرى رائعة المظهر ذلك ن يربط رشاء الدلو على سرج جميل يركبه فتى او فتاة (وانا استعمل هنا كلة (رشاء) الحبل الدلو - كما يستعملها البدويون هناك وهي كلمة عربية فصيحة وفي الواقع فان الكبابيش يحتفظون بذخيرة وفيرة من اللفاظ العربية الفصحى المهجورة الآن الا في المعاجم ويستعملونها في سهولة ويسر في احاديثهم اليومية) . ويهطع راكب الجمل بعد ان تمتلئ الدلو ، شاداً رشاءً خلفه ويخرج الدلو بهذه الطريقة حتى اذا مابلغ حافة البئر تناوله الرجال بايديهم وأفرغوه وعاد راكب الجمل مهطعاً ايضاً ليمكن الدلو من الهبوط مرة اخرى في قاع البئر وإنك لتري منظراً فريداً من الفتية والفتيات على ظهور الجمال تغدو بهم وتروح حول البئر لتخرج الدلاء او تعيدها فارغة لتمتلى مرة اخرى .

وللبئر عندهم أغان خاصة وبنغمة خاصة وتصاغ كلماتها عادة من وحي الحب الذي نشأ من اجتماع شباب الجنسين حول البئر ، منشدين مثلاً عن الحسناء الفارعة التي وردت البئر وصدرت بعد ان احرقت قلوب الشباب بحبها ... ولتلك الاغنيات نغم حنين آسر يتمثل في ذلك المد الطويل في آخر كل مقطع فتحس بانه يخرج من الأعماق اشبه بالآهة الطويله لمكلوم يريد ان يتنفس .

ولا تخلو البئر من الوراد ليلاً ونهاراً اطلاقاً كل اشهر الصيف ، ولهذا أحب البدويون « أضاة » ام قوزين لأنها لا تعرضهم لهذا الرهق ، فتنطلق حولها اصوات الشباب مغردة من بين تلك الاشجار الملتفة حول الاضاة على طول امتداها تعلن عن غبطتهم وتعلقهم بالحياة ،

وفي ام قوزين هذه تعقد عادة المؤتمرت القبلية التي يراد منها حل المشاكل التي تنشأ عادة بسبب الخلاف حول مناطق المرعى ، وقد تنظر فيها قضايا القتل التي تحدث لهذا السبب - التزاحم حول المرعى او المناهل - ويحضر هذه المؤتمرات النظار والشراتي والمشايخ والعمد الذين لهم صلة بالمشاكل المعدة للمناقشة كما يحضرها كبار الاداريين الانجليز ممن يعملون في هذه المناطق ... ويستضيفهم جميعاً الناظر الذي يعقد المؤتمر في

داره ويبالغ في اكرامهم والاحتفاء بهم ، وقد يقيم معرضاً قبلياً او سوقاً للسباق ليكون المؤتمر حياً وممتعاً . . . وكان الشيخ علي التوم يختار ام قوزين هذه لمثل هذه المؤتمرات عندما يكون هو المضيف .

وقد تعارف رجال هذه القبائل فيما بينهم على دفع (دية) لأهل القتيل قد تبلغ نحو الثلثمائة جنيه ويطلق سراح القاتل وعادة تدفع الدية القبيلة كلها فداء لابنها السجين وقد تصر الحكومة احياناً على تنفيذ الحكم علي القاتل عندما تكون جريمته مما يستوجب الردع كالقتل في حوادث النهب والسلب مثلاً .

ولما كان الكبابيش من أثرى قبائل تلك المنطقة ولما يتمتع به زعيمهم من مكانة عظيمة ، فقد كانوا اكثر جرأة علي جيرانهم كلما احتربوا حول منهل او مرعي .

ولقد احسست بهذا الاعتداد الواضح من اغانيهم التي تصور حياتهم ومشاعرهم أدق تصوير . . . ففي اغاني (الدابة) ،هي اغان لا ينشدها الا الرجال اذ يقفون جماعة في صف واحد يمسك كل منهم بخصر الآخر يحوطه بيديه ثم ينحنون قليلاً (ويدبون) على الارض في خطوات موقعة فيها قوة وعنف ثم ينشدون مثل هذين البيتين مفتخرين معتزين بقولهم :

نحن نقد يا الممنوعة
وأبونا يسد يالممنوعة

اى نحن نفعل ما نشاء ونخرق كل وضع لا يعجبنا ، ولا خوف علينا فأبونا – ويعنون به الشيخ علي – سوف يسد ما خرقنا – اي ان له من القدرة ما يصلح به ما نفسد . . . والممنوعة التي تتكرر في كل مقطع يعنون بها الفتاة الجميلة المتمنعة ، او التي حولها حراس اشداء من أهلها يجعلون الوصول اليها مستحيلاً .

وقبل وصولي للكبابيش بعهد قصير حدثت هذه القصة التي سأرويها وقد سمعتها من مصادر شتى ، سمعتها من موظفين عاصروها ، ومن بعض شيوخ الكبابيش ، وحاولت استقصاءها من الشيخ علي التوم شخصياً – رحمه الله – فروى لي الجانب الذي صدر من المفتش البريطاني بطل الحادث وضن علي كعادته بالجانب الذي يخصه وان كان لم ينف ما تحدثت اليه فيه ، والشيخ علي قل أن يتحدث عن نفسه وعما فعل او يفعل ، فكثيراً ما كان يدير الحديث الى ناحية اخرى اذا ما أحس من المتحدث انه يريد ان يجره الي الحديث عن نفسه فيه ما يستدعي الثناء أو الاعجاب او المباهاة .

والقصة كما تجمعت لدي بكل اطرافها حدثت بين المستر جرداين الذي نقل مفتشاً لدار الكبابيش والشيخ علي التوم . . . ولنرجع الى الوراء قليلاً – ان الذين عاشوا في تلك

المنطقة يعرفون جيداً ذلك التنافس الذي أدى الى نزاع طال امده بين قبيلتي الكبابيش والكواهلة المتجاورتين وهو نزاع طبيعي بين قبيلتين رعويتين في صحراء تقل مناهلها ومراعيها حيث تحاول كل منهما الاستئثار بالمنهل والمرعى .

ويمتاز الكواهلة بأن منهل (ام بادر) المعروف والذي تتجمع فيه مقادير ضخمة من الامطار تكفي للابل والبهائم والناس كل اشهر الصيف يقع في ارضهم - ولما كان الكبابيش يمتلكون عدداً كبيراً من الابل يتعذر بل يستحيل سقيها من آبارهم في الصيف فقد خصص لهم من قبل السلطات باتفاق مع الكواهلة جانب من ام بادر يستقون منه ولا يتجاوزونه ... ولكن بعض الكبابيش كان لا يخضع لهذا التحديد فيتجاوزه .

وكان هذا التحديد سبباً لنزاع لم تخف وطأته أمداً طويلاً .

وقبيل وصولي للكبابيش - ولعل ذلك في اواخر العشرينيات نقل المستر جرداين مفتشاً لسودري وكان النزاع بين القبيلتين محتدماً ، وجرداين كما يقول عنه كل معاصريه شاب معتد بنفسه الى حد الغرور بذئ اللسان كثير السخط على من حوله في تعال وكبرياء .

وعقب وصوله حدث شجار - كما كان يحدث دائماً - بين بعض الكبابيش والكواهلة حول منهل ام بادر أدى الى إصابات عديدة خطيرة ... وجاء المستر جرداين الي ام بادر ليباشر التحقيق ويبدو انه قد كون فكرة سيئة عن الكبابيش واعتدادهم ، وانهم يتعمدون هذه الاعتداءات استناداً الى مكانة الشيخ علي عند الحكومة ، ولهذا لم يعودوا يحترمون القانون ...وربما امتد به سوء الظن الى الشيخ علي نفسه وأنه يشجع أهله على هذه الاعتداءات ولا يثنيهم عنها ، فانتوى أمراً ، أن يخضد شوكة الكبابيش وان يخيف الشيخ علي التوم ويهدده ،فكان ان أرسل اليه من ام بادر حيث كان يستقر بجنوده ، رسالة ثائرة ساخطة مع احد الجنود وأمره ان يحضر لمقابلته في الحال بأم بادر ... وكان المفتشون يحضرون عادة لمقابلة زعيم الكبابيش في داره بالحمراء ولا يقسرونه على لقائهم في دار الكواهلة ما لم يكن هنالك اجتماع قبلي عام .

لست مستيقناً الآن عما اذا كان الشيخ قد استجاب للأمر فذهب للقاء جرداين في أم بادر ام لم يذهب وجاءه جرداين في الحمراء حيث جرت بينهما مشادة كلامية ، وسواء تم اللقاء هنا ام هناك فقد اتفق الرواة على ان جرداين بدأ الحديث في عنجهية وغلظة والشيخ ساكن ينظر اليه في هدوء ، وقيل ان جرداين رمى الشيخ علي بانه قد اغتر للقب الذي منح له (سير) فظن انه فوق القانون ...

وترك الشيخ علي جرداين حيث كان هو في البادية وأعد ركبه متجهاً صوب الأبيض

ليلتقي مدير المديرية هناك ، ولعله كان في ذلك الوقت المستر جيلان الذي جاء بعدها سكرتيرا اداريا للحكومة ، وفي عهده تم التصديق بقيام مؤتمر الخريجين .

وصل الشيخ علي الأبيض وكان يحمل معه نيشان القديسين ميخائيل وجورج الذي خول له حمل لقب (سير) اللقب الذي سخر منه بسببه جرداين وقابل المدير ووضع بين يديه النيشان معلناً رده اليهم وهو يقول : لقد منحتموني اياه تكريماً وتقديراً وثقة منكم بشخصي وقلتم ان هذا النيشان العظيم لا يعطى إلا لأفذاذ الرجال وان حامليه سيكونون دائماً موضع احترامكم وتقديركم وثقتكم ولكني عرفت الآن من المفتش جرداين غير هذه الحقائق . . . وسرد للمدير كل كلمات المستر جرداين وأطلعه على خطابه الشديد اللهجة الذي بعث به اليه من ام بادر يطلب فيه المثول امامه للتحقيق معه . . . وبعد ان انتهى من سرد موقف جرداين انهي حديثه قائلاً : انني استطيع ان اتخلى عن جميع ما منحتموني وأعود شيخاً عادياً بين اهلي وقبيلتي ، ولن يستطيع جرداين قط ان ينتزعني منهم او ينتزعهم مني ، فتلك ارضي واولئك اهلي وعشيرتي وكفاني بهم .

وغضب المدير غضباً شديداً ، وأخذ يعتذر اعتذاراً حاراً جاهداً ان يسترضيه ويمسح الغضب من قلبه . . . وارسل في الحال يستدعي جرداين من سودرى على وجه السرعة واستبقي الشيخ علي معه اياماً حتي يصل جرداين وبالغ في الحفاوة به .

لا يستطيع أحد ممن رأوا الحادث وشهدوه ، ان يذكر على التحديد ماذا دار بين المدير ومفتشه ، ولكن الذي حدث على التحقيق ، هو ان المستر جرداين جاءفي استجداء وضعف يطلب من الشيخ المغفرة والعفو ، واعتذر عما بدر منه اعتذاراً حاراً . . . وقبل الشيخ الطيب القلب في نبل اعتذاره .

ومن هنا يمكن ان نعرف شيئاً مما دار بين المدير ومفتشه - الذي حدث بعد هذا ان نقل جرداين في الحال كاتباً في سراي الحاكم العام بالخرطوم وأخرج من عداد رجال السلك الاداري .

وسمع بعدها بفترة قصيرة انه ترك العمل في السودان نهائياً ولسنا ندري أكان ذلك بمحض رغبته ايثاراً لكرامته ، أم أن لعنة خطئه مع الشيخ الكبير لاحقته فأمر بالاستقالة

صورة حية لأولئك الرجال الذين عرفوا كيف يحتفظون بكرامتهم شامقة في أسوأ الظروف الاستعمارية ، وبالرغم مما كانوا يتظاهرون به من صداقة مع الانجليز الا انهم لا يسمحون لهم قط ان ينالوا من مراكزهم التقليدية او كرامتهم الشخصية . . .

مدرستي وتلامذتي

كتبت عن كل شئ في البادية الا عن البراعم الصغيرة الحلوة العذبة اولئك الذين قطعت القفار على ظهور الجمال سعياً اليهم لأنير لهم طريق المعرفة ، تلامذتي الذين علموني الكثير وأهدوا اليَّ هذه التجارب الخصبة ، والجميل الرائع من الذكريات التي ما زلت أعيش عليها حتى نودع هذه الحياة غير الباقية لأحد .

لست أنساهم ما حييت في بساطتهم المحببة ، وحياتهم البدوية غير المعقدة وصراحتهم البريئة فهم لا يعرفون كيف يخفون ما في نفوسهم حيال كل شئ يرونه او يسمعونه .

أذكر أول يوم وصلت فيه البادية – قد وصفت هذا اليوم في أول هذا الكتاب – إذ جئت في رفقة المستر لي مفتش دار الكبابيش ، ووصفت كيف استقبلنا الشيخ علي التوم ورجاله على ظهور الخيل المسرجة بالسروج العربية الفارهة والنحاس يدوي في الفضاء كقصف الرعد ، وذكرت كيف لقنت درسي الاول من تلامذتي الذين كانوا من بين الفرسان الذين استقبلونا والخيل تعدو بهم ، لم أكد أستبين وجودهم على ظهورها لصغر أحجامهم وعلو حافات السرج العربية ... وظننت الخيول منطلقة وحدها بعد ان ألقت الفرسان على الأرض ...

واستبنتهم بعد لأي لاصقين على ظهورها كالجن ، وأرجلهم لا تصل الى موضع (الركاب) فعقدوا السيور قرب موضع السرج ودسوا أرجلهم الصغيرة القوية في تلك (العقدة) وتركوا الركاب يجول بين الجانبين !.

ولم أكن – انا مدرسهم – حتى تلك اللحظات قد ركبت حصاناً من قبل بل كنت ما ازال اعاني من تجربتي الأولى في ركوب الجمال في تلك الرحلة القاسية .

قضيت ليلتي الاولى في البادية مسهداً فقد كان كل شئ جديداً علي ، منه ما استطبته ووقع مني موقعاً حسناً ، ومنه ما نفرت منه وتأذيت ... وأخذت أنظر بعين الخيال الى تلك المسافات الشاسعة التي قطعتها على ظهور الجمال حتى بلغت هذا المكان النائي بدار الكبابيش ، وتذكرت الجبال والوهاد التي اجتزناها بعد عناء ورهق شديدين ، ولكم كان

يحنقني السير كلما تراءى لنا جبل من بعيد ... فنحن نغذ السير نحوه ونظن انا سنبلغه بعد ساعات ، ولكنا نقضي أياماً حتى نبلغه ... ثم نخب ونغذ السير بمطايانا نهاراً وليلا ، وليلاً ونهاراً وكلما أدرت بصري نحوه اراه ما يزال بجانبي أكاد ألمسه بيدي ...

والبدويون يستخفون بالمسافات البعيده ... فاذا ما ذر قرن جبل من بعيد على الأفق هللوا وفرحوا وقالوا : الحمد لله ، لقد وصلنا جبل كذا ، لم يبق لنا من المسافة شئ يذكر ، وأفرح معهم ، فان السفر بالجمال في تلك الصحراء أياماً عديدة لممل ثقيل على النفس ، فأنت في حاجة لتسري عن نفسك وتخلق أملاً منعشاً تعيش عليه فترة ... وظهور جبل من بعيد أمل جديد يبعث النشاط في القافلة ، ولكن هيهات ان نبلغه بتلك البساطة التي تحدث بها البدويون . فالساعات تمضي بطيئة ويمضي النهار والليل والجبل يبدو كسحابة سوداء جاثمة لا تتحرك ، والجمال ترقل مسرعة ، ورجال القافلة يخففون من العناء بتبادل انشاد - الدوباي - ثم يعتريهم الكلال فلا تسمع صوتاً ولا همساً ، والجبل ما يزال امامنا سحابة سوداء جاثمة لا تتحرك ، ونبلغه بعد مشقة ونفرح باللقاء ونحييه كما نحي الناس الذين نلقاهم بعد فراق طويل ، ثم نغادر وتبدأ المأساة من جديد ، ولكنها هذه المرة من خلفنا ، فنسير أياماً وكلما أدرنا أبصارنا خلفنا ألفيناه قيد اذرع منا . !

وما كنت أجد الراحة الا عندما نبلغ وادياً من تلك الوديان التي شاءت رحمة الله ان يلطف بها تلك الصحراء ويثيب عابريها لقاء ما تحملوا من مكاره السفر ... وفي الوادي تنطلق الجمال بعد ان تخلصت من احمالها لترعى في نهم وقد صبرت اياماً على الجوع ... ونهرع نحن الى ظلال الاشجار لنتفيأها ، وأضع سريري السفري الصغير تحت شجرة ظليلة لآخذ حظي من النوم الذي لم أذقه الا لماماً قبل ان نبلغ الوادي ... وقد نظل بالوادي اكثر من يوم قبل ان نواجه رحلة جديدة تطالعنا فيها الصحراء برمالها المتشابهة مد البصر ، وجبل يطل علينا من بعيد يرهقنا السعي اليه ولكنه على اي حال أمل جديد يحدونا لنجد المسير .

هذه صورة مصغرة لما كنت أعانيه في رحلاتي الى دارالكبابيش حتى ابلغ مقر الشيخ علي التوم في واد من أودية تلك المنطقة الفسيحة التي يعرفون كل شبر فيها ... ويسمون كل مرتفع او منخفض منها باسم خاص يعرفونه به كما يعرفون خاصة اهلهم وذويهم سواء بسواء ، فتلك هي بيئتهم التي تحيط بهم تحنو وتقسو عليهم وهم بها راضون ، بل كلفون .

لقد خلعوا على كل معلم فيها مهما كان صغيراً اسماً يعرفونه به ، فهذا الاسم لواد اخضر ممرع يصلح للمرعى ، وذلك لجبل أجرد يتجاوزونه سراعاً وذاك لمنهل صغير ،

وآخر يطيب المقام حوله ... الخ .

قلت في مستهل كلمتي أنني قضيت ليلتي مسهدا ولم أنم الا بعد منتصف الليل فلأول مرة في حياتي أنام داخل خيمة لا باب لها ولا سور ... وذر قرن الشمس فسمعت داخل خيمتي اصواتا تتهامس وتضحك في خفوت ... وفتحت عيني بعد مشقة ، فقدكنت ما ازال في حاجة الي مزيد من النوم ،فرأيت في ركن الخيمة مجموعة صغيرة من الأطفال ينظرون اليَّ قد جلسوا القرفصاء على الارض ... ولم أخطئ فهمهم ، انهم تلامذتي الذين رأيتهم بالأمس كالجن على ظهور الخيل عند استقبالنا ، ومن اجلهم جئت الي هذه البادية الجديدة على حياتي ومعرفتي ، ولعلهم تعجلوا الحضور ايضاً ليعرفوا ما هذه المدرسة الجديدة على معرفتهم وحياتهم ... فبكروا بالدخول على خيمتي ، ولم يدر بخلدهم اني نائم : فقد تعودوا – مثل اهلهم – الا تشرق عليهم الشمس وهم نائمون ... بل قل ان تشرق الشمس ولا يكون اكثرهم قد تناول وجبة الافطار ، عصيدة الدخن بأي ادام من لبن او قديد ...

وقد عجبوا اذ وجدوني نائماً وقد أشرقت الشمس ... فتهامسوا وتبادلوا الضحكات عجباً من مدرسهم الذي ينام حتى تلك الآونة . وكان هذا كافياً لاجعل برنامج الدروس منذ يومه الأول يسير حراً طليقاً من كل قيد زمني ... فنحن نبدأ في وقت مبكر لا تشاركنا فيه مدرسة اخرى في السودان ، ونعود مرة اخرى في المساء لنستأنف الدراسة .

اما الجمعة فهي عطلة ، وهي ايضاً عيد صغير في الحي نصحو في الصباح الباكر على دوي النحاس ، اذ كان التقليد المتبع عندهم ان يروى النحاس بالدم كل جمعه ، ليس دم انسان بالطبع وانما يذبح عند الفجر خروف خاص بهذه المناسبة ، ويؤخذ دمه ويرش به قطع النحاس الثلاث ، وقد أحاط بها شبان أشداء ، وسرعان ما يحملون العصي الغليظة ويوقعون على النحاس ضربات الفروسية التي تثير الحماس ، ويزغرد النساء من هنا وهناك تجاوباً مع هذا الدوي الحماسي ... ان لكل ضربة من ضربات النحاس معنى خاصاً يعرفونه ويترجمونه الى كلمات منغومة ... وأذكر توقيعاً حماسياً كانوا يحبونه ويؤثرونه ويغنون معه بهذه الكلمات التي تتمشى مع توقيع ضربات النحاس - كار جدو ، جد جدو - يعنون بهذه عراقة المجد في بيت الشيخ فالمجد عنده طارف وتليد من جده واجداده القدامي ...

بدأت أعمل كما قلت في جو حر طليق فلا تقيد بزمان أو مكان للتدريس ... ليس في مدرستي مقاعد أو كنبات للتلاميذ ، كل عدتنا سبورة واحدة أعلقها على شجرة أو نشدها على حبال خيمة او بيت شعر ، وتلامذتي يجلسون على الرمال ملتفين حولي ،

فلا مقاعد ولا حصائر الا مقعد صغير لجلوسي احياناً حجرتنا هذه الطبيعة الواسعة المنبسطة حولنا نجلس منها حيث نشاء . اليوم هنا ، وغداً هناك عند منحنى الوادي . . . وقد تداعبنا الرياح فتحمل السبورة عنا بعيداً فنضحك كثيراً ويتسابق التلاميذ للحاق بها واعادتها الى مستقرها ، جذع الشجرة ، او حبال خيمة ! .

لا تسلني عن العطلات المدرسية ، فما شأننا بشم النسيم وعيد ميلاد او جلوس الملك ؟ ولكم كنت اسخر عندما تصلني نشرة مصلحة المعارف محددة الاجازات السنوية ، فالقيها جانباً ولا أعمل بها ، لقد كانت لنا نحن ايضاً في باديتنا تلك ، اعيادنا الخاصة التي نحتفي بها ونشارك الناس من حولنا بهجتهم وفرحتهم بها . . . فهذا مثلاً عيد اوبة الابل من مرعاها في فصل الشتاء في منطقة صحراوية يسمونها - الجزو - حيث يظل الشبان مع ابلهم قرابة الثلاثة اشهر لا يعودون خلالها لأهلهم ، فاذا ما عادوا بها بعد هذه الغيبة الطويلة كان هذا يوم عيد بحق ، ويخرج الحي كله لاستقبالهم رجالاً ونساءً واطفالاً في فرحة طاغية ، النساء يزغردن ويرقصن . . . والنحاس يدوي كالرعد والبنادق يئز رصاصها ابتهاجاً ، والفرسان امتطوا خيولهم يتسابقون فرحاً بأوبة إخوتهم ويتصايحون . . . ونقبل من العائدين من الجزو هداياهم من اللحم المقدد لبقر الوحش ، وهو اطيب ما يهدونه ، اذ يصيدون هذا البقر في الصحراء حيث هناك بكثرة ، ويهدوننا ايضاً - اللبن « القارص » اي لبن الابل وقد حفظوه في « السعون » بعد ان اضافوا اليه - الحلبة - لتطيب نكهته .

ان الحي كله في عيد متصل والمدرسة في عطلة تشارك الحي بهجته ومسرته . . . هذا مثل من اعيادنا .

فما شأننا بشم النسيم وعيد الكرسماس ؟

ولنا عيد آخر ، عندما يدوي صوت النقارة في الصباح معلناً رحيلنا من البقعة التي نحن فيها الى مكان آخر ، فيشتغل الحي كله بتقويض خيامه قبل شروق الشمس ، وأقوض انا ايضاً خيمتي ، ونضع كل هذا على الجمال ، وتبدأ رحلة جديدة قد تمتد لبضعة أيام ، نسير من شروق الشمس حتى غروبها الى ان نبلغ دارنا الجديدة وننصب خيامنا وننظر في الطبيعة من حولنا لنختار مكاناً صالحاً ، نجلس اليه لنبدأ دراستنا من جديد ، فاذا لم يطب لنا ، كان لنا في الفضاء الواسع من حولنا والاشجار الكبيرة المتناثرة خير بديل .

واشهد ان تلامذتي كانوا - او اكثرهم - على ذكاء مفرط ، ولكني كنت اجد عناءً كبيراً في نقل صورة متكاملة لبعض ما يرد في كتب المطالعة من اشارة الى ما هو سهل

واضح في المدينة ، فالكلمات ، نهر ، قطار ، قصر ، كهرباء مثلاً ، اجد عسرا شديداً في تحديد مدلولها في اذهانهم ، قد أخذت أستعين بالكثير من الصور في بعض الحالات ، وما من شك في ان واضعي تلك الكتب كان في ذهنهم دائماً طفل المدينة ولم يدر بخلدهم مثل هؤلاء الاطفال البدويين الذين من المحال ان يتصوروا ما تعني هذه الكلمات عن طريق الوصف المحض .

وعلى مر الايام تعدد تلامذتي وصاروا في مستويات مختلفة - أولى - ثانية - ثالثة رابعة - وانا وحدي اعمل بينهم مقسماً وقتي وجهدي ، ففي حصة العربي مثلا ، نجد بعضهم يطالعون سراً ويجيبون علي أسئلة كتبتها لهم على السبورة من القطعة التي يطالعونها ، - وفي جانب من السبورة ذاتها - وهي وحيدة عندي - قطعة املاء ينقلها آخرون على كراساتهم ، وأتجه أنا للفرقة الثالثة أملي على تلامذتي قطعة املاء اختيارية ولا بأس أن تكون خلال هذه الفرقة الرابعة مشغولة باجراء عمليات في الحساب . . .

وافرحتاه . . . ! لقد وصلتنا (كفرات وأنابيب) لكرة القدم ، لقد تذكرتنا « المعارف » وأهدتنا ما يهدى لمدارس المدن لنلعب كرة القدم في البادية ! . . . والتف حولي تلامذتي مذهولين وأنا أحدثهم عن هذا الشئ الجديد في حياتهم ، حدثتهم طويلاً عن هذه اللعبة ، وأخذت أعد الكرة امام أعينهم ، أملأ جوفها بالهواء بالمنفاخ ، ثم أربطها ، كل هذا وأبصارهم عالقة بما أفعل في دهشة بالغة ، وأمسكت الكرة بيدي وقذفتها برجلي بعنف نحو الفضاء وكان لها دوي ، وأوشك بعض الصغار ان يهربوا فزعاً لولا ان طمأنتهم ! ، ثم أخذت أشجعهم لكي يقذفوها وأن (يشوطوها) بأرجلهم كما أفعل ، وبعد قليل سرت نشوة اللعب بينهم ، واخذوا يتقاذفون الكرة ويجرون خلفها بغير نظام وهم يتصايحون ويضحكون في مرح وإعجاب ، وشاركنا بعض كبارهم في اللعب اذ أعداهم منظر الصغار يتقاذفون الكرة ! . . .

لقد شهدت الكثير من المباريات في كرة القدم ، وأشهد الله انها كلها مجتمعة لم تبعث في نفسي البهجة والمسرة كتلك التي بعثها منظر تلامذتي في البادية وهم يعدون وراء الكرة ، كل يقذفها باي جزء من جسمه وقد سقطت ثياب بعضهم فانطلقوا مع الكرة عراة لا يأبهون ، وآخرون (بالسراويل) فقط وكلهم منتش طروب !. . .

ليس لمدرستنا جرس يحدد مواعيدنا ، وما حاجتنا اليه ؟ لقد حددت في مفكرة صغيرة حصص كل يوم ، دون ان احدد الزمن ، فنحن ندرس في الصباح ، وندرس في المساء وامامي اكثر من فرقة تدرس ، وليس لمدرستنا « طابور » نعد فيه تلاميذها ونحصي الغياب ، فإنا نتجمع تحت الشجرة التي ألفنا التجمع تحتها أو في ظل بيت شعر ما ،

وبنظرة واحدة نعرف من غاب منا . والاجابة عن سبب غيابه حاضرة دائماً عند زملائه ، وأكثر اسباب الغياب تعود الى أمرين قل أن يكون لهما ثالث ، إما أن تكون إبله قد وردت الماء هذا اليوم فهو سعيد بها يعيش بجانبها حتى تعود الى مرعاها ، واما مريض ... ونحن أيضاً لا نتقيد بلبس معين كما تفعل المدارس الاخرى ، فتلامذتي يعدون نموذجاً حسناً لكل أنماط اللباس في البادية فهذا يحضر ملتفحاً بثوبه فقط وليس على جسمه شئ سواه ، وذاك « بسروال » صغير وقميص ، وآخر بسروال فقط ، وقد يجئ الصغار منهم عراة تماماً !...

وليس على الرؤوس غطاء ،وقد حلق شعر بعضهم بالموسى كله ،وبقي عند آخرين جزء من الشعر في مفرق الرأس ،وتدلت من رؤوس الآخرين ضفائر للخلف وأخرى الى الامام حتى تكاد تجاوز الجبهة ،وقد يلبس بعضهم أحذية وقد يجئ آخرون حفاة الاقدام ...

لقد أتيح لي بعد سنوات طويلة أن أعود في رحلة تفتيش على مدارس كردفان وكان لا بد ان اضع في المقدمة زيارتي لمدرستي المتنقلة بين الاشجار والخيام ، فوجدتها تبدلت - ككل شئ في الحياة ، لقد بنيت على طراز حديث بالحجر ، وبنيت للمدرسين بيوت من الحجر فاخرة مثلها مثل بيوت العواصم الكبري ، وحفرت لهم بئر خاصة يرتوون منها ، ورحمهم الله من ذلك الماء الآسن الذي كنا نشربه من الاودية التي تحتفظ ببقايا المطر ، ونري في الحصول عليه ، على سوئه ، نعمة وافرة !... والتلاميذ أعدت لهم داخليات ذات أسرة وعدد كثيرة وهم يجلسون اثناء الدروس على مقاعد وكنب ، كل شئ قد تغير ، لقد صارت مدرستي المتجولة مثلها مثل مدارس المدن الراقية في كل شئ ، لم يعد الوصول اليها سيراً بالجمال ، وإنما بالسيارات التي تطوي الارض طياً في سويعات قلائل ... ولكن المدرسة الحديثة لم تبعث في نفسي شيئاً من البهجة والمسرة ، ولكم وددت لو وجدت خيمتي ما تزال هناك في ظلال الاشجار ... ولعلي في هذا غير منصف ، وإنما أفكر بعاطفتي لا بعقلي فأنا هنا كأبي الطيب المتنبئ :

خلقت ألوفاً لو رجعت الي الصبا * لفارقت شيبي موجع القلب باكياً



مدرسي وتلامذتي

صور طاغية كلم

اعتدت عندما نكون في ام قوزين حيث الاشجار الملفته الباسقة والطبيعة السخية في كل شئ حتي الماء الذي يعد من الكنوز الغالية في تلك البقعاع ان اتخير بعض الاشجار الظليلة أتفيأها وتلامذتي ونتلقي الدروس تحتها وتحنو علينا بظلها الوريف .

وذات يوم وانا القي دروسي تحت ظل شجرة باسقة وتلامذتي ملتفون حولي وقد جعلوا من تلك الرمال الذهبية مقاعد لهم فرحين مقبلين واتخذت مكاني بينهم علي مقعد صغير واتكأت السبورة على جذع الشجرة ظهر لنا من خلال الاشجار شخص يتجه نحونا متئداً وصاح تلامذتي اليه . المفتش !... المفتش ! .

والتفت حيث اشاروا فرأيت احد الاداريين الانجليز يسير نحونا وأدهشني ان اراه يحمل عصاً غليظة مما يسميه البدويون وعامة الناس (بالقرجة) ...

لم أعجب لظهوره بيننا فجأة في ذلك الوادي فقد كان في ام قوزين في تلك الاونة اجتماع قبلي حضره مفتشون من دار فور وكردفان وبعض النظار والشراتي كما هي العادة في عقد مثل هذه المؤتمرات القبلية سنوياً في مكان ما لحل ما ينجم من مشاكل قبلية خلال العام ولتقريب شقة الخلافات التي يسببها النزاع حول المراعي والماءوهي المشكلة الاساسية الخالدة التي تتجدد بصور مختلفة ولا تمس الجوهر بشئ !! المرعي والماء...

وكان الاداريون البريطانيون كلما كان المؤتمر في دار الكبابيش يحرصون علي زيارة المدرسة مجتمعين او فرادى ، وكان يعجبهم وضعها الفريد ، تنقلها بين الخيام وظلال الاشجار... وقد أتاحت لي هذه الظروف الفريدة ان اشهد انماطاً من الاداريين البريطانيين . وكان جو البادية الطلق ، وصراحة الناس وعذوبة البيئة كل هذا كان يوحي لهم بالتحلل من جو الرسميات الخانق ويحاولون ان يرسلوا نفوسهم على سجيتها جهدهم .

واقترب الاداري البريطاني منا وحيانا بلسان عربي مبين ورددنا تحيته بعد ان هز يدي عدة مرات في حرارة على غير عادة أهله ، ثم حيا التلاميذ واحداً واحداً سائلاً كلاً منهم عن اسمه واسم ابيه لتعرف الى اكثرهم عن طريق آبائهم . ثم التفت اليَّ وقدم نفسه ...

(مور) مفتش كتم .

وكنت قد سمعت عن المستر مور هذا كثيراً من الذين حضروه في بعض المؤتمرات القبلية ، لما كان ينفرد به من تصرفات شخصية خاصة تلفت الانظار كما سيجئ - وسمعت عنه ايضاً من بعض القادمين من كتم وهم يتحدثون عن مفتشها الذي يعيش مع الناس في مثل مستواهم .

وكانت في ذهني عنه صورة طريفة اكتملت فيما بعد عند زيارته هذه ... كنا في نهاية يومنا الدراسي والتلاميذ يتلون عليَّ بعض سور القرآن للمراجعة عندما جاءنا المستر مور هذا ... وقد سكت التلاميذ عن التلاوة عندما وصل وبعد ان تم التعارف وتبادلنا التحايا سألني ماذ تدرس الآن ؟ قلت بعض سور القرآن ... قال اي السور ؟ ... وعجبت ماذا يفيد من هذا التساؤل وما مبلغ علمه بالقرآن ... ؟ وقد لحظت ان لغته عربية سليمة حاول ان يدس خلالها بعض الكلمات الفصيحة ليؤكد لي مدى المامه باللغة الفصحى ... قلت انا نقرأ الآن سورة (الفجر) ... وفاجأني بان اكمل الآيات قائلاً ، الفجر وليال عشر والشفع والوتر ، هكذا نطقها في غير عجمة ، ولعله لحظ دهشتي ، فقد أخذت أنظر اليه في كثير من الاستغراب ، فضحك وقال : اني احفظ بعض سور القرآن .

وانصرف التلاميذ بعدها ودعاني لأذهب معه الى خيمته وبلغناها واخذ يعتذر اليَّ قائلاً بانه لم يعتد ان يصحب معه طباخاً في مثل هذه الرحلات وانه يأكل اي طعام يقدم له في طوافه وقال ، اني استطيب (العصيب بالملاح) ... وفي الواقع ان كل طعام البدويين يتكون اساساً من عصيدة الدخن فهم لا يعرفون هذه (الكسرة) التي نأكلها وليس بين نسائهم من تصنعها بل لا توجد لديهم ادوات صنعها اطلاقاً فالوجبة عندهم عصيدة من الدخن بأدام من الويكة المطبوخة بقديد من لحم الصيد وهذا اطيب طعامهم ، وقد يكون الإدام حيناً من اللبن حليباً (أو رائباً) او ماء عليه ملح وسمن دون ان يطبخ وان وجد معها شئ من البصل كان ذلك متعة تستوجب مضاعفة الحمد والشكر ... اذكر هذا لأعطي صورة عن الطعام الذي يمكن ان يتناوله المستر مور ويعتمد عليه في ترحاله ولا يحب ان يرافقه طباخ يصنع له طعاماً خاصاً اكتفاء بما يجده عند البدويين .

وما كدنا نستقر في الخيمة حتى مد يده الي (جراب) صغير واخرج منه حفنات من البلح ودعاني لنأكل منه ، ورأيته يلتهم البلح في نهم دون ان يلتفت الى ما قد يكون عالقاً به من اوساخ .. حدثني عن نفسه فقال انه كان يعمل لفترة طويلة في العراق وكان مجال عمله هناك بين البدويين وزعماء العشائر فأحب هذا الجو البدوي الخالص وألفه بل واندمج فيه بروحه ومشاعره ... ولهذا فانه عندما اختير للعمل في السودان آثر هنا

المنطقة لما يحسه فيها من تشابه بحياته في العراق . . . والهاض في ذكر مقارنات عديدة بين بادية السودان وبادية العراق دلت على عمق تفهمه للحياتين عن دراسة وخبرة . . .

وجاء أوان الغداء فاعتذرت واردت ان اذهب لخيمتي ولكنه ببساطة البدوي قال انه طلب من الشيخ محمد التوم - الاخ الاكبر للشيخ علي - ان يعد له عصيدة للغداء . لهذا فهو يطلب مني ان نذهب معاً . . . وبلغنا بيت الشيخ محمد - خيمة من الشعر - وفي بساطة غير متكلفة تربع مور على السجادة المفروشة على الارض وجاءنا الغداء ، عصيدة تملأ قدحا اسود ضخماً يعرفه كل من عاش في دارفور وبعض انحاء كردفان وقد فاض الادام حول العصيدة وامتدت الايدي تلتهم وهو يستزيد من (الملاح) كلما جف من ناحيته من العصيدة ، وختمنا جلستنا تلك بعدة اكواب من الشاي الاسود ، خف بعدها الى خيمته وذهبت الى خيمتي وفي ذهني اكثر من سؤال عن هذا الانجليزي العجيب !.

وظل مور معنا نحو الاسبوع يأكل عند الشيخ واخوته إذ كان بغير خادم للطبخ . . . ورأيته ايضاً يحرص علي شرب قدر كبير من اللبن اينما وجده وفي اي اناء يقدم له دون تأفف . . . وحدثني عن حبه للبن وكيف انه اذا ما التقى بالرعاة في الوديان استوقفهم ليشرب (البيضاء) فيحلبون له اللبن في (الكبروس) وهو وعاء مستطيل من الخشب يحمله الرعاة معهم ليحلبوا فيه اللبن او يتناولوا فيه طعامهم ، يشبه الطربوش الا ان له يداً من الخشب . وهو الاناء الوحيد الذي يرافقهم في تجوالهم مع ابلهم انتجاعاً للمّرعى . . . وكان المستر مور يشرب من هذا الكبروس مباشرة على ما به من فقدان النظافة . . . بل كان كثير من الاداريين الانجليز يرعون هذا التقليد فاذا ما مروا على الرعاة في الوديان إستوقفوهم ليشربوا (البيضاء) ويعنون بذلك اكرامهم بقدر من اللبن . . .

وخلال تجوالي مع مرافقي من البدوين كنت الاحظ بهجتهم وتفاؤلهم بان رحلتهم (سعيدة) كلما بلغوا مكانًا ترعى فيه الابل والرعاة حولها يصيحون بهم عندمايبصرونهم من بعيد . . . (البيضاء . . . البيضاء) ويكرعون من اللبن الذي يمتلئ به (الكبروس) حتي يفيض ويستزيدونهم منه حتى يرتووا . . . واذا رفض احد ان يشرب من البيضاء تشاءموا من ذلك وما يزالون به حتى يأخذ جرعات منه لمجرد الفأل ، ونادراً من كان يأبى . . . ولعلي الغريب الوحيد الذي تعذر عليه اولاً ان يشرب البيضاء من ذلك الكبروس وقد ارضيتهم اولاً بجرعات . . . اما فيما بعد فقد صرت اسابقهم كلما مررنا على إبل ترعي وتصايحنا مع رعاتها ، عوك . . . البيضاء . . . فيهرعون الينا باللبن في الكبروس ووجوههم مشرقة سعيدة ، ألا ما أحلى وأصفى تلك النفوس .

قلت ان مستر مور بقي معنا أياما ولا طعام له غير ما كان يحمل من البلح وما

يستضيفه به البدويون وكان يزورنا كل يوم في المدرسة ، وقد اضحكني تلامذتي الذين كانوا اذا رأوه قادماً من بعيد يحتقب عصاه الغليظة ، نبهوني ضاحكين قائلين . . . المفتش . . . ابو عكاز . . . جانا . !

وعاد الي كتم ولم القه بعد ذلك ولكنني كنت التقط انباءه في اهتمام كبير فقد كان يمثل لي لوناً فريداً من الاستعماريين ناعمي الملمس ، واذكر ان التقيت في سنجه خلال اجازتي بالسيد عثمان الخليفة ، وكان يعمل آنذاك مأموراً في مركز كتم فسألته عن مور وحياته في كتم فحدثني انه يعيش في بيته كما يعيش الشراتي هناك وكثيراً ما يقيم المآدب البلدية ويقدم العصيدة بالملاح . . . حدثني ان مور كان اذا ما جاء شهر رمضان صامه مع الناس حتى النهاية ولا يبيح لنفسه ان يفطر يوماً واحداً . . . وكان اذا ما جاء أوان الافطار اعدت له مائدة مثلما يعدها المواطنون من حوله . . . الآبري والبلح والعصيدة

وكثيراً ما يدعو الناس للافطار معه ، كما كان يتقبل دعواتهم للافطار معهم في بيوتهم . وهو بالطبع لا يفعل هذا عن عقيدة دينية وانما إمعاناً منه في الاندماج في البيئة التي يعيش فيها وليسهل عليه معرفة الناس ودراستهم عن كثب . . .

ولكن المستر مور مع هذا التفاني في الاندماج بمن حوله قد جعل من مركز كتم سجناً كبيراً لا يسمح بالخروج منه او الدخول اليه إلا لمن يشاء ممن يطمئن اليهم . . . كان عدواً للتعليم والمدنية وكل جديد . . . وكان يريد ان يعيش الناس في كتم كما هم بغير تطور مفيد . . . وقد ظل يعمل مفتشاً في كتم منذ بداية عهده بالخدمة حتى خرج منها مفارقاً السودان نهائياً ولعل ذلك كان في الاربعينات ولعله ظل بكتم ما يقرب من العشرين عاماً لا يغادرها الا للاجازة ، ان لم تخني الذاكرة .

وعاش فيها كما يعيش عامة اهلها يتخلق بعاداتهم ويتحدث بلهجتهم يتظاهر بالحدب والعطف عليهم وتحت ستار هذا الحنو والعطف فرض ستاره الحديدي عليهم وحال بينهم وبين التقدم في اي مجال لا يسمح لاي زائر ان يبلغ كتم الا باذنه ومن يفعل رد رداً سيئاً ولا يسمح له بالبقاء .

ومستر مور هو صاحب الموقف المشهور من الصحفي الكبير المرحوم احمد يوسف هاشم عندما زار دارفور وكان يحرر آنذاك جريدة النيل وقضى فترة في زيارة للمديرية ، و مكث اياماً في الفاشر ولعله كان في ضيافة ابن عمه المغفور له محمد حاج الامين مأمور المركز وحاج الامين كغيره من الموظفين السودانيين في دار فور كان من الناقمين على تصرفات مور وعلى الحجر الذي فرضه على مركز كتم ولعله اوعز لاحمد يوسف هاشم

ان يقوم بزيارة لكتم ليكشف سيئات مور . . . وبالرغم من ترحيب سلطات مديرية دارفور بزيارة احمد يوسف وتمهيد السبل اليه الا ان المستر مور ابى في عنجهية بالغة السماح لاحمد يوسف ان يدخل مركز كتم ورفض رفضاً باتاً رجاء السلطات ان يسمح له بالزيارة ، وقيل انه رد رداً عنيفاً .

وعاد احمد يوسف للعاصمة ولم يصمت فأشهر قلمه القوي الجرئ يتحدث عن مور والسد الذي اقامه حول الناس في كتم والاسلوب العتيق الذي يسير به في الحكم وصب جام غضبه في عدة مقالات نارية هي التي سمى فيها حكومة السودان بحكومة المفتشين . . . ونفّس احمد بهذه المقالات عن نفوس كثيرة معذبة بحكم مور وامثال مور واستقبلت المقالات من القراء استقبالاً حافلاً ولقيت تجاوباً عجيباً من كل قارئ كما لقيت نفس الاهتمام البالغ من كبار المسؤولين في حكومة السودان وكانت ذات اثر مباشر على المستر مور فقصمت ظهره بحق . ولا استطيع ان اتذكر الآن إن كان مور قد ذهب مستقيلاً اثر هذه المقالات ام اقيل ، ولكنه حتماً لم يبق بعدها فترة تذكر ويبدو ان اسلوب حكومة السودان نفسه - وقد رأت الوعي ينتظم البلاد - لم يعد يحتمل تصرفات امثال المستر مور من غلاة الاستعماريين وعلى ما سمعت فان مدير دارفور نفسه لم يكن راضياً عن تصرفات مور وعن رفضه للسماح لاحمد يوسف بزيارة مركزه . . . وهنا لابد ان يطل علينا وجه المرحوم محمد حاج الامين والدور الذي لابد ان يكون قد اضطلع به مع المدير للقضاء على مور فقد كان ادارياً قوياً جريئاً اذا اعتزم أمراً فلا بد من ان يبلغه .

لقد هوي مور من عليائه ولم يشفع له اندماجه في البيئة المحلية وتخلقه بأخلاقها الي الحد الذي لم يبلغه اي بريطاني آخر وليس ادل على ذلك من انه ظل يرفض بديلا عن بيئة كتم فظل يعمل بها منذ بداية عهده حتى نهايته .ولقد لقيت المرحوم احمد يوسف هاشم عقب تلك المقالات التي شفى فيها الغليل ورمى فأصاب . . . فوجدته حانقاً كل الحنق على موقف مور منه ورفضه لقبول زيارته لكتم في قحة . . . وبالرغم من انه قد ثأر لنفسه وقومه الا انه كان ما يزال يعاني غصة من ذلك الرفض البغيض .

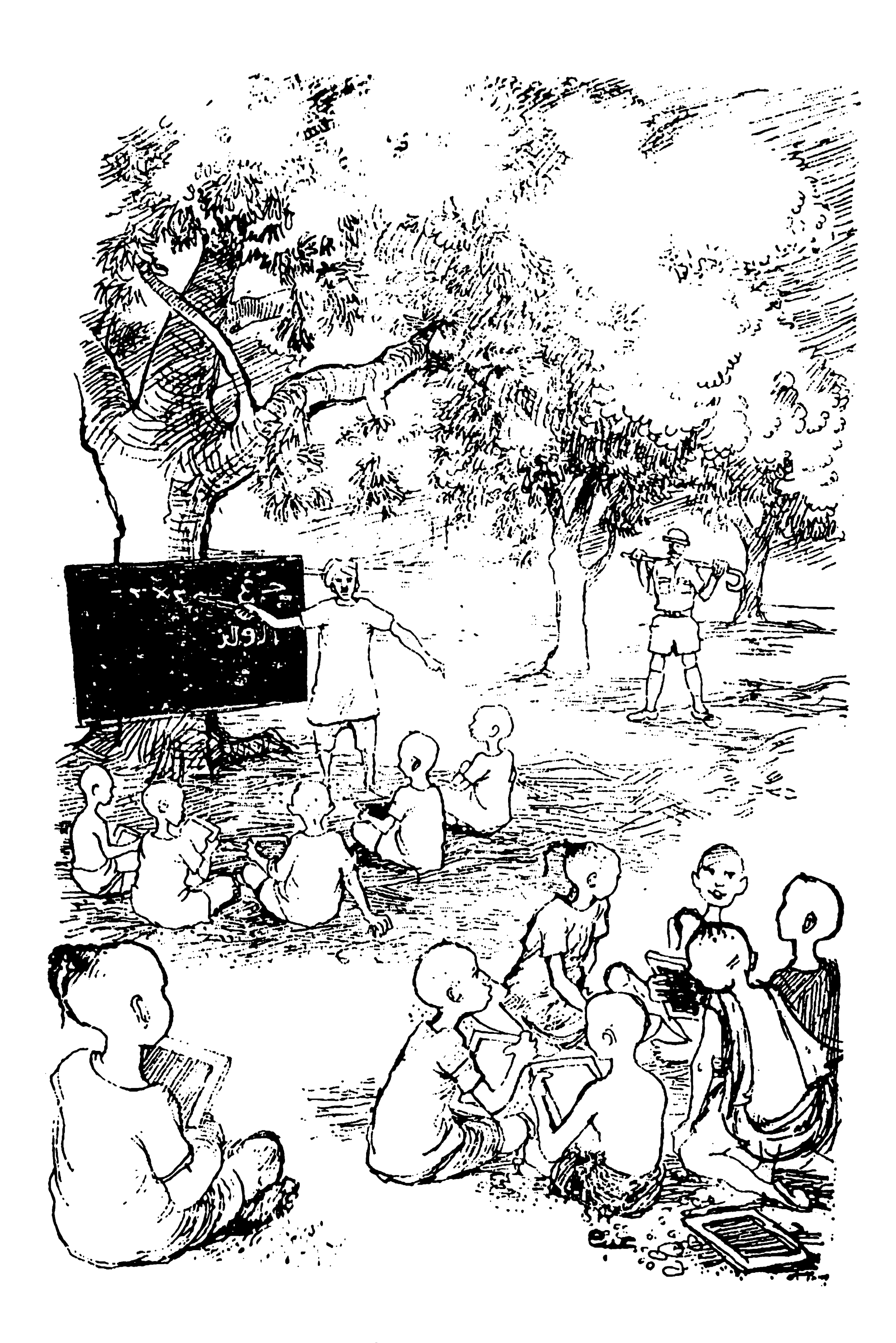
وان كانت مقالات احمد قد نزلت علينا برداً وسلاماً الا انها كانت ناراً محرقة بالنسبة لمور .

واذكر وانا في البادية عقب ان غادرنا مور عائداً بعد اسبوع قضاه كما وصفت اني سألت الشيخ علي التوم عن رأيه في المستر مور وكان الشيخ - طيب الله ثراه - قد اطمأن الي كثيراً وصرنا نتبادل الآراء في كثير من الصراحة . . . فقال لي : تراني اخاف من مثل هذا الرجل . . . انه يدخل في حياتنا الخاصة اكثر مما يجب ، فلو ظل بعيداً بعض الشئ

كاخوانه لكان خيراً له ... وهكذا استطاع هذا الشيخ ببصيرته النافذة ان يتوجس شرا من هذا الاسلوب الذي انتهجه مور في حياته مع البدويين ، الذي لم يزده قرباً منهم بقدر ما اثار ريبتهم فيه وعدم اطمئنانهم اليه .

ولست ادري ما رأي معاصريه في كتم في اسلوب مور هذا الذي اختطه لحياته الادارية ولكنه قطعاً كان إسلوباً فريداً إنتهى به نهاية سيئة لم يكن يتوقعها ولعله لم يكن يدري وهو يوصد ابواب كتم ويرفض زيارة احمد يوسف ان قلم هذا الصحفي الموهوب سيكون من العوامل الهامة لوضع ختام مفاجئ لم يكن ينتظره لحياته في كتم كحاكم لا يرد له امر .

فسبحان مغير الاحوال .



مور طاهية كلتم

مع الاغنية الكباشية

اما هذه المرة فاني أرجو ان نعيش لحظات مع الاغنية الكباشية ، واني ان استطعت ان أنقل على الورق كلمات هذه الاغنية فمن أين لي تلك الاصوات العذبة الرخيمة التي كانت تشدو بها في جذل ، وتلك الوجوه الصباح التي كانت ترقص عليها مرحاً ، فهن - مغنيات وراقصات - في مرح الغزلان وتأود الاغصان .

والغناء عند الكبابيش جزء هام من حياتهم لا يتحرج من ترداده أحد . صغر أم كبر ، رجلاً كان ام امرأة ، فهو يصور حياتهم ويعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم ، يتبارى الرجال في أنشائه وانشاده مثلما يتبارى النساء والفتيات . . . وللبارع في الصيغة والانشاد مكانة خاصة .

لست أنسي ما حييت تلك الشادية المحبوبة التي كانت تنشئ الاغاني في سهولة ويسر وفي نظم منسق يدل على الفطرة السليمه والموهبة الخارقة . . . زينة بت معافي ، وقد علمت أنها ما تزال حية وان نال منها الكبر - ، سنة الحياة . . . وكنت ألم بخبائها كلما أحسست بانقباض او وحشة . . . احبت رجلاً واسعدتها الاقدار فتزوجت به ، ونعما معاً ثم قتل في حادث مفاجئ مؤلم ، ووهبت حبه وذكراه حياتها فلم يدخل قلبها رجل آخر ، وذوبت مشاعرها في اغانٍ موجعة تذكر فيها حبها الذي ومض في حياتها كبرق خاطف واختفى . . . ووجدت في الاغاني التي كانت تبعثها جياشة تنفيساً لما تعاني من حزن عميق وكنت اذا جئت دارها تلقاني ابوها او أخوها ، أوامها في ترحاب بالغ صادق ، واسرعت هي اليَّ محتفية وجلسنا معاً . . . وليس في البادية هذا الانفصال الذي يميز به المجتمع عندنا فالمرأة تستقبل زوار زوجها او اخيها وترحب بهم وتكرمهم ، وقد يجلسون جميعهم معاً فالدار واحدة ليس بها غرف منفصلة فلا خشية ولا سوء ظن .

كنت القاها في دارها بين اهلها ، فتحدثني عن الاغاني ، وتشدو بها احياناً في صوت هادئ عميق يهز المشاعر . . . واسمع تلك الاغنيات احياناً في حلبات الرقص فأعرف انها لزينة اهدتها للسرب الراقص المرح من الفتيات .

وليست زينة وحدها في هذا المضمار ، فالاغاني التي تنشد في حلبات الرقص تكاد

تكون كلها من تأليف الفتيات ، وقل ان يشترك فيها الرجال ... اما الرجال فيحتفلون باغاني الدوباي (وهو لا يختلف عن مثله في جميع انحاء السودان من حيث النهج والغرض مع تقارب في الاداء) وبأغان اخرى تقال حول البئر ، او وهم يقطعون الفلاة على ظهور الجمال .

فبجانب زينة اشتهرت « بنت عبد الخير » عبد الخير هذا من اثرياء البادية المعدودين ، والثراء عندهم يقدر بما يملكة الرجال من الابل ، وكان عبد الخير يذكر بعد الشيخ التوم مباشرة في الثراء ، وليس للأثرياء هناك ما يميزهم عن غيرهم من حيث المظهر وقد رأيت عبد الخير هذا اكثر من مرة وليس في مظهره ما يوحي بأنه يملك ثروة ضخمة تقدر في ذلك الحين بعشرات الألوف من الجنيهات اذا ما قدر ما يملك من الابل بالمال ... وكانت ابنته هذه من الحسناوات المعدودات في البادية ، وقد دفعها الزهو بالثراء للافتخار في اغانيها ، ومن من النساء من لا يزدهيها الثراء ويعجبها المال في اي صورة جاء ؟

ان ابنة عبد الخير اينما اتجهت ترى (القود) اي الابل من حولها ، فأمامها وخلفها (ردسيب القود) أي مجموعات الابل ، فهي تعتز بأن ليس لها ولأهلها نصيب من السنين السود ، السنوات العجاف التي يضيق بها الناس ، انها في نعمة تغنيها عن الضيق ، فهي تقول

نحن السنين السود
ما لينا فيهن عود
وجهي وقفاي مردود
من رد سيب القود

واخرى تزوجها فتى من غير حيها ، وجاء أوان رحيلها معه الي حيث يعيش أهله ، ولكنها تضيق بهذا الرحيل ويهفو قلبها إلى أهلها ، إلى - عرب ذوقها - أي أبناء حيها وأهلها الذين ألفتهم وأحبتهم ، بل إنها لتكاد تسمع على البعد أنين نوقها تحن شوقاً اليها ، فتخاطب صديقتها - دريجة - معلنة عن شوقها وانهم قد نووا بسوقها الى حي زوجها بعيداً عن أهلها - وهي تبكي .

وتسمع نوقها تبكي معها حنيناً ، وهي تريد ان تعيش مع الذين الفتهم وارتضاهم قلبها :

يا دريجة واشوقي !
نووا لي بالسوقي

بسمع حنين نوقي
دايره عرب ذوقي

وهذه البدوية الكباشية التي تبكي ألفتها وتحن الي حيها ويشجيها فراقه تذكرني بأعرابية في مثل حالتها ، روت قصتها كتب الادب العربي ، - يسمونها وجيهة بنت أوس - انشدت هذا الشعر الموجع حنيناً وصبابة :

وعاذلة تغدو علي تلومني على الشوق لم تمح الصبابة من قلبي
فما لي ان احببت ارض عشيرتي وأبغضت طرقاء القصيبة من ذنب
فلو ان ريحاً بلغت وحي مرسل حفيٌ لنا جيت الجنوب على النقب
فاني اذا هبت شمالاً سألتها هل ازداد صداح النميرة من قرب !

واخري استبد بها الشوق الى حبيبها الغائب مع إبله يرعاها بعيداً عن الحي فهي تستقبل - القبلة - حيث مرعى إبل الحبيب وتبكي - بلا سبلة - أي بلا سبب غير هذا الحب العميق ، ثم تحس بأنها تسمع حنين إبله من بعيد قادمة الى الحي وهو معها فيستبد بها الفرح والنشوة فتعلن أنها ستركب وتخف اليه لتلاقيه في منتصف الطريق قبل ان يبلغ الحي شوقاً ولهفاً الى لقياه :

بتقبل القبلة
وابكي بلا سبله
بسمع حنين ابله
بركب بضارب له

وهذه تودع حبيبها متمنية له العافية وتدعو له بسلامه الاوبة وتؤكد له حبها واخلاصها وان عهدها وثيق صاف من الشوائب :

سرجه علي مقافي
وقدمته في العافي
يا تومي ما تجافي
عهدي المعاك صافي

وأذكر ان جدلاً طويلاً دار بين عدد من المفتشين الانجليز الذين كانوا يعملون في الكبابيش ، اذكر منهم المستر لي ، والمستر واط الذي عمل ايضاً لفترة في بادية الشكرية والمستر دي بنسن الذي عمل اخيراً مديراً للخرطوم . وكان مدار الجدل ، هل يتذوق البدويون جمال الطبيعة من حولهم ؟ ام يفكرون فيه فقط من ناحية النفع المادي ؟

... مثلاً اذا عثر بدوي على روضة ذات اشجار وارفة واعشاب نامية مخضرة ، وزهر فواح ، وماء غدق ، هل يتذوق جمال هذا المنظر ويحس بروعته ؟ او ان اول ما يجول في ذهنه ان (يطلق) بهائمه لترعى العشب والزهر والشجر وتشرب الماء ؟

وقد كان لي نصيب في هذا الجدل مع المستر دي بنسن ، وكان كل منهم يبحث عما يؤيد وجهة نظره في الاغاني البدوية التي تصور احساسهم عله يجد ما يؤكد رأيه ...

وقد التقيت بعد سنوات بالمستر دي بنسن عندما كان يعمل مديراً للخرطوم في حفل اقامه الصحفيون السودانيون للمستر آير عند نقله مديراً للشمالية وكان الحفل في الفندق الكبير ، وبعد انتهاء الحفل تجمع المدعوون الى بعضهم ورآني المستر دي بنسن من بعيد واتجه نحوي ... والذين عملوا كموظفين في المناطق الصغيرة النائية ، يعرفون جيداً مدي الالفة القوية التي تنشأ بينهم في تلك الاماكن ، ولعل امتع الصداقات واعمقها اثراً تلك التي نشأت بين الموظفين وغيرهم في المراكز الصغيرة وخاصة النائية منها والتي تتميز بلون مغاير عن مألوف الحياة في المدن . ولهذا فان المستر دي بنسن ما كاد ينفرد بي في ذلك الحفل في الفندق الكبير حتى نسي كل ما حوله واستغرق في حديث طويل عن ذكرياته في الكبابيش ، وفجأة تذكر ما كان يدور بيننا من جدل حول مدى إحساس البدوي بجمال الطبيعة من حوله ، وكنت غير ذاكر لهذا في تلك الآونة فسألني قائلاً : اذا جاء كباشي الي هذا المكان - واشار الى الحديقة والارض الخضراء التي كنّا بها - فماذا يخطر بباله ؟ ... وتلفت حولي باحثاً عن اجابة ولكنه بادرني بقوله وهو يضحك ... انه يفكر في شئ واحد ، ان يسمح له بان (يطلق) بهائمه في هذا المكان المخضر لترعاه كله ولا تبقي منه جانباً . ! وضحكنا معاً ، وقلت له أنسيت الاغاني التي اودعوها حبهم للطبيعة من حولهم وانتزعوا منها تشبيهاً للجمال ؟ وتذكرنا أغنية طال حولها الجدل ، كانت مؤكدة لاحساسهم بجمال الطبيعة من حولهم ، وان كانوا بحكم حياتهم البدوية الرعوية يؤثرون ما يفيدهم مادياً على الجانب الجمالي المجرد .

والاغنية لبدوي يصف حبيبته وصفاً انتزعه من جمال الطبيعة من حوله ، فأسنانها بيضاء تضئ كالبرق ، وحاجبها كأنما عليه قطرات من الندي ، اما العيون فلا يجد لها مثالاً الا (قلته واي) التي يغرد « البلوم » اي القمري حولها ، و « واي » اسم موضع في البادية اما « القلتة » فهي بقعة صغيرة في جبل او حجارة تتجمع فيها الماء - والقلات - جمع قلتة ، كلمة عربية فصيحة وردت كثيراً بهذا المعنى في الشعر العربي ، قال شاعر بدوي قديم يحب بلده ويقسم انه لو يستطيع لمنع ماء القلات ، في بلده هذا عن كل لئيم :

لو كنت املك منع مائك لم يذق مالي ، فلالك ، ما حييت لئيم

والبدوي الكباشي يقول واصفاً حبيبته :

يا ام فاطرا ضواي
يا ام حاجباً نداي
يا ام عيناً قلته واي
فوقها البلوم قوقاي

ومن مظاهر احساسهم بجمال الطبيعة هذه الاغنية لفتاة تصف حبيبها بفرع شجرة من السنط (الدباغ) لم تكبر بعد ، وقد بدأ زهرها (الشبش) زاهياً يجذب الانظار ، فهي تشبه نضرة شبابه وصباه بهذا الغصن الهش الذي يحمل (الشبش) أي الزهر ، وتؤكد له انها تحبه حباً صحيحاً لا زيف فيه « دون غش »

فرع الدباغ الهش
الشايل الشبش
بريدك ريد ما غش
يا ديف امات ربش

و« ديف أمات ربش » اي يا ابن الظباء النافرة .

وكيف لي أن انسي وانا اتحدث عن اغاني الكبابيش تينك الاغنيتين العذبتين اللتين سجلتهما في كتابي (ملامح) وقد هزتا شاعرنا الكبير محمد سعيد العباسي فصاغهما شعراً عربياً سلساً ... الاغنية الاولي لفتاة تتحدث الي العرافة (الختاتة) تسائلها ان تخبرها كيف حال حبيبها وقد سافر الي بلد بعيد وتعدها بأنها (ستكريهابي مجيدي) اي ستهب لها ريالاً مجيدياً والريال المجيدي كان هو العملة السائدة في غرب السودان ويساوي عشرين قرشاً ، تقول الاغنية :

ختاته ختي زيدي
بكريك بي مجيدي
شوفي لي حبيبي
في البلد البعيدي

وقال استاذنا العباسي :

عرافة العربي زيدي ومن نداي استزيزي
لكيف حال حبيب أمسى بقفر بعيد

والاغنية الثانية يخاطب فيها الفتي حبيبته قائلا : يا ذات اللون الاسمر والحديث

الحلو كالتمر ، اني تائه (دوار) ابحث عنك لعل يجمع الله شملي ؟

يا اب لونا سمري
واب حديثاً تمري
الدوار اني (انا)
يالله تجمع شملي !

وقال العباسي :

اللون لون الذهب والقول حلو الرطب
لي أرب في ذا الرشا فالله يقضي اربي

ولا أضع القلم قبل ان اذكر هذه الاغنية الرائعة التي تتحدث فيها الحبيبة الوالهة الى حبيبها ، يا طبق العطر ، اني احبك حباً صحيحاً صادقاً فهل جفوتني ؟ أصدقني ! « كلمني بالنصيحة » !

يا طبيق الريحة
الريدة ليك صحيحة
انت كان جافيت
كلمني بالنصيحة !

لقد استطعت ان انقل اليك ايها القارئ بعض كلمات الاغنية البدوية ، وحاولت جاهداً ان اقرب معانيها الحلوة الساذجة الى الاذهان ، ولكني ما زلت افتقد فيها - وانا ارويها - تلك الاصوات التي تهز المشاعر وترقص القلوب معها طرباً وهي تشدو بها في جذل ومرح ، وترقص على انغامها حيوية الشباب ونضرة الصبا وزهو الجمال .



[illegible] حول البئر

من مذكرات نيوبولد

أريد ان اقف قليلاً في هذه الذكريات عن بادية الكبابيش عندما كتبه السير دوجلاس نيوبولد في مذكراته التي طبعت بعد وفاته عن الشيخ علي التوم خاصة والكبابيش عامة ، وقد عمل نيوبولد في مستهل حياته العملية مفتشاً لدار الكبابيش ثم مديراً لمديرية كردفان ، وقد لقيته هناك في زيارته التي تحدث عنها في هذه الرسالة التي انشرها اليوم ، وكنت من مستقبليه كما ذكرت في مقال سابق .

ورسائل نيوبولد التي تحدث فيها عن علي التوم اليوم والكبابيش تكشف النقاب عن كثير ، وتعد مرجعاً تاريخياً هاماً .

الرسالة الاولي

كتب نيوبولد هذه الرسالة من حمرة الشيخ - عاصمة البدويين صيفاً - في ١٣ -١- ١٩٣٣ وقد بدأها بوصف موجز عن اسقبال علي التوم وأهله فقال :

ركب علي التوم واهله لملاقاتنا وقد صحبهم ثلاثون من الخياله ودخلنا حمرة الشيخ يحف بنا صفان من راكبي الجمال الذين يبلغ عددهم نحو المائة .

كان استعراضاً عربياً جميلاً مؤثراً تخللته ضربات التحاس وشهدته الجمال والخيول والكلاب في مضارب للخيام السوداء .

كان علي التوم - معفراً - ولكنه منشرح الصدر كالعادة وحسن الهندام . قد تحدثت معه منفرداً من الساعة الحادية عشرة حتى الثانية والنصف فذكر ان علاقاته مع الهواوير كانت حسنة وان - الميدوب - هادئون - والكواهلة - طيبون وقال ان الكواهلة والكبابيش يعيشون الآن بعلاقات احسن مما كانت عليه في اي وقت من الاوقات ، فهم يختلطون بصورة أفضل من اي وقت ... وقال ان محمد الصياح ملك الميدوب رجل طيب وله سلطان على قبيلته .

ثم التفت الى تطورات الادارة الاهلية في غرب كردفان ومركز بارا وقد استمع إلى علي التوم باحترام واوضح لي أن هذه السياسة لم تشرح له من قبل ، وقال ان رجال قبيلته يكرهون المناضد والكراسي وكتب المحاكم ... الخ تلك الاشياء التي يستخدمها

الاداريون السوفسطائيون !

قلت له ان هذه هي عادة أهل المدن ، ولكنه أصر على الطبيعة العربية الادارية وأمل ألا تسحب الحكومة مساعدتها له .

وقال لي علي التوم أنه لا يريد كساوى شرف أكثر مما نال ولكنه يحتاج الى إستمرار المساعدة الحكومية .

قلت له يجب ان تنشأ بيننا علاقات أوسع فأجاب بالطبع . لكن ليست علاقات خاصة أو عفوية بل يجب ان تكون منظمة ، قد وافقت علي ذلك . . .

الرسالةالثانية

وبعد ثلاثة ايام اي بتاريخ ١٦-١-١٩٣٣ كتب نيوبولد وهو ما يزال في حمرة الشيخ يصف في ايجاز ايضاً الغذاء الذي تناوله مع الشيخ علي في خيمته البدوية - وكنت من بين شهوده - وقد وصفته في مقال سابق وفي الرسالة إشارات إلى سلطان علي التوم ومحاولات الحد منها علي النحو الذي سأتناوله في التعليق علي هاتين الرسالتين :

« تغدينا مع علي التوم فراخاً جيداً وحملاً مشوياً وبصلاً وعصيدة وكانت كلها أطعمة نظيفة وحسنة .

وتحدثنا عن نفوذ النساء فقال ان هذا خطأ لا وجود له . . . وتحدثنا كذلك عن حوادث القتل التي تقع داخل الكبابيش وقد فوضت مساعد مفتش سودري (وكان يجب ان يكون هذا التفويض كتابياً) ان يسمح لعلي التوم بتسوية قضايا القتل بالدم أو بالنقود بدون توقيع عقوبة السجن على شرط ان يكون :

١ / كلا الطرفين من الكبابيش .

٢ / والا يكون الضحية عبداً .

٣ / والا تكون جريمة قتل عمد .

٤ / وان يكتب علي التوم محضراً للقضية باسماء المتخاصمين .

وان يرسل مندوباً موثوقاً منه ليمكن استجوابه . . ونمنا في الصحراء نحو ساعتين وكان ذلك جنوب الآبار بعد أن تفقدناها .

وكانت هذه بداية الزيارة الثانية ، فالسهل ما زال هناك ولكن تغطيه أشجار كثيفة ، وتضفي التلال على المكان فخارا وجلالا بقممها الصخرية التي تعلوها عشش خلايا النحل في جبال النوبة . . . » .

انتهت رسالتا نيوبولد . . . والرسالتان تجددان في نفسي ذكريات عذبة وتعيدان الي ذهني صورة ذلك الرجل المهيب علي التوم وهو يذود عن تقاليد اهله وعشيرته ويرفض

إدخال المحاكم الاهلية بصورتها المعهودة في ذلك العهد .

وكان علي التوم - شيخ عرب بكل ما لهذه الكلمة من معان ومن واجبات وحقوق ، وعندما جئت داره في اول عام ١٩٣١ ، كان مطلق السلطات في قبيلته يحتكمون اليه وحدها ولا يعرفون مركزاً حكومياً خلافه ، فاذا ما اصدر حكماً بالغرامة كانت له ، وان كان سجيناً ضم السجين الى عماله يطعمه ويسقيه من عنده ويطلب اليه اداء بعض الاعمال وأهمها سقي الابل في الصيف - وقد حاولت الحكومة عندما أسست نظام المحاكم الاهلية ان تدخل هذا النظام في الكبابيش ، فوقف الرجل سداً منيعاً . . . ونيوبولد في رسالته يذكر محاولته لارضائه ، وقد قبل ذلك بشرط الا يكون لها مظهر المدن من مناضد وكراسي وكتب ، ساخراً من كل ذلك ، مؤكداً ان طبيعة البدويين تنفر من هذا الوضع وقد قبل ان يسجل احكامه في دفاتر خاصة وأن يورد الغرامات لخزينة الحكومة ، على ألا يغير الاسلوب الذي درج عليه في نظر قضايا اهله .

لقد شهدته يجلس في مجلسه العام على عنقريب صغير وأهله من حوله يجلسون على الارض الرملية يستمعون كلهم الى قضايا المتخاصمين ويبدي كل رأيه كما يشاء ، وقد يحلو لأحد المتخاصمين ان يسر له بحديث لا يرضى ان يسمعه الآخرون ، فيأخذه من يده وينتزعه من مجلسه ليجلس به على الارض بعيداً عند ظل شجرة إن كان الوقت نهاراً ، أو في الفضاء الرحب إن كان مساء ويفضي اليه بكل ما عنده ثم يعودان معاً ليجلس كل منهما حيث كان .

وكانت قضايا القتل بين افراد القبيلة تحل عادة بدفع الدية من اهل القاتل لأهل القتيل بعد ان يحددها علي التوم في مجلسه ويبدو من رسالة نيوبولد انه وضع قدراً من القيد لم يمس الجوهر على هذا الوضع بل لقد شهدت بعض قضايا بين الكبابيش والقبائل المجاورة تحل عن طريق - الدية - بعد التراضي بين الطرفين .

وانظر الى نبل هذا الرجل ، والمدير يسائله عن رجال القبائل من حوله - ومنهم من لا يطيب له جواره لما يلقاه منه من ضيق في المرعي والماء - فيمتدحهم ويثني عليهم ، ولا يفتح له ثغرة يستغلها بوصفه مدير المديريه ، وانه لدرس أرجو أن يعيه الكثيرون .

ويرفض علي التوم في اباء وشمم اغراقه في مظاهر التكريم الرسمية ويقول انه قد نال ما يكفيه ولا يريد المزيد وذلك عندما تحدث اليه نيوبولد عن كساوى الشرف وغيرها ، ويصر الا تكون هناك علاقات خاصة او عفوية بينه وبين الحكومة وانها تكون منظمة وهو يرمي الى هدف بعيد الا يفاجأ بوضع للبادية لم يقره فهو يريد ان يكون الامر في يده وبمشورته اولاً . . .

وقد عجبت لنيوبولد يذكر في رسالته انه أكل فراخاً جهدة جدا على مائدة علي التوم ! وما اذكر قط ان حوت المائدة فراخا ، قل وان يعنى البدويون بتربية الدجاج وخاصة الأثرياء منهم الذين يتسابقون في الاكثار من الاهل .

ومازلت اذكر ونحن جلوس على الارض وقد بسط عليها السجاد في خباء علي التوم ونحن نأكل الثريد والشواء بأيدينا وأنا أرقب نيوبولد وزملاءه يمدون بأيديهم الى القصعة ويلتهمون الثريد او الشواء الذي جئ به من النار ساخناً على طريقة البدويين .

ليس لعلي التوم مطبخ وأوان عديدة كما هي في بيوت الأثرياء ، وانما كان يعيش كما يعيش البدويون من حوله ... وله خادم يدعى - الصافي - علمت انه ما يزال حياً يحسن اعداد الطعام البدوي ، ويمتاز بمعرفته لصنع « الرقاق » ويصب عليه المرق واللحم ، هذا بجانب (العصيدة) والملاح اللتين يجيد صنعهما ولا شئ سوى ذلك يحسنه من الطعام ولا تتطلب حياة الشيخ اكثر من هذا ...

اما أواني الطعام فهناك الجفان السود من الخشب وهي طابع المائدة الرئيسي ، وقد يقدم الثريد عندما يكون هناك ضيوف ممتازون على صحون كبيرة من - الطلس - ولم اشهد في البادية قط صحناً من الصيني - وهذا طبيعي لأن كثرة تجوالهم وبساطة حياتهم لا تجعلهم في حاجة اليه .

أشار نيوبولد اشارة عابره الى حديث دار في تلك الجلسة عن نفوذ نساء الكبابيش علي ازواجهن وقد نفى له علي التوم هذا الزعم ، مع ذلك فاني لم أر مثل البدوية في قوة شخصيتها ونفوذها على زوجها ، وربما كان مصدرهذا ان كثيراً من المسؤوليات تقع على عاتقها ،وكثيراً ما كنت اشعر في غشياني لبيوتهم مستأنساً بحرارة لقاء الزوجة ومبادرتها للترحيب متى كان الزائر معروفاً لدى الاسرة بل كثيراً ما رحبت المرأة بالضيف والزوج غائب فتكرم وفادته أحسن اكرام في نطاق استطاعتها وما تجود به الحياة البدوية من حولها .

ليل ونهار

انحدرت الشمس للمغيب وأخذت ظلالها الشاحبة تختفي رويداً رويداً والظلام يزحف نحو الحي وأخذت أرقب البدويين حولي كيف يستقبلون ليلهم حيث لا توجد وسائل الترفيه التي تعرفها المدينة من دور للسينما وأندية مختلفة ومقاهٍ عامة ، بل حيث لا توجد شوارع او أزقة او اسوار تخفي الناس وتستر بيوت الشعر المتناثرة في العراء في غير تنسيق او نظام يربط بينها فكل منهم وضع بيته حيث طاب له ان يضعه . . . قرب شجرة او في ربوة او عند منحني الوادي لا تطاول في البناء ولا تفاوت . . .فالناس جميعهم سواء في أزيائهم وبيوتهم وما يتناولون من طعام ، اتحدت مشاعرهم وطباعهم وعاداتهم ولا حجاب بينهم رجالاً ونساء .

وأدمت النظر للحي وهو يستقبل الليل . . . وعلى مدى البصر حيث تتناثر بيوت الشعر ، وضعت امام كل بيت كومة من الحطب أوقدت فيها النار ، ولا يوقد البدوي سراجاً داخل بيته قط ، انه يكتفي بهذه النار التي يوقدها امام البيت ليضيء داخله اضاءة خافتة هادئة . . . وترى الحي من بعيد والنيران تتقد امام كل بيت كأنما انتشرت النجوم خلاله تهدي السارين فلا يضلون الطريق نحو الحي .

ومن قديم كان البدويون يعتزون بهذه النار ويفخرون بها انها تهدي اليهم الضيوف ليطعموا ويشربوا ويواصلوا سيرهم ولهذا سموها نار الضيف .

وفي اشعار قدامى البدويين في البلاد العربية الكثيرة عن هذه النار لا يخطئها اولئك الذين عاشوا مع الشعراء العرب الذين هاموا بالبادية وخلدوها في اشعارهم ومن الذي لا يذكر - من قراء الأدب العربي - قصة الشاعر الاعشى ونار « المحلق » وقد خلدوها في قوله :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة	الى ضوء نار في البقاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها	وبات علي النار الندى والمحلق

وقد زوجت بنات المحلق . وكن عوانس بسبب هذه الأبيات . !

وقال اعرابي يسمى المرار الفقعسي يفخر بهذه النار :

آليت لا أخفي اذا الليل جنني ... سنى النار عن سار ولا متنور

فيا موقدي ناري ارفعاها لعلها ... تضئ لسار آخر الليل مقتر

اذا قال من أنتم ؟ ليعرف أهلها ... رفعت له بأسمي ولم اتنكر !

وماذا علينا ان يواجه نارنا ... كريم المحيا شاحب المتحسر

وشئ آخر بجانب هذه النيران الموقدة ، هذه الكلاب العاوية الضارية الكثيرة التي لا ينتقطع نباحها عن الاذان ابداً ، والبدويون يعنون بهذه الكلاب عناية فائقة ، ويستولدونها من سلالات عرفت بينهم بالضراوة وشدة الفتك ! . وهم يتحدثون عن أنسابها وانساب الخيول والابل في دقة مذهلة .

ولكل نسل من انسال هذه الكلاب خصيصة او خصائص يتميز بها ويكون التفاضل بين هذه السلالات بقدر ما تمتاز به من سرعة وضراوة .

والكلب في حياة البدوي ضرورة لازمة ، مثل الغذاء وكل ضرورياته الاخرى ، فهو يستعين به على الصيد الذي هو جزء هام من حياته ، وقل ان يمر عليه اسبوع ، او دونه ولا يقوم برحلة صيد تتبعه كلابه التى دربها على ذلك وأحب ايام الصيد عندهم عقب نزول المطر حيث يتعذر على الصيد ان يعدو بكل قوته فيسهل ان تبلغه الكلاب وهو يستعين بهذه الكلاب ايضاً في حراسة داره عندما يترك اهله وحدهم ويتبع ابله انتجاعاً للمرعى ، فلا يستطيع احد ان يقترب من الدار الا باذن من اهله وفي حراستهم حتى لا تنوشه كلاب الدار .

وكما تهدي النيران المتقده الى الحي ، كذلك تفعل هذه الاصوات التي لا تنقطع ابداً طوال الليل ، اعني نباح كلاب الحي الذي يسمع من بعيد ، وكما خلد شعراء العرب من قبل نيران أحيائهم بوصفها مرشداً للسارين ليغشوا دورهم ويكرموهم انشدوا ايضاً الشعر العذب يصورون فيه كيف يقود نباح كلابهم اولئك السارين - وكيف كانوا يهشون للقائهم ويقدمون لهم القرى . . . وكان من عاداتهم - اذا ضل احدهم الطريق بالليل - ان يقلد صوت الكلب حتي اذاما سمعته كلاب الحي تعالى نباحها فيتجه اليها ويهتدي الي الحي ويسمونه « المستنبح » . . . هكذا جاء في اشعارهم . كقول هذا الشاعر البدوي الذي يفخر بإيوائه احد هؤلاء السارين الذين ضلوا فهدتهم ناره وكلابه ، وانها لصورة ما تزال على قدم العهد حية باقية :

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... بشقراء مثل الفخر ذاك وقودها

فقلت له اهلاً وسهلاً ومرحباً   بموقد نار محمد من يرودها
فان شئت اثويناك في الحي مكرما   وان شئت ابلغناك ارضاً ترودها

واعرابي آخر يقول :

ومستنبح تهوي مساقط رأسه   الى كل شخص فهو للسمع أزور
يصفقه أنف من الريح بارد   ونكباء ليل من جمادى وصرصر
حبيب الى كلب الكريم مناخه   بغيض الى الكوماء والكلب يبصر
حضأت له ناري فأبصر ضوءها   وما كان لولا حضأة النار يبصر ...
دعته بغير اسم ، هلم الى القرى   فأسرع يبوع الارض والنار تزهر

ومن خير ما يصور هذا اللون من الحياة الذي عرفت به البادية من اقدم عهودها حتى اليوم - النار والكلاب وضيوف الليل يقطعون الفلوات على ظهور الإبل - ما جاء في قصيدة اعرابي من باهلة :

وداع دعا بعد الهدوء كأنما   يقاتل اهوال السرى وتقاتله
دعا يائساً شبه الجنون وما به   جنون ولكن كيد امر يحاوله
فلما سمعت الصوت ناديت نحوه   بصوت كريم الجد حلو شمائله
فأبرزت ناري ثم اثقبت ضوءها   واخرجت كلبي وهو في البيت داخله
فلما رآني كبر الله وحده   وبشر قلباً كان جماً بلابله
فقلت له اهلاً وسهلاً ومرحبا   رشدت ، ولم اقعد إليه اسائله
وقمت الى برك هجان اعده   لوجبة حق نازل انا فاعله

ومما ينشدون مفاخرين قولهم :

وما يك فيَّ من عيب فاني   جبان الكلب مهزول الفصيل

وهو ذم اريد به المدح ، فجبان الكلب تعني ان كلبه قد انس للضيوف لكثرة ما ترددوا عليه فلم يعد ينبحهم وينوشهم - ومهزول الفصيل يعني بذلك انه يحلب لبن نوقه للضيوف ولا يترك للفصيل ما يرضعه فيهزل جسمه .

ومن طرائف ما روي ، ان الشاعر عبد الله بن مصعب لقب « بعائد الكلب » وذلك بقوله :

مالي مرضت فلم يعدني عائد   منكم ، ويمرض كلبكم فاعود !

وهو عتاب حبيب موله يغفر لأحبائه ان لم يعودوه في مرضه ، وهو يعود كلبهم اذا مسه داء ! .

والبدويون قل ان يناموا بالليل ، وخاصة الشبان منهم ، فانك تسمع تحركات ارجلهم

تجوب الحي والكلاب في اثرهم وهم لا يكترثون لها . ومن العيب الفاضح عندهم ان يبدي الرجل خوفا او انزعاجا من هجوم الكلاب عليه ، بل عليه ان يسير قدما دون ان ينظر خلفه اليها وهي تعدو في اثره تبلغ قيد خطوة منه تعوي في شراسة وتحفز للنهش ! .

ولكن يظل في سيرة هادئاً دون التفات ، والا كان موضع سخرية الفتيات خاصة وقد يضعن له اغنية ساخرة لا يستطيع بعدها ان يطوف بالحي ! ولهذا كان يطيب لهن ان تحيط الكلاب الضارية بأحد الشبان وتطل رؤسهن من كل بيت باسمات متهللات ليرين كيف يخرج من هذا المأزق ! ... ولكم لقيت الأمرين من مثل هذه المواقف كلما طفت بالحي نهاراً ، اما في الليل فقد كان ذلك مستحيلاً ! ...

ولكم ذكرت شاعر العربية الفذ أبا الطيب المتنبي . يصف زوراته التي هي ادهى من زورة الذئب الى حبيبته في البادية بين الاعراب والليل يشفع له ويستره فلا يراه احد وينثني وبياض الصبح يغري به ويكاد يفضحه فيقول :

كم زروة لك في الاعراب خافية
أدهى وقد رقدوا من زورة الذئب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يغري بي .

رحم الله المتنبي وغفر له ، فلعل بدوياته الرعابيب لم يكن مخفورات بمثل هذه الذئاب الضارية التي تنهش العراقيب والافخاذ ! .

ولا تحسبن الليل في البادية كلاباً تعوي ونيراناً تتقد ، فللبدويين لهو هم وسمرهم ، انه الغناء والرقص ، وما أروعه في الليالي المقمرة ونسيم البادية يسري رخاء فيضاعف من النشوة والبهجة .

انظر الي الفتيات يخرجن على موعد من هنا وهناك ، حيث تنطلق أصواتهن مغردة تغريد البلابل في غناء وشدو يخف لسماعه الشبان من كل جانب وسرعان ما تتكون منهن حلقة الرقص التي قد تستمر الي قرب مطلع الفجر .

ولا تسل ما مناسبة هذا الغناء والرقص ؟ فالبدويون ليسوا في حاجة لمناسبة خاصة لكي يتجمع شبابهم ليغني ويرقص ، فقد يدعوهم لذلك جمال الليل المقمر ، او مجرد رغبة عابرة من بضع فتيات او فتية ... وقد تكون اوبة لبعض الرعاة من المراعي البعيدة

... فالغناء عندهم شئ طبيعي في حياتهم ، كالطعام ، والشراب ولا حياء فيه ! ... فالرجل يغني ملء حنجرته ... قد يكون شيخاً هرماً وهو على ظهر بعير يقطع الفلاة ، او خلف ابله ، او وهو يستقي من منهل او بئر او مع رفاقه في حلقة انس ... الخ .

والفتاة تغني ملء حنجرتها وهي تجني من الشجر بعض الثمار التي تعنيها في حياتها المنزلية ، وتغني وهي سائرة نحو المنهل على ظهر حمار « الراوية » اوالجمل ! .

وتغني وهي خلف اغنامها متجهة نحو المرعى القريب من الحي - ان اصوات الغناء الحلوة العذبة لا تنقطع من اذني قط ليلاً او نهاراً ... والغناء يمثل جميع ألوان حياتهم الاجتماعية المحدودة ، فالفتاة تغني معبرة عن حبها وتصف من تحب بالشجاعة والنخوة والغنى ، والغنى يتمثل في كثرة ما يملك من الابل ...

والفتى يغني معبراً عن حبه واصفاً فتاته بالجمال والعفة والتفوق عن سائر الفتيات ويزهو ويفخر بشجاعته وكيف يجوب الفلوات مع ابله ويرتاد بها اصعب المسالك ... وستكون لنا وقفة مع هذه الاغاني فنفرد لها حديثاً خاصاً ... وتشرق الشمس بعد ان نودع الليل بنيرانه وكلابه ورقصه وغنائه وعبث سماره ، وتدب الحياة من جديد في الحي ولا يبقى من صور الليل إلا هذه الكلاب التي يخيل إليك انها تفوق الانسان عدا ، لا ينقطع عنك نباحها ولا وجوهها التي تشبه الثعالب بألوانها المختلفة فهي تطالعك اينما اتجهت .

وبشروق الشمس تدب حياة جديدة ويتناول البدويون عادة وجبة الافطار والشاي الاسود قبل الشروق احياناً او عند الشروق اذا تأخروا . ثم يخرجون زرافات لأداء اعمالهم اليومية القليلة والتي يقوم النساء بأكثرها - ويجتمع الرجال في البيت الكبير - الذي خصصه الشيخ علي التوم لاجتماعاتهم اليومية العامة وهو أشبه بدار المحكمة المفتوحة ، وهي محكمة يعتبر كل حاضر من الناس عضواً فيها يشارك بالرأي ويبدي ما يريد من القول .

وفي هذه الاجتماعات يتحدثون عن كل شئ يتصل بحياتهم مثل أنباء المراعي وقصص العائدين من اسواق المدن وكيف باعوا بهائمهم ، وينضم اليهم خلال النهار ذوو الحاجات الذين يقصدون الشيخ من احياء اخرى بعيده يحملون بجانب مشاكلهم انباء الحياة من حولهم ويقصون كل شئ علي الشيخ والمجتمعين حتى ما يبدو تافهاً لكنه جدير عندهم بأن يسمعه الشيخ ليلم به .

واظرف ما يحدث في اجتماعات النهار هذه تحرش اصحاب الخيول المعروفة بسرعة العدو او اصحاب الجمال ذات الشهرة في قوة الاحتمال والسرعة ببعضهم ، ولا بد من

ان ينتهي هذا العحرض الى سباق جديد يجرونه في الحال ويحدد له مكان الابتداء الذي يجتهد كل من المتسابقين في ان يكون بعيداً تعجيزاً للآخرين اما نهاية السباق فهي عادة عند البيت الكبير في مقدمة الحي . وما يكاد يخرج المتسابقون على خيولهم ليبدأوا السباق حتى ترى منظراً عجيباً فالحي كله يمور بالحركة ، وتخرج النساء والاطفال والرجال يقفون في اماكن مختلفة تمكنهم من مشاهدة السباق ، ويعتلي بعض الصبيه فروع الاشجار العالية لتمكنهم من رؤية المتسابقين عن بعد ، وبعض الرجال لا يكتفي بالوقوف بل يمتطون خيولهم أو جمالهم ليرافقوا المتسابقين من اماكن مختلفة وليكونوا شهوداً صادقين علي السباق خطوة خطوة ، كيف بدأ وأي الخيول كان في المقدمة ، وأيها في المؤخرة ثم كيف وأين تقدم هذا وتأخر ذاك وهكذا حتى يبلغ السباق مداه ، وعندما يقترب المتسابقون من البيت الكبير يخرج الشيخ من مجلسه ومعه كل مجالسيه ليستقبلوا الفائز حتى اذا ما بلغهم تعالت ضجة الرجال استحساناً ، وانبعثت زغاريد النساء عاليه تحييه ، والفائز « يبشر » بكلتا يديه مزهواً بالنصر ولا تكاد الارض تسعه لفرط اغتباطه ، ورفاقه يحيطون به في ضجة من الفرح والزهو .

وفي الليل عندما تبدأ حلبة الرقص ، من الجائز ان تسمع من الفتيات اغنية جديدة وضعت تكريماً لهذا الفائز في السباق وخاصة اذا كان من رجال الحي ذوي النفوذ والسلطان ! .

وأغاني الفتيات تتعرض في أكثر الاحايين الى تصوير وتسجيل احداث الحي الهامة فهي اشبه بالصحافة اليومية غير ان هذه تسجل الاحداث الهامة نثراً وأولئك يسجلنها غناء وشدواً . . . واعذب اغانيهن واوقعها عند الشبان ما يصور التنافس بينهم في مثل هذه المجالات ، فان الذين هزموا في السباق مثلاً استمعوا لأغاني النصر تنبعث من الفتيات تهنئة للفائز ، لن يرضيهم الا ان يدفعوا الفائز لاعادة السباق اكثر من مرة حتى ينال النصر فارس آخر ، وهكذا دواليك ويعيش الحي اياماً على قصة السباق يروي تفاصيلها ويتحدث عن اصول الخيول المتسابقة وقد يجترون ذكريات سباقات جرت بين آباء هذه الخيول المتسابقة وكيف ورث هذا او ذاك عن ابيه كذا وكذا من محاسن الخيول .

وكنت اقرأ في التاريخ عن حرب داحس والغبراء التي نجمت عن سباق كهذا وظلت عهداً طويلاً تزهق فيها الارواح وتراق الدماء ويذكي أوارها الشعراء وكنت أشك في كل ما أقرأ ، وأستبعد ان يقود سباق بين الخيل الى حرب قاسية يتطاحن فيها الفرسان وتراق الدماء أمداً طويلاً . . . حتى شهدت كيف يحتفي البدويون بهذه السباقات وكيف تؤثر في مشاعرهم وكيف تفعل اغنيات الفتيات في نفوسهم اضعاف ما كان يفعله شعر الشعراء قديماً ، ولولا ما بينهم من أواصر القربى ، واختلاف الحياة اليوم عن حياة البدويين

في عهد داحس والغبراء لسالت الدماء انهارا عقب كل سباق ! .

يا لي من هذه الذكريات العذاب ، قد مضى ذلك العهد الحبيب فلكم سحرني ليل البادية الساجي وغناء الفتيات الذي يهز مشاعري ودبيب الفتية في الظلام يلتمسون لحظات من الحب البرئ وغير البرئ والكلاب تعوي حولهم في عنف وشراسة وتطاردهم في ضراوةثم يصبحون بقصص يضجون لها بالضحك في براءة وسماحة نفس



الغفل وأخواتها

كلما هممت بالحديث عن المرأة في الكبابيش ومكانتها في ذلك المجتمع البدوي برزت امامي صورتان انطبعتا في اعماق قلبي ، رأيت من خلالهما الفتاة والمرأة في البادية علي طبيعتها دون تزييف .

الصورة الاولي لفتاة اسمها (الغفل) . والغفل كلمة عربية فصحى ، تطلق على كل ما ليس له علامة مميزة ، وللغفل هذه حظ من اسمها ، فقد ترك وجهها دون تخديد (شلوخ) فكان وجهاً طبيعياً كما خلقه الله جميلاً الى حد الروعة . لقيتها أول مرة في اشهر الصيف ، وهي أشق الشهور بالنسبة للبدويين ، إذ يضطرون الى السكني حول الأبار يستقون منها ويسقون بهائمهم ، ويعتبر يوم سقيا الابل من أشق الايام واعسرها على الاسرة فهي تقضي الليل بطوله بجانب البئر ، ينشلون الماء ليملأوا الاحواض التي تسقى منها الابل ، والصبية والفتيات يعاونون في تلك العملية الشاقة ، كل بالقدر الذي حدد له .

ومن عادتي أن ازور الآبار في كثير من الامسيات لأشهد صوراً من حياة البدويين ذات طابع خاص حول هذه الآبار ... ورأيتها هناك ، حسناء فارعة لفت الثوب وحزمته حول خصرها وجانب كتفيها حتى لا يشغلها عن واجبها . وهي تدور هنا وهناك حول إبل الاسرة وقد برز صدرها نصف عار ، وتركت نهديها يمرحان في حرية . كانت تدور حول الابل ، تدني بعضها من حوض السقي ، وتمنع بعضها خشية التزاحم ، فهي دائبة الحركة بادية النشاط وعلى وجهها ويديها وعنقها غبار لم تكلف نفسها بازالته ، وكيف تستطيع ، وكل ما حول البئر غبار متصل تثيره الابل ،وحول البئر فتيه وفتيات ، وكلهم مثلها يؤدون ما تؤدي من عون لأهلهم وهم يستقون ، وانطبعت صورتها الحية في ذهني ...

وبعد فترة قصيرة ، هل عيد الاضحى ، وكعادة البدويين فان أول مظاهر احتفائهم بالعيد اهمها حلقات الرقص التي يعقدونها في مختلف الاحياء ويتحلق حولها الفتية والفتيات ، والكهول والشيوخ يأخذون حظهم من هذا اللهوالبرئ والمرح العذب . وفي إحدى هذه الحلقات وكان أصدقائي من البدويين يحرصون على ان ارافقهم لأشاهدها

معهم ، رأيتها بالغة انيقة ، تحلت بثوب جديد ذي لون صارخ ، والبدويات يكرهن الالوان الهادئة ، ولبست بعض الحلي اتماماً لزينتها ، وتوسطت الحلبة ترقص وفي يدها سوط تثنيه وتتأود . ! وتلك أول مرة أري فتاة ترقص وفي يدها سوط . ويقولون ان هذا لا تقدم عليه الا البارعة المفتنة في الرقص ! .

ومضت ايام غير قليلة ، وكان من عادتي أن اصحب الصديق محمد الكامل بخيت احياناً في جولة حول الاحياء للترفيه ، وهو شاب كان يعمل كاتباً عند الشيخ علي التوم وكان اثيراً عنده ، زوجه احدى بنات بني عمومته ، واندمج الشاب معهم حتي صار « كباشياً » في كل شئ ، وقد سره مقدمي الى البادية اذ رأى في وجودي بجانبه صورة من حياته الاولى التي افتقدها في البادية ، وتوثقت بيننا الفة قوية فكنا قل ان نفترق .

كنا نخرج للصيد على الخيل احياناً وبالجمال احياناً أخر ، ولم يكن يهمنا كثيراً اصبنا صيداً أم لم نصب ، فقد كان في تجوالنا بين الاودية والكثبان راحة ومتعة ، ولما نلقى من الاعراب المنبثين خلالها من صور لطيفة ترتاح لها النفس .

وفجأة ونحن نعلو كثيباً أغبر ، برزت لنا فتاة على جمل (أصهب) وقد احست بنا فتوقفت عن السير لتري من القادم . وللبدويين فضول عجيب في تسنم الاخبار والتعرف الى كل جديد حولهم . وعرفنا الفتاة ، انها الغفل ، لفت ثوبها على خصرها في احكام وتركت رأسها وعنقها وجانباً من صدرها دون دثار .

ونهداها يمرحان في حرية فهي لا تلبس قميصاً كأكثر البدويات ، وسال شعرها علي سالفتيها ، وامتدت ساقاها السمراوتان المكتنزتان على عنق البعير والتفتا متعانقتين . . . وفي يدها اليسري رسن الجمل وفي اليمني سوط ، ليس للرقص هذه المرة وانما لتحمل به الجمل ليغذ بها السير .

وعجبت ماذا تريد في هذا المكان منفردة ؟ وسألها صديقي بعد ان حياها عن وجهتها ، وكان بطبيعة حياته الطويلة بينهم ، يعرف أهلها وهي ايضاً تعرفه - وأجابت بعد ان ردت التحية . . . ضل بعير أهلي وأنا أبحث عنه . قالت هذا في بساطة ويسر - ونظرت اليها ملياً ، وانا أعجب في نفسي لفتاة دون العشرين تؤدي كل هذه المهام ، فهي بالامس حول البئر تعاون في سقي الابل وتعدو حولها هنا وهناك ، مغبرة لاهثة - وهي الان وحيدة في هذا القفر تبحث عن بعير ضال . . . وهي في ساعات المرح راقصة بارعة تحتفي بجمالها وتجلوه لتأسر قلوب الشبان من حولها ، وهي امامي الآن فتاة اقرب الى الفتى شدة مراس وبأس لا تخشى الوحدة في القفر فتجوبه منفردة .

وكانت هي تنظر الي كغريب لا يشبه أهلها ولا مجتمعها ، ولعلها انكرت علي

ركوب الجمل وشككت في مقدرتي على ذلك . !
فقد سألتني في إبتسامة ما كرة ، أتحسن ركوب الجمال ؟ وضحك رفيقي وهو ينظر الي ويقول . . . أتسابقها ؟ .
وظللت صامتا لحظات وسمعتها تقول : لنتسابق الثلاثة !
وتهيأنا للسباق ، واشرنا الى مكان النهاية ووقفنا ثلاثتنا عند خط الابتداء كما اتفقنا عليه وانطلقنا ، ومرقت كالبرق الخاطف من بيننا ، وأشرت الي صديقي بعد مسافة قصيرة ان نتوقف ونتركها وحدها . . . ولم تلتفت هي للخلف ، فقد كان جل همها ان تسبق ، وأن تثبت تفوقها على هذا الدخيل على حياة البادية ، فتشبع غرورها وإستعلاءها ، وكانت تعدو بسرعة لم أشهد لها مثيلا حتى اوشكت أن تغيب عن أبصارنا ، ثم توقفت والتفتت الينا لتجدنا بعيداً عند نقطة الابتداء ، فلوحت بسوطها في فرحة المنتصر ثم انطلقت كالسهم وابتلعها القفر بكثبانه ووديانه تلتمس البعير الضال .
لقد أرتني الغفل صورة حية للفتاة البدوية ، صورة ما زالت تعيش في اعماق نفسي زاهية براقة .
والصورة الثانية التي لن أنساها ما حييت ، والتي اكدت لي مدى شجاعة البدوية وقوة احتمالها وأثر التقاليد عليها ، كانت إمرأة تعاني عسراً في الولادة وكان خباؤها قريباً من خيمتي ، بحكم هذا الجوار عرفتها وعرفت أهلها ، فحياة البدويين الطليقة لا تعرف الحواجز الاجتماعية بين الرجال والنساء وذات يوم أيقظني زوجها من النوم ليقول لي في أسى أن فلانه - ويعني زوجته تعاني منذ ايام عسراً في الولادة وتتألم ألماً شديداً ، ورجاني ان كنت املك شيئاً من الدواء يخفف عنها بعض ما تعاني .
وكنت املك صندوقاً صغيراً به بعض الادوية اعتادت مصلحة المعارف ان تزود به المدارس البعيدة عن المستشفيات والشفخانات ، وكان لا يحمل غير بعض المراهم ، وحبوب الكينا وقطرة للعيون . . .وكان هذا الصندوق اذا خلا مما به نرسله لأقرب مستشفى ليملأ من جديد ، ولكنني كنت استفيد من المساعد الطبي لمركز سودري عندما يقوم بزيارته السنوية التقليدية للبادية فيزودني بالكثير مما يسهل عليَّ الانتفاع به .
وقد اعتدت ان أعالج بعض الحالالات الخفيفة لتلامذتي وأهلهم ، كالجروح والتهابات العيون . . . ولهذا فقد ظن صاحبي أني أملك لتلك المعذبة التي تعاني عسر الولادة ما يعينها ، ولو كنت أملك شيئاً لما ترددت ، وكان أقصى ما استطعت ان افعله ان اعطيه حبتين من الحبوب المسكنة للصداع ، من فصيلة الاسبرين وهي كل ما عندي فاخذها

وخرج شاكراً ، وظن انه حصل على شئ ذي نفع . !

وظلت المرأة اياما معذبة مؤرقة ، والنساء من اهلها يحطن بها ساهرات بجانبها وزوجها يغدو ويروح في قلق عليها ، كل هذا وانا لااسمع من خبائها صيحة ألم واحدة ... ولا ترتفع لها أنة يسمعها من هو خارج الخباء على قيد أذرع ... كانت تتعذب في صمت .

وعجبت لهذه الشجاعة الخارقة وتذكرت النساء عندنا ، كيف يملأن الجو صراخا في مثل هذه الحالات ، بل فيما هو اقل منها ألماً حتى ولو كان الوضع سهلاً دون عسر ، وكنت أوالي السؤال عن تلك المرأة اشفاقاً وحزناً على مأساتها وهي تعاني ما تعاني بعيدة عن عون الطب ، حتي سمعت ضحوة يوم صوت الزغاريد يرتفع عالياً من داخل الخباء ، فعلمت ان الله كشف عنها الضر ووهبها غلاماً اذ ان الكبابيش كسائر السودانيين - لا ترتفع زغاريد نسائهم الا اذا كان المولود ذكراً - وخف أصدقاء زوجها وفي ايدي اكثرهم « البنادق » يطلقون رصاصها فرحاً وابتهاجاً في مثل هذه المناسبات .

وسألت من حولي من البدويين ، كيف تعاني المرأة ما تعاني من آلام الولادة ولا ينداها صوت ولا تسمع لها أنة ألم ؟ فقالوا انه من العار عندهم ان يرتفع صوت المرأة مهما عانت من آلام الولادة ، فان ذلك يؤذي أباها واخوتها واهلها ويجلب لهم العار بين اهل الحي ، فهي حفاظاً على كرامة اهلها واتباعها لما سار عليه مجتمعها لا يرتفع صوتها بصراخ أو أنين مهما اشتدت عليها آلام الطلق !

ترى أيمكن للمرأة عندنا ان تكون في مثل شجاعة اختها البدوية فلا يرتفع صوتها مولولاً جازعاً يبلغ أبعد الآذان كلما جاءها ألم المخاض ؟ .

لقد اهدتني جارتي البدوية وهي تلد طفلها في صمت وشجاعة خارقة رغم ما كانت تعاني من حالة العسر التي اسهرتها عدة ليال ، أهدتني درساً في الشجاعة لا أنساه ، وانا اهديه بدوري لفتياتنا المتعلمات المتطلعات الى مجتمع نسائي جديد .

وظاهرة بدوية اخرى اهديها لهن ، ذلك اني لم اجد بين سائر البدويات من تعرف (الزار) او سمعت به .

وكنت حريصاً لاعرف هل لهذا الداء الاجتماعي مكان بين البدويات وعشت اربع سنوات بين البدويين ابحث وانقب وارصد ، ولم اسمع ان فتاة او امرأة مرضت بالزار ، بل ولا وجود اطلاقاً في كل البادية لمحترفات قرع طبول الزارواعداد حفلاتة فالمرأة البدوية في عافية نفسية كفتها شر الزار ، فهي تعيش في حياة اجتماعية غير معقدة تجد فيها حريتها وشخصيتها الواضحة .

والعنوسة بين البدويات امر نادر الحدوث ، حتى الدميمات منهن يجدن من يتزوجهن

، ذلك لان الزواج سهل ميسور ، ولان الفتيان يتسابقون اليه في سن مبكرة ويندر بينهم من يتخطى الحلقة الثالثة ، دون ان يتزوج ، بل ان الكثير منهم يتزوج دون العشرين .

شئ واحد احسست فيه بغبن للمرأة وخروج على قواعد الشريعة ، ولكني عندما بحثته وتتبعت اصوله وجدته من عادة اجتماعية مستحكمة لها مبرراتها ذلك الشئ هو حرمان المرأة من الإرث - والمرأة البدوية نفسها اول من يحترم هذه العادة ويرعاها - فإذا مات الاب مثلاً ورث ابناؤه الذكور كل ما لديه من الإبل وهي مصدر الثروة الاساسي عندهم - اما البنات فيخصص لكل منهن جمل واحد تحمل عليه هودجها عندما يترحلون من موضع لآخر ، فاذا مات الجمل او مرض او عافته لسبب ما ، استبدل بآخر ، على ان يقوم اخوتها باستجابة كل مطالبها الاخرى مما يكفل لها العيش . . .

اما ان يكون لها ارث من ثروة ابيها فذلك ما لا سبيل اليه .

فالبدوية تأنف ان تقاسم اخوتها الذكور ما خلّف ابوها من ابل وترى ان تعيش في اكنافهم كما كانت عند والدها .

ربما مرد هذه العادة الى ما تستوجبه رعاية الابل والحفاظ عليها من مشاق لا تقوى عليها المرأة ، لذا ترك امرها للرجال فهم اقدر على التنقل بها من مرعى الى آخر بين الصحارى ، والتعرض للاخطار الجسام من جراء هذا التنقل اذ كثيراً ما يسطو عليهم قطاع الطرق او المغيرون من رجال القبائل الاخرى التي تنافسهم في مناطق المرعى وتدور رحي معارك دموية يسقط فيها كثير منهم صرعى الرصاص أو السيوف .

فالهجوم على الابل لأخذها عنوة لا يعد في بعض مجتمعات تلك المناطق سرقة اولصوصية تستدعي الاحتقار ، بل عمل بطولي يدل على الشجاعة وتتغنى به النساء ويفخر به الرجال .

واذكر وانا في الكبابيش في مستهل الثلاثينيات ان حكومة السودان اضطرت الى انشاء نقطة بوليس حول بئر في طريق الاربعين الصحرواي المعروف وذلك منعاً لحوادث النهب التي كانت تقوم بها بعض القبائل المتاخمة لحدودنا من الغرب وكانت تدور في هذا المكان معارك دموية بالرصاص بين المغيرين والبدويين ، وينهب فيها المنتصر ابل المهزومين .

هذه الاخطار التي يتعرض لها رعاة الابل منذ عهد بعيد هي مبعث هذه العادة ، الا ترث المرأة ، وان يترك للرجال وحدهم حق التصرف في الارث لأن المرأة لا تستطيع ان تحمي هذا الارث من الضياع والنهب .

فالى (الغفل) التي اهدتني صورة الفتاة البدوية الحسناء التي تبني مجتمعها في

شجاعة . . . والى جارتي التي اهدتني اروع صور الأمومة الباسلة ، اليهما على البعد اهدي تحية قلب لا يخلب وجبه حبيباً . . .



الغفل واخواتها

الأسر يظهر في شيئين رونقه

كنت أعجب لأبي العلا المعري ، الذي أحب بغداد فتمنى ان (يغنى دجلة بالجزع) شوقاً . وان إماء بغداد افصح عنده من البدويات الرعابيب ، وقد جاء ذلك في قصيدته المشهورة :

نبي من الغربان ليس بذي شرع ينبئنا ان الشعوب الى صدع

كنت أعجب له ان يفتن ببيوت البدويين التي يقيمونها من الشعر (بفتح الشين) فيقول ان الحسن لا يظهر رونقه الا في بيت من الشعر (بكسر الشين) او بيت من الشعر (بفتح الشين) .

والحسن يظهر في شيئين رونقة بيت من الشعر أو بيت من الشعر

وجئت البادية ، وشهدت بيوت الشعر بين الكثبان والوديان ، شهدتها في زينتها البسيطة الساذجة فأسرتني وبهرتني .

لست أنسي يوم ان دخلت لأول مرة بيتاً بدوياً وتأملت زينته وبساطته ، ففي وسط البيت ، سرير واحد من الجريد قوائمه من عيدان الشجر بغير تشذيب او تهذيب الا بالقدر الذي يجعلها صالحة لحمل السرير ، وليس على هذا السرير فرش مما عرفنا او الفنا ، وانما تتدلى عليه من جانب البيت جلود بمثابة السجاد تغطي السرير كله ، وهي من جلود البقر ، تم دبغها محلياً (بالقرض) ، ويسمونها (الهدب) بكسر الهاء وفتح الدال ، وعلى جانب السرير تقبع حشية او حشيتان من الجلد ايضاً تم حشوها بنبات هش طيب الرائحة وعلى هذا السرير الواحد تنام الاسرة كلها ، وقد ينام معها ايضا ضيف عزيز اذالم يكن من بد ، والا فللضيف فروة من الجلد يفترشها على الارض . . . وقد تجد في بعض البيوت سريراً صغيراً اخر للضيف او لمن كبر من ابناء الاسرة .

وافتنت المرأة في تجميل جوانب خبائها بألوان من الجلد ، صنع بعضها سيوراً رقيقة رصعت بالودع ، وبعضها قطع مثلثات او مربعات على شكل أهلة ودوائر ومثلثات من الودع او القصدير او هما معا .

وترى في جانب اخر شيئا مضفورا بالسعف على هيئة هرم صغير ثبت في أعلاه قدر

من ريش النعام .

وأينما اتجهت لجانب من جوانب البيت رأيت زينة لطيفة ساذجة ، كلها من صنع المرأة البدوية وحدها ، فلا أثر ليد نجار او بناء او حداد ! . والبدوية تحب هذا البيت حبا يملك عليها اقطار نفسها ، ولا ترى له مثيلا ،ولكم من مرة سخرت مني عندما يجرنا الحديث الى المدن وبيوتها ، فكن يقلن في سذاجة محببة ... ويحكم ! - ألا يؤذيكم ان تسكنوا في مكان واحد طوال حياتكم ؟ ! .

ذلك لأن البدويين لا يسكنون في مكان واحد من الارض ، فهم اذا ما أحسوا بالضيق من مكان ما او استنفد اغراضه ، كأن شح ماؤه او نفد كلؤه ، هبوا سراعاً وحملوا بيوتهم علي ظهور الجمال وانتجعوا مكاناً ممرعاً ، واكثر ما يضيق به البدويون ان يمكثوا في مكان واحد أمداً طويلاً .

ولهذا فهم لا يتصورون اطلاقاً كيف يطيق الناس في المدن السكنى في قطعة واحدة من الارض ولا ينتقلون منها ابداً ... ويزداد عجبهم واستنكارهم عندما يشيرون الى (ناس المدن) بأنهم يقضون الحاجة داخل منازلهم الامر الذي لا يفعله البدويون ابداً ، فهم يقضون الحاجة نساء ورجالاً في الخلاء بعيداً عن منازلهم .

ولعل حب البدوية لبيتها مبعثه انها هي التي صنعته كله بيديها ، فهي التي دبغت الجلود وقصتها وزينتها بالريش والودع والقصدير ، وعلقت في بعضها اجراساً مختلفة الاحجام لها أهمية بالغة عندما يحين يوم الرحيل ، اذ تجمل هودجها بأكثر ما هو عالق بجوانب الخباء وفي اولها هذه الاجراس .

وهي التي صنعت (الشملة) او الشمال التي يتكون البيت منها ومن وبر إبلها .

ولقد ذكرني ولع البدوية ببيتها واعتدادها به قصة الاعرابية الحسناء التي قيل ان معاوية فتن بها وتزوجها لكنها كرهت قصور الامارة ، وطعام المدينة الرقيق ، وحنت الى بيتها البدوي ، وطعامها الخشن الجاف ، فطلقها ، وعادت الى اهلها وهي تنشد :

لبيت تخفق الارياح فيه	أحب اليَّ من قصر منيف
وكلب ينبح الطراق دوني	أحب اليَّ من قط أليف
ولبس عباد وتقر عيني	أحب اليَّ من لبس الشفوف
وأكل كسيرة في عقر داري	أحب اليَّ من أكل الرغيف

والقصيدة طويلة يعرفها قراء الادب العربي القديم وترويها كتب ادبية كثيرة .

وفي هذا البيت الواحد تجتمع الاسرة وضيوفها يتناولون طعاماً واحداً او يشربون الشاي الاسود الذي يولعون به ولعاً شديدا . ولن تجد أثراً للقهوة بينهم بل أكاد اجزم ان

كثيراً من البدويات لم يشهدن «البن» في حياتهن ... وحسناً فعلن ! . وليس من الاكرام عندهم ان تعزم الرجل على تناول الشاي مثلاً متى كان هذا الشاي أمامك تشرب منه ، بل عليك ان تكرمه بصنع شاي جديد ، انهم يسمون ما يقدم من اكرام لم يخصوا به - الصدف - أي انه إكرام جاء بالصدفة ولم يقصدوا به ، وهم يكرهون هذا ويعيبون به الرجل .

وبيت البدوي تكاد تكون أكثر مسمياته عربية خالصة ، فهذه (عمد) البيت التي يقف عليها ، وتلك (الحبال) التي يشد بها علي الارض يسمونها « الطنائب » وواحدتها طنيبة وهي كلمة عربية فصيحة ، تذكرني ببيت المتنبي المعروف :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طنبا

وعندما وصلت البادية اول مرة - كان ذلك في فصل الصيف أقسى الفصول وأبغضها لديهم ويسمونه فصل (الدمر) اذ يضطرون للبقاء شهوراً بجانب الآبار ، فوجدتهم في لهفة وشوق لفصل الخريف حيث تبدأ رحلاتهم حول موارد الماء المعروقة لديهم هي أحب الرحلات الى قلوبهم .

وكنت اشد ما اكون شوقاً لكي اشهد جانباً من هذه الرحلات التي كانوا يغالون في تصوير متعتها وبهجتها ، وما كادت علائم الخريف تبدو في الافق واطل « الرشاش » ، كما نسميه لطيفاً منعشاً ،وظهرت في السماء سحب الخريف الاول التي يسمونا (ام بشار) حتي تأهب البدويون للرحيل ، وتغنت الفتيات في حلقات الرقص يستقبلن الخريف بقولهن :

من طيرة ام بشار
جاني السلف قطار
اتلموا يا عمار
فرق الموالف حار

اي منذ بداية تباشير الخريف تظهر ، جاءني (السلف) اي ركب جماعة من الشبان في طريقهم الى مناحي الرعي المختلفة ، وهي تهيب بهم ان يتجمعوا في مكان واحد حتى لا تتعذب بفراق من تحب (فرق الموالف حار) .

وجاء يوم الرحيل ، وقبل شروق الشمس دوى صوت النقارة عالياً مؤذناً بتقويض البيوت وشد الرحال ... وخرجت من خيمتي أشهد الحي وقد تجمع الرجال والنساء كل حول بيته يقتطع اوتاده ويقوضه ، والجمال حولهم متأهبة لحمل البيوت والعتاد .. وقد انهمكت النساء في وضع هوادجهن على ظهور الجمال ، وكما كن يتبارين في تزيين

بيوتهن من الداخل ، فهن اليوم في مباراة كبرى لتظهر كل منهم ابهى زينتها في تجميل هودجها والجمل الذي يحملها اذ تضع على رأسه بالة من ريش النعام ، وتجمل الهودج بسيور مختلفة تتدلى من الجانبين رصعت بالودع وتثبت عليها اجراس مختلفة الاحجام ، حتى اذا ما تحرك هودجها احدثت هذه الاجراس رنيناً حسن الوقع في الآذان ، وما كان اعذب هذا الرنين على مسمعي عندما انتظم الركب وسار الحي كله والهوادج تتهادى بيننا ورنين الاجراس ينبعث من كل جانب ... وقد حرصت كل صاحبة هودج ان تنشر في واجهته اجمل ثيابها ذات الالوان الصارخة - فهذه تنشر حول الهودج ثوباً لطيفاً من الحرير الاحمر ... واخرى تأبى الا أن تنشر على واجهة هودجها ثوباً من (القرمصيص) الجديد ... وهكذا ..

وقوض اعوان الشيخ خيمتي وحملت على الجمل ، وركبت جملاً وسرت مع الركب ، انهم يسمونه (الظعن) ولست في حاجة لاقول انها تسمية عربية فصيحة .

وانتشرت الجمال تحمل هوادج النساء المزخرفة على مد البصر ، ورنين الاجراس يقرع الآذان من كل جانب .

اما الرجال فقد انقسموا قسمين ، قسم وكل اليه حراسة الظعن ، فهو يسير في المؤخرة اذا ما حدث حادث ما ، كأن يسقط حمل الجمل مثلاً اسرعوا فأصلحوه .

اما القسم الاخر ، فهو حر طليق ، وقد ركب افراده الخيول استعداداً لما يلاقيهم من صيد ، وما أكثر ما يفزع الصيد مضطرباً في تلك الفلاة والوديان والالوف من الجمال والخيول تحمل الهوادج والرجال على مدى عدة كيلو مترات .

وما تكاد تبرز ارنب حتى تنطلق الخيول نحوها وتعدوا الكلاب في اثرها والشبان يتصايحون بأعلى اصواتهم وهم يعدون بخيولهن ، حتى تسقط المسكينة في لحظات بين ايديهم . وقد يبرز غزال من بعيد ويبدو مضطرباً فلا يكون مصيره خيراً من الارنب اذ قل ان يفلت من مطاردة هذا الجيش الظعن اللجب الكاسح من الفرسان والكلاب وقد انتشروا مد البصر ... وقد تبدأ المطاردة من جانب بعيد للظعن فنرى الغبار ونسمع الصياح من بعيد ويضطرب الصيد فلا يعرف اين يتجه ويقوده اضطرابه الي الدخول في وسط الظعن ، فترى الخيول والكلاب تعدو نحوه بأقصى سرعتها من كل جانب وتحاصره وتقضي عليه بين الضحكات العالية وصراخ الفوز... وقد أطلعت النساء من بين هوادجهن يتتبعن المعركة في اعجاب وغبطة ، وكل تتمنى ان يفوز بالغنيمة زوجها او ابوها او اخوها او يصرع بجانب هودجها فيهدي اليها بحكم التقاليد .

ويظل الظعن سائرا اليوم بطوله ، حتى مغيب الشمس ، وطوال هذه الفترة فان النقارة

قد وضعت على جمل خاص « النقارة » ضربات رتيبة متباعدة حتى اذا أن وقت النزول وقعت ضربات سريعة قوية متلاحقة ، فيعرف الركب الظاعن ان « الشيخ » يأمر بالنزول في هذا المكان وتظل النقارة توالي ضرباتها القوية المتلاحقة حتى يتأكد الحي إن ليس هناك احد ضال ، اذ ان بعض الشباب يوغلون في الصيد ويبتعدون عن الظعن حتى يرخي الليل سدوله ، فتكون ضربات النقارة هذه خير هاد لهم لمكان الحي الجديد .

وقد تسأل كيف يطعمون ويشربون وهم سائرون منذ الصباح الباكر حتى مغيب الشمس ؟ ولا عليك ، فلدى كل امرأة على هودج طعام وشراب من اللبن او ماء او (ام شكة) وهو نوع يشبه الآبري عندنا ولكنه مسكر اذا اكثر منه .

فاذا احس اي منهم بجوع او ظمأ فانه يميل الى اقرب هودج ليتناول منه طعاما او شراباً ، وأحبه اليهم (ام شكة) هذه لوفرة الغذاء فيها ولأنها لا تحتاج منهم الى عناء في تناولها .

لا تظن انهم عند نزولهم ، يضع اي منهم انى شاء ، فهناك نظام دقيق متعارف ، فحيث ينزل رحل الشيخ ويعرف ذلك من صوت النقارة الذي ينبعث من الوضع الذي حل فيه -- وينزل الآخرون في أوضاع معينة بالنسبة لمكان نزول الشيخ ، فهذا غربه ، وذلك الجانب الشمالي منه ، بعد فلان وفلان ، وذلك في الجانب الجنوبي بعد فلان وفلان مثلاً ، ولهذا ما يكاد الحي ينتظم في مكانه الجديد حتى يسهل عليك التعرف الى أخبية من تشاء متى ما عرفت اين ينزل الشيخ ... وقد يكون هناك تغيير طفيف في هذه الاوضاع ولكن يندر ان ينتقل حي من الجانب الشمالي للشيخ مثلاً الى الجانب الجنوبي

هذا وينزل على يمين الشيخ وشماله ابناؤه ثم اخوانه فأبناء عمومته ... ولا يسمح لأحد كائناً من كان ان ينزل في واجهة بيوت الشيخ من الشرق ، فكل الاحياء تنزل على جانبيه ومن خلفه .

وطيلة اشهر الخريف ، وحتى نهاية آخر قطرة من الماء في الوديان الكبيرة التي تحتفظ بماء المطر فترة طويلة فهم في تجوال دائم ، بهذا الوصف الذي ذكرنا ، وهم اكثر ما يكونون بهجة وفرحا لا ينغصها عليهم الا تذكرهم انهم بعد قليل عائدون الى (الدمر) حول الآبار عندما يحل الصيف وتجف مياه الوديان ...

وقد لا يستمتع برحلات الخريف هذه قليل من الفقراء الذين لا يملكون إبلا ، وانما يملكون قليلا من الغنم يعيشون عليها في شظف ويندبون سوء حظهم ومن هؤلاء انتشرت اغنية لفتاة من اسرة لا تملك ابلا ، وقد رأت عندما تلاطمت سيول الخريف ان (النعيم

سرب) والنعيم تصغيرة كلمة (نعم)او العام ويعنون بها الابل ، وهي عربية فصيحة ... سرب ، اي تحرك ، أي ان اصحاب الابل قد ظعنوا بإبلهم الى حيث أمواه الخريف وسيوله ، وبقيت هي وحيدة مع الغنم في (الكرب) وعجبت كيف لم يصب الله هذه بالجرب ليريحها :

الليلة النعيم سرب
لي محل السيل قلب
المعز الفي الكرب
ما صادن الجرب

ولها ان تبكي سوء حظها ، فمن شهد البدويين في رحلات الخريف والهوادج مزخرفة مزينة ، والفرسان على ظهور الخيل يطاردون الصيد بمختلف أنواعه ، والارض سندسية الوشي ، والماء سهل المورد ، والفتيات في ابهى زيناتهن في مرح وغناء ورقص ، فقد شهد موكباً رائعاً للجمال .

كلاهما من تراب

ودعت في هذه الحياة أحباباً كثراً وقفت عند قبورهم حزيناً موجعاً ومازلت عليهم حزيناً موجعاً كلما ذكرتهم - وما اكثر ما أذكرهم - لكنني لم اشعر قط بتفاهة الانسان وحقارته ازاء الموت مثلما شعرت بهذا في بادية الكبابيش .

لست أنسى يوم تعالى صراخ نساء الحي من حولي يبكون احد رجال الحي الاعزاء ، فأسرعت الى خباء الرجل حيث تجمع عدد غير قليل من النسـاء والرجال تحت ظلال الاشجار بعد ان فاض بهم الخباء الصغير ، ونواحهم يصم الاذان . . . وكانت تلك أول مرة احضر فيها مأتماً بدوياً .

وجلست مع بعضهم على الارض الرملية تحت ظل شجرة باسقة - ولعلي كنت من القلائل الذين قدموا للعزاء دون ان يعلوا صوتهم بالنواح ، فقد كان كل من يقدم يبدأ في البكاء بصوت مرتفع من بعيد قبل ان يبلغ الدار وقد غطى عينيه بيديه وطرف ثوبه . . . ولعل سبب هذه التغطية للعينين الا يكشف امره ، أسالت الدموع من عينيه ام انه يصرخ باكياً لمجرد واجب العزاء ؟ فان العزاء عندهم لا يكون الا هكذا ، نواح متصل كلما قدم قوم جدد على ظهور الخيل او الجمال حتى اذا قربوا من الدار هبطوا من دوابهم وأوثقوها ثم اتجهوا نحو المكان للعزاء وقد تعالت اصواتهم بالنواح وايديهم تغطي عيونهم باطراف ثيابهم !

كنت جالساً ارقب كل هذه وأسائل نفسي ، ترى كيف يحملون جثمان الفقيد؟ واين يوسدونه الثرى ؟ وكان لابد ان تدور هذه الأسئلة في ذهني وانا لم أشهد كيف يدفنون موتاهم من قبل ، واعرف ان ليس في خيامهم - الا نادراً جداً - هذه (العناقريب) التي تملأ بيتنا ونحمل عليها موتانا . . . وقد بدا لي الامر مستعصياً ، ففي داخل بيتوهم لا توجد غير تلك الاسرة الضخمة المصنوعة من الجريد والتي لا تصلح ابداً لحمل الجثمان ، واعرف ايضاً ان ليس هناك مقبرة بالمعنى المتعارف عليه عندنا ، ذلك لانهم قوم رحل ، لهم في كل آن مستقر جديد في تلك الصحراء المديدة ريثما يتركونه لغيره .

ولم تطل بي فترة التساؤل فقد جئ بجمل ضخم يبدو عليه الهدوء ، ورأيت بضعة رجال يحملون « قرفة » كبيرة فارغة ، القرفة هذه تشبه الخرج عندنا الا انها اكبر منه . تصنع من الياف الشجر او جلدالبقر . ويعتمدون عليها عادة لخزن حاجاتهم من الذرة خلال تجوالهم - ولم اكن ادري لم جاءوا بالجمل والقرفة ؟ وزاد عجبي عندما رأيتهم يملأون القرفة بالتراب ، ثم احكموا ربطها على صفحة الجمل ، وجاء بعضهم « بحويتين » ربطهما علي صفحة الجمل الاخرى وترك فراغها الى اعلى حتى اذا تم ذلك دخلوا الى الخباء وعادوا يحملون الجثمان بأيديهم الي حيث كان يبرك الجمل . وفي هدوء وضعوا الجثمان علي الحويتين المربوطتين على صفحة الجمل الاخرى وضعاً محكماً : - ووضحت لي الحقيقة الساخرة والتي لم اكن انتظرها هكذا . ! فعلى جانب الجمل الايسر عدلة من التراب ، وعلى الجانب الايمن ، الجثمان ... عدلتان على ظهر الجمل كلاهما من تراب ... تراب طبيعي لا يحس بنا ندوسه بارجلنا ونستخف به ، وتراب سوي انساناً كانت له حياة زاخرة صاخبة كحياتنا ثم انتهت وتلاشت كأن لم تكن وعادت تعادل كومة من التراب على ظهر جمل يهطع بها الى المقر الاخير . ! وتواثبنا الى جمالنا وخيولنا لنسير خلف الجثمان ، وسار القليل منا على ارجلهم والاكثرية الساحقة على ظهور الخيل والجمال ، ذلك لأن من عادتهم دفن موتاهم بعيداً عن الاحياء مما يقتضي ان يسير المشيعون راكبين لبعد المسافة ومشقة المسير اذ ليس هناك طريق معبد .

وركب على ظهر الجمل الذي يحمل الجثمان ابن المتوفي او شقيقة لسبت اذكر بالتحديد . وانما جرت العادة ان يكون اقرب الناس للميت ، وشد ما كان يحزنني نواحه على طول الطريق . وأكاد لا أزال احس بلذع الحزن في قلبي كلما طافت بذهني تلك الصور الموجعة لذلك الفتى ينوح من اعماق قلبه باكياً وهو على ظهر الجمل الذي يحمل الجثمان ويردد ... وو ... وو ... الخراب جاني ... وو ... الحزن جاني ... ! وهو يمد في احرف الكلمتين في نغم حزين ، وأي خراب أبشع واوجع من الموت ! .

وفي كل مآتمهم كنت أسمع هذا النواح الموجع يرددونه رجالاً ونساء ... وو الخراب جاني ... وو ... الخراب جاني ... وينغمونها في نواح يفطر القلوب ... ولكم شرقت عيناي بالدمع تأثراً بهذا النواح الموجع ... وهل حياتنا مهما امتدت وحفلت بالسرور والمرح الا الى الخراب ؟؟ وهل نحن مهما كنا الا الى التراب ؟.

لقد أحسن البدويون بفطرتهم السليمه اختيار (قرفة) مليئة بالتراب يعادلون بها الانسان يحملونه الى نهايته فلا شئ قط غير هذا التراب يعد ل الانسان .

وبلغنا الى حديث ارادوا ان يوارى الجثمان ، وليست هناك مقبرة بالمعني الذي تعرفه

، وانما هنالك انه لقد عام كذا . وعندما كان الحي ينزل قرب هذا المكان ان دفن فلان او فلانه ، عند تلك الاشجار او قرب ذلك التل الصغير ، فلا بأس ان يجاورهم اليوم هذا الزائر الجديد . . .

ان لهم على امتداد الصحراء العريضة من حولهم ، أحباء أعزاء أودعوهم ثراها ثم رحلوا عنهم منتجعين مرعى آخر . . . حتى موتاهم لم يكتب الله لهم ان يعرفهم احد ، الا القليل النادر الذكر منهم .

وصلى علي الجثمان - لحسن حظ الميت - ووورى الثرى ، لا جديد هنا الا ما رأيتهم يفعلونه عقب الدفن ، اذ عمدوا الي الاحجار الضخمة - يردمون بها القبر ولم يتركوا جانباً منه الا غطوه بالاحجار الثقيلة ، وسألت لم يفعلون هذا ؟ ونظر الي من أجابني وتجلت الدهشة علي وجهه لجهلي وهو يقول . . . انها الضباع والذئاب يخشون منها ان تنبش القبر وتنهش الجثة ان وجدت الى ذلك سبيلاً ! .

ألا ما احقر الانسان وأهون امره وان ظن في نفسه القوة ! . وتذكرت اني في البادية حيث نقاسم الحيوان سكناه ، وطافت بذهني صور من ذلك الصراع الدموي بين البدوي وجاره الحيوان فأيهما ظفر بالآخر صرعه وأكله ، لا اختلاف بينهما في هذا . وترحمت على المتنبئ عندما أشار الى هذا الجوار الذي لا حرمة فيه ولا رعاية لود او اخاء :

جيرانها وهم شر الجوار لها وصحبها وهم شر الاصاحيب

وعدنا أدراجنا وقد خلا الجمل من عدلته ، وأودعت احداها بطن الثرى ، وأفرغت الاخرى على ظهره . . . وسكن النائح الحزن سكون عزاء او سكون لغوب . . . ولن يعود احد ليرى هذا القبر ، وقد يذكرونه مرة بعد عهد طويل اذا قدر للحي ان ينزل حول هذا المكان وأصاب الموت احدهم . واخذوا يتشاورن فيما بينهم اين يدفنونه ؟ . . . سيقول بعضهم - كما قالوا اليوم - لقد دفنا عام كذا فلاناً عند أجمة السدر تلك ، او خلف (الزليطات) تيك ، فلو حملناه الى هناك لجاوره ! .

وانتابني انقباض شديد وانا انظر خلفي الى ذلك القبر الموحش حيث دفن الرجل وتخيلت الضباع والذئاب تحف بقبره وتحاول زحزحة الاحجار عنه ، انه - حتى اذا ما سلم من هذا المكان ، انهم لفاعلون ذلك غداً او بعد غد فما يطيق البدويون البقاء في مكان واحد ابداً . . . وساءلت نفسي ترى ماذا اذا ما حانت منيتي هنا واودعت هذا القبر الموحش حيث لا يعودني احد ، ولا انيس من حولي وقد أكون نهباً للسباع ؟ . . . ان المقابر في المدن والقرى تجاور الناس ، ومن يدري . فقد يؤنس الموتى دبيب الحياة من حولهم وبعض ذاكريهم يلمون بهم احيانا اما هنا فلا طارق الا من الحيوان الضاري والا هذا

الصمت الموحش ... وكدت ارثي نفسي كما فعل مالك بن الريب الذي قيل انه صاحب سعيد بن عثمان بن عفان عندما ولاه معاوية خراسان ، وكان مالك كارهاً لهذه الصحبة التي ستبعده من اهله في بادية البصرة - وفي الطريق أناخوا للقيلولة فلدغته أفعى ، فاحس بدنو أجله وجزع ان تعاجله المنيه في ذلك القفر الموحش بعيداً عن زوجته وبناته واهله ، فرثى نفسه بقصيدة مشهورة تعد من روائع الشعر العربي ، استهلها بتساؤل اللهيف الملتاع ... وادي الغضا أتراه يعود اليه ويبيت فيه ليلة وينعم به ؟.

ألا ليت شعري هل ابيتن ليلة   بجنب الغضا أزجي القلاص النواحيا

ويلتفت مالك حوله فلا يجد من يبكي عليه في ذلك القفر سوي سيفه ورمحه وفرسه الاشقر ، وقد تخيله يجر عنانه ليرد الماء بلا ساق بعد ان فقد صاحبه ! .

تفقدت من يبكي علي فلم أجد   سوى السيف والرمح الرديني باكيا
واشقر خنذيذ يجر عنانه   الى الماء لم يترك له الدهر ساقيا

ويقول لصاحبه من حوله : ان دنا الموت فانزلاني برابية ولا تتعجلا مفارقتي بل ابقيا معي يوماً او بعض ليلة ...

ويطلب اليهما ان يحفرا قبره بأطراف الأسنة وان يوسعا له في الارض ذات العرض فلا يكون قبره ضيقاً ! .

فيا صاحبي رحلي دنا الموت فانزلا   برابية إني مقيم لياليا
اقيما علي اليوم او بعض ليلة   ولا تعجلاني قد تبين ما بيا
وقوما اذا ما استل روحي وهيئا   لي السدر والأكفان ثم ابكيا ليا
وخطا بأطراف الأسنة مضجعي   وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني - بارك الله فيكما -   من الارض ذات العرض ان توسعا ليا
ولا تنسيا عهدي خليلي بعدما   تقطع أوصالي وتبلي عظاميا
يقولون (لا تبعد) وهم يدفنوني   واين مكان البعد الا مكانيا
غداة غد يا لهف نفسي علي غد   اذا أدلجوا عني وخلفت ثاويا

ولم يمت مالك بن الريب من لدغة الثعبان تلك ولست ادري أكان ساخراً عندما قال انه باع الضلالة بالهدى وسار في جيش ابن عفان

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى   واصبحت في جيش ابن عفان غازيا

ولكني كنت أردد هذه المرثية كلما شهدت قبراً في ذلك القفر الموحش ، وكلما شهدت ثعباناً من حولي ، وما اكثر الثعابين حولنا . فكلما نزلنا مكاناً جديداً وأقمنا خيامنا نفرت حولنا ثائرة . فيلقي الواحد منا اكثر من ثعبان كل يوم بالقرب منه او في

سريره او حذائه او في طريقه ، واني لأعجب حتى اليوم كيف سلمت من لدغتها وقد تعرضت للمئات منها خلال سنوات طفلي هناك ، ولكن عناية الله ودعاء من خلفنا وراءنا يذكروننا في صلواتهم وقرآنهم بقلوب عامرة بالايمان ، أثابهم الله الجنة ، وانهم لمن اهلها فقد نزلوا في رحاب كريم تواب ولنعد الى الحي بعد ان تركنا القبر موحشاً في قفر يباب - وكعادة المآتم عندنا جلس الرجال يتقبلون العزاء ويحملون طعامهم في جفان سود من الخشب ، تتوسطها تلال صغيرة من عصيدة الدخن يختلف ادامها ولا تختلف هي ، فبعض الادام من اللبن او « الروب » وبعضه من « الشرموط » والويكه وبعضه ماء ساخن عليه سمن طيب النكهة ... وفي خباء مجاور تجمعت النساء بمثل هذا ...

وتدار على الجالسين أقداح الشاي الاسود - فكلما كان الشاي أقرب للسواد في لونه ، والي العسل في طعمه كان اثيراً لديهم حبيباً الى نفوسهم ، وكلما قدم فوج للعزاء رفعوا اصواتهم بالبكاء من بعيد وهم يمشون نحو الخباء ... فاذا ما بلغوه جلسوا القرفصاء يواصلون نحيبهم وقد غطوا وجوههم بايديهم واطراف ثيابهم ، ويظلون على هذا الوضع وفي جلستهم تلك حتى يدنو منهم احد الأقربين للميت ويطلب اليهم ان يكفوا .

وكعادتنا جميعاً فإنهم - ينصرفون - في اليوم الثالث او الخامس ويذبح اهل الميت ما يستطيعون وفق مكانتهم فقد يكون خروفاً او ثوراً او بعيراً او كلها مجتمعة لكنهم قل ان يجدوا الفقهاء الذين يتلون القرآن في مثل هذه المناسبات وقد يكون بعض الاحياء محظوظاً لوجود فقيه وهو ليس من البدويين قطعاً ... وبمناسبة الفقهاء اذكر ان البدويين بحكم تجوالهم ليست لديهم بالطبع مساجد للصلاة ولا يعرفون صلاة الجماعة ، وتكاد لا تكون هناك شعيرة دينية تجمعهم الا صلاة العيدين ...

ومن اطرف ما اذكره ان جاء فقيه من شنقيط يطلب عون الشيخ علي التوم رحمه الله ، - فلما جاء اوان صلاة المغرب توسط الحي واخذ يؤذن للصلاة - وكانت هذه اول مرة يحدث فيها هذا ، فخرج بعض الاطفال والنساء ينظرون اليه في دهشة ، ويتساءلون فيما يصيح هذا الرجل ؟ وماذا يعني ؟ وسألني تلامذتي عن موضوع هذا الفقيه ، وكانت فرصة حسنة لأحدثهم عن الاذان والمساجد ، ولماذا خلت باديتهم منها ، وبالطبع فإن اكثرية الرجال من البدويين يعرفون الاذان وقد سمعوه عند ترددهم على المدن الا المقيمون هناك وخاصة النساء والاطفال .

معذرة اذا جاء حديثي حزيناً قاتماً وقد عودتكم ان اقف بكم عند الصور الزاهية المشرقة عند البدويين ولكن متى كانت الحياة كلها زاهية مشرقة ؟ ! .



كلاهما من تراب



سيلا سنوي

ليس احب الى البدويين من فصل الخريف ذلك لأنه يوفر لهم المرعى والماء وينقذهم من مشاق الآبار التي كثيرا ما يشح ماؤها وينضب معينها وقد تحلقوا حولها يرقبون ما تجود به على فترات متباعدة والخريف يجعلهم ينطلقون في آفاق الصحراء الفساح يوما هنا ويوماً هناك وبعد غد في غيرهما لا يملون الترحال ولا يرتضون البقاء في بقعة واحدة وقد اخضرت الارض وسالت المياه في كل واد فأبهجت واروت ، فيغريهم جمال الطبيعة من حولهم وسخاؤها بانتهاب كل محاسنها والارتواء منها ... لا يثنيهم عن الترحال والتجوال مريض يرقبون شفاءه فهم يحملونه معهم في تجوالهم حتى اذا حانت منيته بأي ارض مكثوا له يومين او أكثر بقليل ، على قدر مكانته في الحي ، ثم سارعوا عنه وخلوه في مكانه مقبوراً .

واذا اشتد الطلق بأمرأة حبلي ، ظلوا ريثما تلد الجنين ، ثم حملوها على هودجها وانطلقوا حيث شاءوا ... !

ويسمون رحيلهم وتجوالهم في فصل الخريف ... (النشوغ) وما أبأس البدوي الذي لا (ينشغ) مع العرب لعلة ما . ! انه كمن فقد الجنة ... وقد سمعتهم اذا اراد احدهم ان يدعو على آخر بالسوء والشر ، يقول له انشاء الله (تقافي) الخريف ... أي تجعل الخريف وراءك -- في قفاك - فلا ترحل لنشوغ مع العرب ... وهذا أقسي ما يمني به احدهم من الضر والاذى .

فاذا ما انتهي الخريف ولم تبق قطرة ماء في واد من الاودية لم يكن هناك بد من ان يتجهوا عائدين الي الآبار ويكون ذلك عادة في اعقاب فصل الشتاء ... يسمون مناطق سكناهم حول الآبار (الدمر) بالدال المشددة المفتوحة والميم المفتوحة ، كما وصفت من قبل .

وبالرغم من انهم يتجيهون الى الدمر وهم مكرهون اذ يعودون الى مشقة متح الماء من البئر بعد ان كانوا يردونه سيلا مسورا في الاودية ، فانهم لا ينسون مرحهم ولعبهم

بالسباق وهم يتجهون نحو « حمرة الشيخ » مقرهم الصيفي . . .

فقد درجوا ان يقيموا سباقاً ضخماً بين الجمال عندما يقتربون من الدمر وهو سباق لا يحدث الا مرة واحدة كل عام ، عند عودتهم من (النشوغ) . . . تشترك فيه مئات الجمال التي اشتهرت بينهم بالأصالة ، وانهم ليعرفون اصولها كما يعرفون اصول بعضهم ، وخاصه تلك التي استجلبت او استجلب آباؤها او امهاتها من شرق السودان حيث توجد اشهر الجمال في السودان . . . وقبيلة (البشاريين) تحظى بالنصيب الاوفى منها : واليها ينسب الجمل « البشاري » الذي يعتز به بدويو غرب السودان ، وفي مثل مستواه الجمل « العنافي » . . . ويسمون الجمل الهجين الذي يجئ من اب من الشرق وا م عادية من الغرب بالجمل « البَشَندي » بفتح الباء والشين ، وهو يصلح لتحمل عليه الاثقال ولا يصلح للسباق .

وقد اعتدت عندما نقترب من نقطة بدء هذا السباق الكبير ، ان اسبقهم بليلة الي حمرة الشيخ منطقة نهاية السابق . . . ويبدأ السباق من مسافة قد تبلغ العشرين كيلو متراً ، ويشترك فيه الرجال من مختلف الاعمار وقد أطلت النساء من هوادجهن يرقبن البداية ، والجمال تنطلق كالسهام من كل جوانب الركب ، والرجال يتصايحون بالمتسابقين يحثوهم . . . والنساء يزغردن بعثاً للحماس .

ومنذ ان يتجه الركب نحو الحمراء ولا حديث لهم إلا عن هذا السباق . . . والتكهنات عن نتائجه وأي الجمال يفوز بالسبق . . . ويعددون المشهور منها ، وما كان له فضل السبق في جولات اخري ، ويطول النقاش ويتشعب اشبه بما يدور بين انصار كرة القدم هنا عندما يعلن عن مباراة بين الهلال والمريخ مثلاً ، فالناس يزنون لاعبي كل فريق ، ويتكهنون بالفوز ، ويقدرون عدد الاصابات والسباق في بدايته شبيه بهذا . . . يزنون الجمال المتسابقة ويقدرون النتائج وقليلاً ما يخطئون . . . كنت ارقب نهاية السباق كما ذكرت اذ كنت اسبقهم الى هناك عند تاجر صديق يعيش في كوخ من القش ، سمح له بالبقاء هناك لبيع بعض الحاجيات الضرورية للبدويين ،

ومن بعيد تتراءى لنا طلائع المتسابقين وقد اصاب الجمال الاعياء ، بعد ان استنفدت قوتها تلك المسافة الطويلة للسباق ، ويبلغنا السباق الاول وهو يلوح بسوطه مزهواً بالنصر ، ويحاول جاهداً ان يزيد من سرعة الجمل حتى اذا ما بلغ موضع نزول الحي ، نزل عنه وأشهد الحاضرين ممن سبقوا الى هذا المكان ويتوالى وصول المتسابقين احياناً ، وعلى دفعات متقاربة حيناً آخر ، وقد اصابهم الاعياء ونال إبلهم الكلال ولكنهم جميعاً فرحون مستبشرون يتقدمون الي السباق مهنئين ، ويدور اللغط بينهم عن اسباب خلف

جمل فلان او فلان لمن كان يرجى منها ان تفوز بالسباق ، كما يروي بعضهم كيف قعد به الحظ وعاقة عن الفوز . . .

ومن بعيد تبدو طلائع « الظعن » ويبلغنا رنين اجراس الهوادج وهي تقترب من المقر الجديد ، والنساء والرجال الذين كانوا بالظعن يتساءلون في لهفة عن نتيجة السباق وأي الجمال فاز ؟ مثلما يتلهف عشاق الرياضة الذين لم يستمتعوا بمشاهدة المباراة بسؤال من شهدوا المباراة عن نتيجتها وسير اللعب فيها ومن اجاد ؟ ومن تخلف ؟ ! .

وتحط الجمال رحالها ، وينتشر النساء يعملن بمساعدة ازواجهن او اخوانهن في نصب بيوت الشعر ، ولا تمضي ساعات حتى تكون البيوت قد نصبت ، واستقامت لهم حياتهم المألوفة . . . حتى اذا اخذ الحي حظه من الراحة ، وتجددت الرغبة بين الشبان والشابات لاقامة حلقات الرقص ، نسمع من بين الاغنيات الجديدة اغنيات تشيد بالفتى الذي فاز بالسباق وتمجد بطولته ، وتكبر اصالة الجمل الذي سبق . . . ! ويزهو الفتى السباق بهذا الثناء ، ومن حقه أن يزهو به إذ يظل محتفظاً بالبطولة عامه كله ، فإذا ما جاء الخريف وهبوا الى النشوغ ، مرة اخرى ثم عادوا الى الدمرواقتربوا من حمرة الشيخ عاد السباق قوياً عنيفاً ، فاضت الصحراء بمئات الجمال - الرجال على ظهورها وقد لفوا ثيابهم على بطونهم وصدورهم كل منهم يأمل في الفوز . . . وفي اغاني الفتيات تشيد به . . . !

وما رأيت كالبدويين في قوة ملاحظاتهم ودقتها ، وان بدا لك انهم كالبلهاء وان لهم لسخرية مريرة بكل شئ لا ينتمي اليهم . . .

وتبدو قوة ملاحظاتهم ودقتها اكثر ما تكون وضوحاً في تتبع اي اثر لحيوان او انسان . . . انهم يصلون في هذا حداً يبلغ الاعجاز . . . يكفي ان ينظر احدهم الى اثار جمال في الطريق ليقول لك انها تحمل شيئاً ثقيلاً وتسير ببطء وقد يقول انها خفيفة الحمل سريعة الخطو ، ويعرف هذ امن ضغط خف الجمل على الارض ومن المسافة بين خطواته . . . وكنا اذا نزلنا في ظل اجمة من الاشجار ووجدنا اثار قوم قبلنا ينظر احدهم الى حيث كانت تبرك جمالهم والي بعض (بعرات) يسحقها بيديه ، ليحدد لك متي كانوا هنا ، ومتى تحركوا ، بل يستطيع ان يحدد اذا كانوا يحملون مع ابلهم شيئاً ام ذهبوا خفافاً ، ومدى سرعتهم في السير ولا يخطئ في هذا ابداً ، وقد يمضي الى ابعد من هذا فيحدد اين كانوا من قبل وفي اي وادٍ كانت ترعى الابل ، وهذا يعرفه من سحقه للبعر ليستدل على نوع الشجر او النبات الذي رعته ، وهو يعرف تماماً في اي وادٍ ينمو هذا الشجر وذاك النبات ! .

اذكر قصة طريفة ، حضرت وقائعها في احدى جلسات المرحوم للشيخ علي التوم فقد افتقد احد البدويين بعيرا من ابله ، وبحث عنه طويلاً ولم يجده . . . ولكنه لم ييأس

. فقد درج على ان يمعن النظر في آثار كل ابل تعترضه عسى ان يجد اثر بعيره المفقود بينها .

وبعد سنتين كاملتين ، كان يرد بإبله البئر ، وكعادته اخذ يطوف حول البئر ممعنا النظر في آثار الابل التي وردت وصدرت . . . وبينما هو يدقق النظر في آثار مراح من الابل وقعت عينه على اثر بعير ما شك في انه بعيره المفقود . . . وسرعان ما ترك ابله حول البئر مع اخوته ، وركب جمله وسار في اثر ذلك المراح الذي وجد اثر بعيره معه . وبعد فترة بلغ المراح ، واتجه اليه باحثا بنظره هنا وهناك ، حتى وقع على بعيره المفقود . واتجه إلي البعير دون تردد وساقه امامه . . . واعترضه صاحب المراح الذي لم ينكر انه وجد البعير ضالا وضمه الى ابله دون ان يعرف صاحبه . . . وأبى ان يسلم البعير لصاحبه الا امام الشيخ ، وجاءا معاً الي مجلس الشيخ ليفض هذا النزاع . . . وروى صاحب البعير المفقود قصته ، كنت من بين الجالسين ، واستمعت اليه مذهولاً وسألته : اعرفت اثر بعيرك الضال بعد سنتين ؟ ومن بين مراح تجاوز عدده المائتي بعير ؟ ! ونظر الي ساخرا وعجب من سؤالي وشاركه في السخرية والتعجب كل من كان في مجلس الشيخ وقالوا كيف ارى في هذا ما يستدعي التساؤل والعجب ؟ .

وضحك الشيخ علي رحمه الله ، وقال لي : ليس في هذا غرابة بل الغرابة الا يعرف اثر بعيره مهما طال به العهد !

ولقد شهدت بعض اطفال البدويين الصغار يرعون الماعز حول الحي ، وكان يطيب لي كلما لقيت احدهم ان اختبر ذكاءه فكان اكثرهم يعجز عن ان يعد من واحد الى عشرة او عشرين عندما اطلب منه ذلك ، ولكن متى ما سألته عن غنمه التي يرعاها كم هي ؟ وكيف يفتقدها اذا ضاع منها شئ بسط اصابعه وبان عليه التحدي وهو يذكرها بأوصافها وانسابها واسمائها وامهاتها وبناتها . . . قائلاً : حميرة وبناتها الثلاث ، وام قرون وامها . . . ! والربده واختها ! . . وهكذا لا يترك من مراحه واحدة إلا ذكرها بوصفها وما ينتسب اليها غير ناس حتى ما ولد منها حديثاً ! . . حتى اذا ما أكمل عدها بهذا الاسلوب الساذج البارع نظر اليَ نظرة المنتصر المعجب بنفسه والواثق من معرفته لدقائق مسؤليته . . . ذكاء فطري لماح . . . وما أكمله لو وجد تعليماً وتهذيباً وتوجيهاً .



سباق سدوقي

عرس بدوي

ألا ما ابهج الايام التي قضيتها مع البدويين في أعراسهم وافراحهم وكل من حولي منتش طروب تغمره الفرحة والبهجة ، وانا سعيد مغتبط بينهم بما يتكشف لي من عالم جديد في العادات والطباع لم اعرفه من قبل في حياتي التي ألفتها قبل ان ألقى البدويين واعيش بينهم وتنشأ بيننا هذه الالفة الوثيقة التي جعلتني واحداً منهم اشاركهم كل ما يستقبلون من ألوان المرح أوالحزن والغضب .

كنت كثير الاستطلاع والسؤال عما يقع عليه بصري او اسمع عنه او يثار في حضوري ولا أكون على علم به من قبل .

وكنت اتطلع شوقاً لحضور حفل عرس بدّوي من بدايته حتى نهايته ، حتى سنحت الفرصة بزواج شاب من حي الحمراء حيث صارت تربطني بكل سكان الحي صلة قوية ومعروفة وثيقة حتى لكأنني واحد منهم .

ودعينا منذ الصباح الى دار اهل العريس ، وأخليت لنا عدة أخبية ليجتمع فيها الرجال يسقون فيها ويطعمون ، وتجمع النساء في أخبية مجاورة وقد شغلن باعداد الطعام والشراب للرجال ، ولا تظن أن هناك حائطاً او ستاراً بين النساء والرجال وانما هي بيوت شعر في العراء كالخيام ، لا أبواب لها ولا نوافذ تغلق وتفتح .

وتجمعنا في خباء مطنب ،أي تشده الطنائب (الحبال) تعلواصوات المتحدثين ولا تخضع للنظام ، وجاء اهل العريس بقدر كبير من - المريسة - وهي الشراب الذي يقدم في كل مناسبة وفي كل يوم ، منها ما يشرب للسُكْر ، ومنها ما يشرب للاشباع اولاً والسُكْر ثانياً ... اذ انها تصنع على عدة الوان ،وكان عزوفي عنها أمراً غريباً لديهم ،فهم يلحون ويلحون وازداد إصراراًعلى الرفض وألح في الاعتذار ، حتى يعفوني منها بعد جهد جهيد ، وعلى وجوههم معاني الرثاء لهذا المحروم من شرابهم الهنئ الذي لا يكاد احدهم يتركه يوماً الا مكرهاً او معدماً !

ويجئ الشواء وهو اشهى ما يقدم في البادية ، فآخذ حظي منه بشهية ، ثم يقبل علينا

بجفان سود عليها (كبدة الابل نيئة) اذ لا بد أن يذبح اهل العريس - بجانب الغنم ناقة علي الاقل اذا كانوا من اثرياء البادية . . . مرة اخرى احاول جاهداً ان أجاملهم وأتناول قدراً من كبدة الابل النيئة فلا استطيع . . . كنت حديث عهد بهذه الحياة ،ومرة اخرى أرى على وجوههم الكثير من معاني الإشفاق على هذا المحروم من أطيب نعم الحياة عندهم . . . المريسة وكبدة الابل النيئة !

وانظر اليهم وهم يأكلونها في نهم ، وينادوا احد اهل العريس ليزيدهم من (السعدانة) ولا اعرف ماذا يعنون بالسعدانة هذه حتى يقبل الرجل وفي يده جفنة فيها قدر من شحم زور الناقة ، فأعرف انها السعدانة ! . . . وهي من أشهى الطعام عندهم .

وأشاركهم الطعام عندما تقبل علينا جفان فيها كبدة مطبوخة ولحم وثريد ، كل هذا وكؤوس المريسة مترعة دائماً ولا تكف الأيدي عن تناولها ولا يطيب لبعضهم ان يشرب الا إذا أحدث صوتاً من فمه او زوره كأنما هي موسيقى خاصة تعينه او تحبب اليه الشراب . . . والكبابيش يرسلون عادة لحاهم وشواربهم ، وترى الشباب منهم يتعجل إنماء لحيته وشاربه ، فتلك من مظاهر الرجولة الحقة عندهم ، ولكم كان يثير ضحكي ان أرى « شارب » كل منهم قد ارتوى من الكأس ، ولهذا ما يكاد أحدهم يضع الكأس من يده حتي يمر بيديه على شاربه يمسح ما علق به من أثر الشراب ، ثم يمشط لحيته بيديه كأنما يريد ان تنال هي الاخرى حظها مثلما نال شاربه ! .

وفي الاخبية الاخرى تجمع الفتيات والنساء يطعمن ويشربن ، وقد تدار عليهن انواع اخرى من المريسة اخف اثراً ، او هي نفسها لبعضهن .

وانتصف النهار وأخذ ميزان الشمس يميل نحوالغروب ، وجاء وقت السيرة وانا أنظر للعريس يتهيأ ، لقد لبس ثياباً جديدة كلها من الدبلان الناصع البياض ، سروالاً طويلاً وقميصاً تجاوز الركبتين بقليل ، وثوباً كاسياً كبيراً يتدلى طرفاه حتى مواطئ قدميه . . . ضمخ النساء رأسه « بالضريرة » مثلما يحدث عندنا ، ولفوا على رأسه منديلا يتوسطه « خرص » من الذهب عند الجبهة ، وفي يده (الحريرة) ذات الخرازة الخضراء ، وسوار من الفضة ، وعلى عنقة (سبحه) من « اليسر » الاسود وفي يده سوط وسيف ، ثم جئ بعظمتين متصلتين من عظام السمك ، ربطتا مع الحريرة في يده بجوار السوار ، وحرت في تعليل هذا التقليد من اين جاءللبدويين وهم في الصحراء التي لايرى فيها السمك ! وقل من بينهم من رآه بعينه ان يجعلوا من بين مراسيم العرس الاساسية أن يلبس العريس عظمتين متصلتين في وضع خاص معين من عظام السمك ؟ . . . وقد عرفت ان العروس تلبس ايضاً مثلهما مع ما تلبس من حلي العرس . . . وقد استحال علي كل من

سألت من شيوخ البدويين ان يدلني على مصدر هذه العادة ، كل اجاباتهم انهم هكذا ورثوا عن آبائهم ، وان العريس والعروس لا يهم (جرللهما) الا بهاتين العظمتين من السمك .

وتجمع اصدقاء العريس على ظهور الخيل والجمال وانطلقت الزغاريد والاغاني وجاء بعض الفتيات يحملن مجامر الطيب والدخان العطر يعبق في الجو ، ودوى صوت (الدلوكه) يحملها بعض الاماء على اكتافهن ، وتحرك الموكب صوب دار العروس ... وبعد ان امتطى العريس جواداً مطهماً - وإحاطت به الفتيات من أهله من جانبي الحصان ومن خلفه وظهره يغنين ويرقصن ، وقد أخذ بعضهن بمقود الحصان ... كان الفتيات يرقصن وهن سائرات على طول الطريق ، وكن يحرصن على الاحاطة بالعريس وان يمنحنه (الشبال) وهو (يهز) بالسوط او السيف ، ومقود الفرس تتناوبه الفتيات من خاصة أهله والبخور في ايدي بعضهن يعبق من حوله ، واسراب اخرى ترقص من كل جانب ، والفتيان على ظهور الخيل ، وتارة يبدون فروسيتهم بأن يطلقوا للخيل أعنتها لتعدو بهم كالجن ، وتارة يحفون به يبشرون ويتصايحون ، والموكب يقترب من دار العروس وكلما دنا منها زاد تصايح الفرسان ، وعلت زغاريد النساء وتكاثر السرب الراقص حول العريس ، وانهالت (الشبالات) على ملابسه من كل راقصة حوله ، وهن يتوثبن كالفراشات ليبلغنه بالشبال والحصان يتهادى به بينهن ومقوده ينتقل بين ايديهن .

ونقترب من (الحجيل) والحجيل خيمة صغيرة مربعة من الدمورية البيضاء تعمل خصيصاً للعروسين ، والحجيل او (الحجلة) كلمة عربية فصيحة .

وما يكاد الموكب يبلغ الحجيل حتى يجتمع الشبان حول العريس قبل ان ينزل عن حصانه ، وتخرج ام العروس من خبائها الى لقائه ، وتدنو من مقود الحصان وتتناوله ، لتطلب من العريس ان ينزلّ بالكرامة في دارها ، وتعلن انها تنزله بإهدائها اليه كذا من الابل او الغنم ... وهكذا يستقبل العريس حياته الجديدة بهدية سخية من ام العروس ، ابلا أو غنماً حسب ثراء الاسرة ... ثم يتتابع اصدقاؤه ، يعلن اليه كل منهم انه يهديه كذا من الابل او كذا من الغنم ، هذا يشبه عندنا (النقطة) ويظل العريس امام الحجيل على حصانه يتقبل هدايا اصدقائة واهله من الابل والغنم بعد ان تقبل تحية ام العروس وهديتها اولاً ،

ورصاص رفاقه يئز ويدوي في الفضاء فرحة وبهجة ، والزغاريد تتعالى والعطر العبق يتلوى من المباخر في ايدي الحسان وهن يتماوجن حوله راقصات وقد كشفن عن مفاتنهن

في غير حشمة .

وبعد ان تتم كل هذه المراسيم ينزل العريس عن حصانه ويدخل ورفاقه (الحجيل) ، ويذهب فتيات العريس الى خباء العروس ، ويواصل تقديم المريسة والطعام لهم مثلما كان يحدث صباحا في دار العريس .

وهنا يجب ان يكون العريس قدمَ سلفا لأم العروس عددا من الخراف والابل وفق حالته المادية لتتصرف فيها كما تشاء ، فقد تذبح منها لاكرام ضيوفها ، وقد تهدي منها من تشاء وقد تحتفظ بها لنفسها . . . ويدفع العريس المهر العادي قدراً من الجنيهات وعليه ان يشتري كل الملابس التي يراها للعروس ، وقد يبالغ الاثرياء منهم فيشتري العريس عدداً كبيراً من الثياب والملابس لا لتلبسها العروس وحدها وانما لتهدي منها لصويحباتها وقريباتها ومن يخدمنها خلال أيام العرس التي يجب ان تمتد الى اربعين يوماً كاملة لا يزاول العريس خلالها عملاً ، ولا ينزع ثياب العرس التي جاء بها اطلاقاً ، حتى يستحيل لونها الى السواد بفضل البخور والعطور والدهون « والدلكة » التي يوالى بها صباح مساء طيلة ايام العرس ، وتحرم عاداتهم على العريس ان يغير ثياب عرسه التي لبسها جديدة منذ أول يوم حتى يكمل الاربعين ، كما ليس للعروس أيضاً أن تغسل ثياب عرسها الا بعد الاربعين ايضاً إلا أن العروس أحسن حظاً من العريس اذ لها ان تغير ملابسها باخرى جديدة مما جئ به اليها لمناسبة العرس ، وليس للعريس هذا الحق . . .

وتتبعت مراسيم العرس بشغف ، وجئ بالعروس تتهادى واخواتها يحطن بها ، وقد لفت في الثياب ولم يبن منها شئ ، واوقفت وسط الحجيل ، وامتدت يد العريس من تحت ثوب العروس ليقطع من (الرهط) سبع سيور رقيقه ايذاناً بانتقال الفتاة من حياة الي حياة ، وكنت شغوفاً لأرى كيف ترقص العروس في البادية وماذا يحدث في هذه المناسبة . . . ولكن شد ما دهشت عندما خرج بها الفتيات وعرفت ان العروس لا ترقص . . . وعجبت لهذه المفارقة ، ففي المدن حيث يشتد الحجاب يسمح للعروس ان ترقص شبه عارية وفي خلاعة امام عدد ضخم من الرجال والنساء ، ويحدث هذا اكثر من مرة خلال ايام عرسها وفي البادية حيث لا حجاب ولا انفصال بين المرأة والرجل لا يسمح لعروس ان ترقص امام احد اطلاقاً ، حتى ولا العريس نفسه ! وعلى مقربة منها وامام الحجيل يتجمع الفتيات والفتيه ليقطعوا الليل الا قليلاً في رقص متصل ومرح دافق ، الا العروس وحدها فانها لا تشارك في هذا الرقص الا خلسة امام عدد محدود من صويحباتها فقط . . . هذه الفتاه التي لا ترقص في عرسها امام الفتيان ، هي التي كانت قبل عرسها بأيام تتوسط حلقات الرقص مع صويحباتها والشبان يقاسمونهن الحلقة . . . وستعود أيضاً بعد

انتهاء مراسيم العرس الى هذه الحلقة لترقص ما شاءت مع صويحباتها وعلى كرير الشبان وزوجها بجانبها غير كاره لما تفعل ...

إن العروس قد زينت بصنوف من الحلي ، بعضها مما نعرفه في المدينة وبعضها تخطته المدينة ، فالعاج من سن الفيل قد تخضب بالحناء ، وسوار الفضة والزمام من الذهب من أخص حليها وأحبها اليهن .

وأمعن النظر الى يدي الغروس وقدميها ، ثم الى يدي العريس وقدميه فلا أجد اثراً للخضاب : وتملكني العجب ، وأسائل من حولي ، ألا تستعملون الحنة للعروس والعريس ؟ ... انهم لا يعرفون هذه العادة ، بل يستهجنها من شاهدها منهم في المدن ... لماذا يفسدون هذه الطبيعة الجميلة في أيديهم وأرجلهم بالخضاب ؟...هكذا يقولون .

وفي اليوم الثالث تولم ام العروس وليمة كبيرة ينصرف بعدها أهل العريس وأصدقاؤه الى أحيائهم ، ويترك العروسان وحدهما يبدآن حياتهما الزوجية ويظل العريس حبيس (حجيله) لا يغادره إلا لماماً ، اربعين يوماً ، يضمخ بالعطور والدهون ويدلك جسمه ويعني بطعامه وشرابه حتي يتبدل حاله ويبدو عليه السمن ، وهذا يعني عناية اهل العروس به ! .

وفي يوم الاربعين ، توجه الدعوة الي أهله واصحابه وتذبح الذبائح ، وتجدد مظاهر الفرح ويدور الرقص بين الفتيه والفتيات ... وفي هذا اليوم - ويسمي يوم الغسيل - تغسل ثياب العروس والعريس بعد ان تكون العطور والدهون قد جعلتها داكنة أقرب الي السواد .

وقد تذكرت عادة شائعة عندنا ، ان يجتمع اهل الميت من النساء في يوم الاربعين للوفاة ليأذن لمن شاركتهن الاسي ولم تغسل ثوبها - وربما الاستحمام- لكي تغسل ثيابها بعد الاربعين .

ولكن البدويين ، لا يعرفون هذه العادة في المآتم ، وقد استحالت الاربعون عندهم الي عرس بهيج ، فأربعون العريس يوم عرس جديد ، يؤذن بعده للعريس ان يغادر الحجيل ليزاول ما كان يؤدي من عمل ... ولا شئ غير ان يلحق بإبله ليرعاها ويعود ، اذ ليس لهم غير الرعي من عمل ... ويؤذن للعروسين ان يغسلا ايضاً ثياب العرس .

لقد نسيت ... ان اصدقاء العريس الذين أحاطوا به وهو يسير نحو دار العروس- وقد وقفوا حوله يهدونه الابل والغنم - يهدونه ايضاً مظهراً من مظاهر الشجاعة كما يعرفونها في اوساطهم اذ يسارعون فيجردون ظهورهم من الثياب ويعرونها ويطلبون من العريس في إلحاح ان يلهب ظهورهم بسوطه ... وكلما أهوي بالسوط علي ظهر احدهم وتناثر

الدم ، ارتفعت زغاريد النساء ، وأطلق بعض أصدقائه الرصاص من بنادقهم اعجاباً ، (وهز) آخرون بأيديهم علي كتفه - مبشرين - ويصر الشبان على المزيد من سياط العريس ... ويتتابعون امامه واحداً بعد واحد ، وسوطه يهوي على ظهورهم في قوة وعنف ... وهذا لون فريد من الاكرام.

والآن يا صاحبي ، اذا اتاح الله لك زورة البادية ،واستقبلك الحي من بعيد ببيوت الشعر الداكنة ، السوداء و الربداء ، ووقع بصرك من بينها علي خباء أبيض صغير مربع ، من الدمورية البيضاء فقط ، فاعلم ان بداخله عروسين جديدين يستمتعان باطيب عهود العمر ، فبارك لها حياتهما الجديدة واسأل الله لهما السعادة ...



نقرس سادراتی

ديفز على ظهر جمل

أما هذه المرة فسأستمع انا والقراء لحديث موظف بريطاني هو المستر رجنالد ديفز الذي التحق بخدمة حكومة السودان كمساعد مفتش عام ١٩١١ وعمل فترة في دارالكبابيش ، وقد ألف كتاباً بالانجليزية اسمه (علي ظهر جمل) سجل فيه بعض ذكرياته الطريفة إبان عمله في مختلف أنحاء السودان ، وقد آثرت ان انقل هنا بعض ما جاء في مذكراته عن دار الكبابيش لنري كيف كان الاداريون البريطانيون ينظرون ويقيّمون ما حولهم من مظاهر الحياة في بلادنا .

جاء في مقدمة كتابه معرفاً بنفسه انه تخرج في جامعة كمبردج واختير للخدمة في الجهاز الادراي لحكومة السودان عام ١٩١١ ، وبعد اختياره قضي سنة كاملة بجامعة اكسفورد في دراسة اللغة العربية ، وعلم الاجناس والمبادئ الأوليه لطب المناطق الحارة ومسح الأراضي وتخطيطها .

وبعد وصوله للسودان قضي فترة تدريبية بمركز ام درمان في قصر الخليفة عبد الله (المتحف حالياً) وبعد أن أكمل الفترة التدريبية في شؤون الادارة تم نقله لمديرية كردفان ... ويبدأ مذكراته بقوله :

« إن مفتش المركز في مديرية كردفان يقوم برحلات رسمية في معظم ايام السنة لمناطق المركز المختلفة لتصريف شؤونها ، ويعتمد المفتش في ترحاله علي الجمل كوسيلة للنقل ، ولذا يكون الجمل دائماً علي اهبة الاستعداد للرحيل ... وفي فصل الصيف يبدأ الاستعدادللرحيل منذ الساعة الثالثة والنصف ، عندما يأتي الخادم بالشاي ويقول للمفتش(الشاي حاضر افندم) ! . أما في فصل الشتاء فيتأخر الرحيل قليلاً عن ميعاد الصيف .

وفي اول رحلاتي الرسمية علي ظهرالجمل وجدت صعوبة في ركوبه وكنت أشعر كأنما أركل في جنبي ، مع العلم بأن متعهد النقل والترحيل أخبرني بأنني استطيع أن أشرب علي ظهر الجمل فنجالاً من القهوة دون ان تنسكب قطرة منها ...

ولقد أدهشتني معرفة العرب للصحراء ودقة ملاحظاتهم ، أذكر أننا عندما كنا نتجه جنوب غرب (ام دم) كانت تقابلنا آثار أقدام بعض الناس ، فكان رفاقي من العرب يصفون لي اصحاب ذلك الاثر ويحددون الفترة الزمنية التي مروا بها فيتملكني العجب واكاد لا اصدقهم ، الا أنه تتضح لي صحة أقوالهم فيما بعد . . .

ان البدويين في غرب السودان يلبسون (الشباطة) في الطريق الوعرة،ويخلعونها ويحملونها في أيديهم خشية ان تبلي إن كان الطريق سهلا . . . وذات مرة أخبرني احد رفاقي من البدويين أن الاثر الذي نراه امامنا لرجل وامرأة ومعهما خادمهما ، وبعد ان سرنا مسافة ليست بالقصيرة وجدناهم تحت شجرة في الصحراء فازدادت دهشتي لدقة الوصف ! .

واذكرأيضاً ان افتقد أعرابي ناقة وظل يبحث عنها عدة سنوات ولم يجدها ورحل الاعرابي لمنطقة اخري ، فوجد في الطريق (قعودين) استرعي انتباهه طريقة مشيتهما اذ انها تشبه مشية ناقته المفقودة ، ومن ذلك تعرف علي ناقته المفقودة ، وكان تقديره صحيحاً .

ان البدويين رغم جهلهم بالقراءة والكتابة الا انهم يستطيعون قراءة اي اثر علي الارض دون ان يخطئوا .

لقد اضيفت (أم دم) لمدينة بارا وبذلك نشأ مركز شمال كردفان عام ١٩١٣ وكان مفتش مركز بارا آنذاك المستر كورين ثم خلفه مستر دوجلاس كربج وقد عينت آنذاك مفتشاً لدار الكبابيش في يناير ١٩١٥ .

إن الشيخ علي التوم ناظر الكبابيش آنذاك شخصية فذة ، جميل الهندام أسود اللون الا أن ملامحه عربية أصيلة ، له جاذبية ساحرة لا يعرف القراءة ولكن ذكاءه خارق ، وله عقل كعقل لاعب الشطرنج الممتاز وقد لمست ذلك من لعبة معقدة تسمي (ام البنات) وهي كلعبة (السيجة) . تجهز باثنتي عشرة حفرة و٤٨ حجراً صغيراً ، وأكثر ما تلعب هذه اللعبة في شهر رمضان وهو الشهر المفضل لها اذ ينسي لاعبها العطش لانغماسه في التفكير في طريقة اللعب وقد كان الشيخ علي التوم يجيد حساب تلك اللعبة ، بتركيز شديد ، وقد كنت ألاعبه هذه اللعبة وأعجز من مباراته فيها ، وفوق كل ذلك فهو صاحب روح عالية وشهم كريم وتفكيره علي مستوي عال مما يجعله يدير شؤون قبيلته بجدارة .

وحتي عام ١٩١٣ كانت الحكومة لا تتدخل في شؤون قبيلة الكبابيش الا في احوال نادرة ، وكانت الضريبة السنوية التي تدفع للحكومة من كل القبيلة ١٠٢٠ جنيهاً (الفاً وعشرين جنيهاً) تسدد في موعدها في خزينة بارا ، وأن الشكاوي و الجرائم لا

تنظرها محاكم الحكومة ، وبالرغم من ان محاكمات شيخ القبيلة قاسية الا انه لم تصدر ضده أية شكوي ، بل العكس ، فإن القبيلة تعتز به اعتزازا شديداً وتدين له بالولاء ... تسمع ذلك منهم عندما تسألهم امام اي من الناس ، الي اي قبيلة تنتمون ؟ فتكون اجابتهم ببساطة (نحن ناس علي التوم - او ناس ود التوم) ! .

كنا نجد لذة في التحدث مع شيوخ العرب ونحن نرشف القهوة . كذلك نجد متعة فائقة في التحدث مع بقية الناس الذين لا تربطنا بهم اعمال رسمية ... فنسمع منهم بعض الطرائف الشيقة ونشاهد عاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم .

من عادات البدويين الا يظهر الرجل آلامه اذا اصيب بجرح مؤلم ، بل إن شباب البادية يبحث عن المخاطر والالآم ليبرز شجاعته ولينال المدح والثناء من الجنس الآخر .

كنت أرسل أحدهم اسبوعياً بالجمل لاحضار البوستة من بارا كالخطابات وتلغرافات رويتر وبعض المأكولات والزجاج المعبأ ، كان احد رفاقي البدويين يذهب للصيد في الفلاة بمعدات من صنعه ، فأس وسكين وشرك ، ويستعمل دهاءه العجيب ... الا أنني كنت استعمل بندقيتي في الصيد ...

اما النساء فهن دائماً في شغل دائب ، فهن ينسجن الخيم من الشعر والصوف ويجهزن الطعام ويقمن بشؤون المنزل الاخري ، ويذهبن للآبار لملء « القرب والسعون » ويحملنها علي ظهور الحمير الي حيث يقيمون ،ويذهبن مسافة تقدر باكثر من الميل لاحضار « القش » لاغنامهم المنزلية ... إنهن لا يعرفن الخجل عندما تتاح فرصة التحدث اليهن ، واسرع من الرجال فهماً ... اذكر ان تحدثت مرة عند احدي الآبار مع رجل فلم يفهمني وبدت عليه الحيرة ، وتدخلت امرأة في الحديث قائلة له : ألم تفهمه ؟ انه يسألك كم رجلاً يبلغ عمق البئر ؟!

وقد لاحظت ايضاً ان المرأة تربط ساقها بخيط رفيع بين مفصل القدم والساق ربطاً شديداً ، مما جعلني ادهش اذ ان الربطة ربما تحتجز الدم وتسبب اذي جسيماً ، وعندما سألت احداهن عن السر في هذه الربطة أجابتني ان لم تفعل ذلك لا تكون (بت ابوها) . !

ولقد كنت اتساءل كيف يستحم البدويون ويغسلون ملابسهم ، ذلك لأن (الصابون) لا يوجدالا في خيام الاثرياء منهم ، اما الماء فهو مشكلة دائمه حيث تأخذ عملية استخراجه من البئر وقتاً مضنياً طويلاً ، وهو لا يتوفر لهم الا في فصل الخريف .

وقد لمست حلاً لمشكلة الاستحمام عند النساء ، ففي ذات يوم كنت أحمل بندقيتي وأجوس خلال واد كثير الاشجار عساني اجد صيداً ، فرأيت دخاناً ينبعث من شخص يلتف بثوب اسود وهو يجلس بانحناء . فسألت الجندي الذي يصحبني عن هذه الظاهرة

، فقال انها امرأة توقد ناراً من اغصان شجر (الكتر) في - حفرة دخان - مما يعطيها رائحة زكية حلوة لزوجها .

ان الكرم عند البدويين لهو مضرب المثل ، ربما يبلغ احياناً حد الاحراج اذ انني اعرف ان الكبابيش - كافراد - ليسو بالاثرياء ، ما عدا قلة منهم (١) وكنت عند تجوالي بين احيائهم اتجنب بقدر الامكان ان احط رحالي ومن معي الا عند الاثرياء منهم ولم اكن اجد صعوبة في هذا اذ ان عملي يكون دائماً حول الآبار وعادة تبعد قليلاً عن خيام العرب - وكنت والبوليس والخدم - نحمل غذاءنا والعيش ولا نحتاج الا للماء من الآبار ، ونجد اللبن في طريقنا ميسوراً .

وفي عصر يوم اردت ان اعبر طريقاً بالقرب من حي شيخ بدوي اعرف انه ليس من ذوي الثراء ، ولما رأي ركبنا يتجاوز حيه اسرع نحونا وهو يعدو ويلهث ويستنكر ما فعلناه من عمل مخجل في نظره ، وقال لي هل تريد ان تحط من مكانتي بين اهلي فيقال عني اني لا اكرم الضيف ؟ - وأمسك برسن الجمل وقادنا الي خبائه ... وفي الحال ذبح كبشاً تناول اتباعي من لحمه طعام الغداء ، واصر الشيخ ان يقدم لجمالنا (علوقاً) مما كان يختزنه من الذرة الغالية والتي اعتاد ان يشتريها من مكان يبعد نحو المائة ميل ، لان البدويين لايزرعون .. ان كل بدوي مهما كان فقيراً يظهر نفس روح الكرم والشهامة .

وفي كل صباح يزدحم مكان البئر بالابل والخراف مما يثير طبقة من الغبار لها رائحة خاصة واضحة ، اما في الوديان فقد كنت أري الخراف والغنم ترعاها فتيات صغيرات وهن عرايا الا من (الرهط) ويحملن عصياً طويلة يهزون بها الشجر ليتساقط منه الثمر وتأكله الغنم .

كانت الامطار غزيرة في دار الكبابيش عام ١٩١٦ ، فتوفر الماء والمرعي بما لم يحدث منذ امد بعيد ، وقد امتلأ اكبر حفير في دار الكبابيش لأول مرة منذ ثلاثين عاماً - وقال لي البدويون ان مياهه ستكفي كل ابلهم حتي امطار العام القادم ، وقد وجدت مياهه عميقة جداً حتي يمكن السباحة فيها ...

وبالرغم من انني جئت في مهمة تسجيل ما عند كل منهم من الابل لتقدير الضريبة وهو امر بغيض لديهم - الا انهم بسبب هذا المطر الغريز استبشروابي خيراً وقالوا ان (كراعي لينة) وتبدلت نظرة السخط بالرضا ! .

لقد كان من بين أعواني في تعداد الابل وتسجيلها بتلك المنطقة في ذلك العهد « خلف الله خالد » وهو ضابط سوداني (٢) ، ومعه آخر مصري الجنسية .

(١) هذا عام ١٩١٥ عندما كان ديفز مفتشاً للكبابيش ، اما الآن فانهم من الاثرياء .

(٢) يعني السيد خلف الله خالد وزير الحربية السابق .

ان المثل البدوي الذي أعجبت به وما زلت اذكره ، المثل السائد بينهم والذي يقول : (الكلب ينبح والجمل ماشي) ! . وهو مثل يضرب لمن لا يهتم بما يعترضه من الصعاب .

النشوغ - الجزو

كلمتان لا يعرف ما يكمن خلفهما من حياة وحركة الا من عاش بين مضارب البادية ، وعرف حياة البدويين .

كان اول مجيئى للبادية في مستهل فصل الصيف ، اسوأ الفصول لدي البدويين ، وقد لقيتهم حول آبار الحمراء يتأذون من قيظ الصيف وشح الماء .

وكنت كلما جلست في حلقة من البدويين لا أسمع منهم الا تلهفهم للنشوغ ، وكنت اسمع هذه الكلمة بادئ بدء دون ان أدرك ماذا يعنون بها ثم عرفت عنها كل شئ بل عشتها معهم مدي اربع سنوات .

فالنشوغ يعنون به رحلة الخريف . فمنذ ان تبدو علي الافق السحب التي تومئ الي استهلال فصل الخريف تتملكهم البهجة وتستبد بهم فرحة النشوغ فتراهم يتحرون في دقة انباء تساقط الامطار في انحاء البادية ،وما تكاد سحابة (ام بشار) تبدو علي الافق هنا وهناك حتي يأخذ كل بدوي في تهيئة نفسة لرحلة الخريف ... او النشوع وتعد كل امرأة هودجها وتصلح عيدانه وزينته .

وفي تلك الليالي تسمعهن يتغنين فرحات بظهور (أم بشار) علي الافق موحية ببدء الخريف ، وكأنهن يرين الرجال والشبان علي ظهور الجمال يعدون نحو المناهل والمراعي ماء الصحراء من حولهم وقد تفرقوا زمراً زمراً يجنون ثمار الخريف مرعي وماءً ، ونضرة تكسو الارض والشجر ، فيهتفن بهم ان يتجمعوا في مكان واحد ،فان فرقة الاحباب قاسية ، حارة كلهيب النار :

من طيرة ام بشار
جاني السلف قطار
اتلموا يا عمار
فرق الموالف حار

وتهطل الامطار غريزة ، وتتالي انباؤها من مختلف الوديان وما أسرع البدويين في

حمل انبائها ، وما أدقهم في وصف وتقدير مداها حتي اذا تجمعت (للشيخ) الانباء المطمئنة دوي صوت النحاس معلنا بدء رحلة النشوع ، ويظل النحاس يدوي فترة غير قصيرة منذ غروب الشمس ، فاذا ما ذر قرن الشمس كانت المنازل كلها ملقاة علي الارض وقد ربطت بالحبال وأعدت لتحملها الجمال وانهمكت النساء في إعداد هوادجهن ، وتزينها بالاجراس وقطع الجلود المزخرفة بالودع والقصدير وريش النعام .

وتبدأ الرحلة فترى علي مدي البصر هوادج تتدلي علي جانبيها سيور دقيقة الصنع مرصعة بأجراس مختلفة الاحجام ، تبعث نوعا من الموسيقي تألفة النفس ويضفي علي الجو الطبيعي نشوة نفسيه عميقة ، فالجو غائم ، والارض مخضرة ، والربوات التي كانت جرداء كساها عشب أخضر فبدت نضرة رائعة ... (والظعن) كما يسمونه ، وهي كلمة عربية فصيحة كما تري ، يسير بين هذا الجمال الطبيعي الآسر ، ولا يلبث في مكان واحد الا يوماً او بعض يوم ، فما يطيق البدويين في فصل الخريف الاقامة في بقعةواحدة الا ريثما يتحولون عنها ... وبودهم لو جابوا كل قطعة من ارض البادية ، ونهلوا من كل واد ولاتحسبن انتقالهم من مكان لآخر يجري اعتباطاً ، وانما يسير وفق خطة محكمة ، فهم يعرفون كل شبر في الارض ، وكل مرتفع ومنخفض ، وكل واد وكل مرعي ، فاذا ما قرروا الانتقال الي مكان ما ، اوفدوا اولاً رسولين من خيرة الرجال الذين يعرفون ما يتطلبه البدويون من الميزات التي يجب ان تتوفر في المكان المراد الانتقال اليه ، ويخرج هذان الرجلان في الصباح الباكر علي ظهر جملين سريعين ، حتي يبلغا المكان المقترح لنزول الحي ويطوفان به كله ليعرفا حاله وما به من نبات وماء ، وكم من الايام يكفي لنزول الحي ، ولا يتركان جانباً منه الا وفتشاه بدقة ، ذلك لانهما سيقفان موقفاً دقيقاً امام رجال الحي عند عودتهما ، وعليهما ان يعودا في نفس اليوم ، وقل ان يبيتا بعيداً ، ويكون كل رجال الحي تقريباً في ارتقاب عودتهما امام دار الشيخ ، وعندما يستقر بهما المقام ، يشرحان شرحاً مستفيضاً كل مشاهداتهما في المكان الجديد ، ويركزان اكثر علي الماء والمرعي ، حتي اذا ما فرغا من الادلاء بما عندهما انهالت عليهما الاسئلة من كل جانب ، فهذا يسأل عن مكان ما برأس الوادي مثلاً هل بلغته الماء ؟ وآخر يسأل عن ثنية ما . وثالث عن جانب من ربوة هل نبت عليه الكلأ ؟ انهم يعرفون لمكان شبراً شبراً ، والرائدان يجيبان في دقة ووعي حتي تتجلي صورة المكان الجديد واضحة للجميع ، ولم يعد يخفي عليهم منه شئ ، وعندها يعلنون الرحيل اليه اوالعدول عنه الي مكان آخر يوفدان اليه رجلين آخرين ليقوما بنفس المهمة ــ والرجل الذي يرسل ليعين المكان الجديد المقترح لنزول الحي يسمونه .. (الذّور) والذور لا يكون عادة الا ممن

يمتلكون قدراً من الابل لان اهتمامه بتقصي موضع الحي الجديد يكون شديداً . . . ومن هنا جاءت اغنية الفتاة التي سخرت من الرجل الفقير ، مبدية إعجابها بالغني صاحب (ام زور) كناية عن الناقة الذي يوفد كل ليلة (دوراً) باحثاً عن مرعي جديد لابله

يافقيري ماك زول
ساكت مزامل الكور
عاجبني سيد (ام زور)
كل ليلة راكب (دور)

ثلاثة اشهر ، وهي اشهر الخريف ، وليس للبدويين مكان معلوم يستقرون به . . . كل الارض دار لهم ، ما دام المطر منهمراً ، والوديان تسيل امواهها والارض مخضرة النبت . . . انها اسعد ايامهم وأعذبها وأحبها الي قلوبهم فإذا ما انقضت عادوا الي (الدمر) ويعنون به مقرهم حول الآبار في فصل الصيف ، حيث لا تبقي قطرة ماء في الوديان من بقايا الخريف ، يجترون ذكريات النشوغ واحداثه السعيدة ، والصيد الذي غنموه وقد أعجزه الجري بسبب المطر ، كل يروي قصصه في نشوة واعجاب . . . وينظرون الي الآفاق يرقبون من جديد طيرة – ام بشار – إيذاناً بقرب النشوغ ، فتتجدد الفرحة وتبدأ الحلقة من جديد دورتها الحبيبة الي نفوسهم . . .

والجزو ؟ ما شأنه ؟ ماذا يكون في حياة البدويين ؟ في اعقاب الخريف يجتمع البدويون حول المناهل الكبري التي تحتفظ بماء المطر فترة طويلة قد تبلغ الثلاثة اشهر واشهرها منهل ام (قوزين) . . .

وكما يتردد الحديث ونحن في (الدمر) حول الآبار عن النشوغ وترقبه في شوقه ولهفة ، كذلك يبدأ الحديث عن الجزو ، ونحن في اعقاب الخريف حول منهل (ام قوزين) .

والجزو مرعي شتوي صحراوي ، يقع علي حدود الصحراء الكبري ، يتسابق اليه البدويون علي قسوة الحياة فيه لأنه مرعي جديد لابلهم حيث تسمن فيه وتتكاثر . . . وتهب رياح الشتاء الباردة علينا في (ام قوزين) ويكون هذا ايذاناً لتجمع الشباب واستعدادهم لرحلة الجزو ويسوقون امامهم الألوف من الابل هي ثروة القبيلة وعماد حياتها . . .

ولا حديث في حلقات الاجتماعات الا عن الاستعداد للجزو .

وفي داخل الاخبية شغلت النساء باعداد دقيق الذرة والبصل والحلبة والكمون الاسود والثوم للشبان المتجهين صوب المرعي الصحراوي البعيد ، وهذه الحاجيات من مستلزمات

حياتهم هناك ، فدقيق الذرة ليصنعوا منه (العصيدة) او - « المطالة » - التي هي نوع من (القراصة) يصنعونها في حفرة مليئة بالجمر أشبه بالفرن ... اما الحلبة والكمون الاسود والثوم فلكي تضاف الي لبن الابل ليكون شراباً سائغاً لطيفاً يسمونه (اللبن القارص) وهو في طعم (الروب) المعروف لدينا .

ويودع الحي الشباب وداعاً حاراً وهم يخرجون جماعات جماعات ليلحقوا بابلهم ويسوقونها صوب الجزو ...

وهناك يعيشون عيشة مضنية قاسية لا يحتملها الا من أوتي الصبر وقوة الاحتمال والشجاعة ... فالماء غير موجود لا سبيل اليه الا في احوال نادرة جداً وهم يستبدلونه بهذا اللبن حليباً وخاثراً ... حتي الشاي الذي يحبونه حباً فائقاً فإنهم يصنعون من اللبن الخالص دون ماء .

ويحدثني « ابراهيم » عن حياة الجزو وهو صديق بدوي كان كثير التردد علي خيمتي ومن رواد الجزو سنوياً ، كان حريصاً علي ان يهدي اليَّ كلما عاد من الجزو اطيب الهدايا التي يعودون بها من هناك وتكاد تنحصر في شيئين هامين ... اللبن القارص وقد وضع في (سعون) صغيرة وأضيف اليه البصل او الثوم والحلبة ، فطابت نكهته ... وكانت خيمتي عند عودتهم تكتظ بهداياهم من (سعون) اللبن القارص . وانا اشربه في لذة ومتعة ، وانه لخير بكثير مما كنا نأكل من الطعام البدوي البسيط ... اما الهدايا الاخري ، فلحم بقر الصيد الذي يكثر في اطراف الصحراء ...ويحدثني ابراهيم كيف يخرجون للصيد ، ببنادقهم بحثاً عن بقر الوحش هذا وهو صيد ضخم في حجم البقر ، فاذا ما صادوه ، عمدوا الي لحمه وقطعوه الي شرائح رقيقة وأضافوا اليه قدراً من الملح وعرضوه للشمس ليجف . فاذا ما عادوا لاحيائهم كان هذا اللحم - القديد - المملح الناشف (كالشرموط عندنا) احب ما يهدي .

والبدويون يأكلون هذا اللحم دون ان يعرضوه للطبخ بالنار ، وفي الواقع انه يكون ناشفاً الي الحد الذي يمكن ان تسحقه باصابعك فيستحيل الي دقيق ناعم احياناً ... وقد استطبته جداً ، بل كنت في كثير من رحلاتي احمله في جيبي كما يحمل احدنا البلح وكلما أحسست بالجوع ، والجمل يرقل بي أخذت قطعة منه وأكلتها كما يفعل كل البدويين .

ويحدثني ابراهيم كيف انهم عندما يشتد البرد ويقسو - وهو شديد القسوة في الصحراء - يحفرون حفراً عميقة في الرمل لتكون مأوي لهم .

ويدخل كل منهم في هذه الحفرة ويستلقي بداخلها ثم يطرح فوقه كل ما كان لديه

من ثياب وغير ثياب ، فكأنه في قبر . . . بهذا كانوا يتقون قسوة الشتاء حتى اذا ما خفت وطأته وبدأت طلائع الصيف اتقوها بأن يكون كل منهم قد أحضر معه بضعة عيدان من الخشب - اذ لا يوجد في منطقة الجزو هذه شجرة إطلاقاً - ويغرسها علي الرمل علي شكل (راكوبة) - خيمة - وينشر ثوبه فوقها ليقيه وهج الشمس . . . ومع هذا الهجير فلا ماء يستقون منه ، مكتفين باللبن . . . وقد اهتدوا الي وسيلة سهلة لتبريد اللبن عندما يبدوا الصيف ، فقد عرفوا انهم عندما يحفرون الارض قليلاً يجدونها باردة جداً فانتفعوا بهذه البرودة بأن صاروا يودعون باطن الارض اللبن القارص في (سعون) كبيرة ، ويتركون جانباً يسيراً من السعن بارزاً يدل عليه ، فاذا ما احتاج احدهم ليشرب منه انتزعه من الحفرة ووجده بارداً جداً فيأخذ حاجته منه ثم يرده الي مكانه . . . ثلاجة طبيعية لا تكلفهم شيئاً . . . والمرء يتعلم بالحاجة .

وقد كنت أعجب لقوة احتمالهم للشتاء القارس في ذلك المكان البارد ، وقد كنا في (ام قوزين) وعلي بعد منهم ،نحس بوطأته الشديدة ،فلا ننام الا اذا اوقدنا حولنا قدراً كبيراً من الحطب للدفء يظل موقداً داخل الخيمة طوال اليوم . ومع هذافقد كنا لا نتحمل وطأة البرد . . . وكثيراً ما نجد الماء في الصباح قد تجمد في (القرب) وصار كتله من الثلج .

فلا غرو ان جعلوا لهم مقابر داخل الارض مأوي من البرد ،

وترعي الابل ، في الجزو نباتاً يسمي (السعدان) وهو اشهي نبات ترعاه الابل ، وقد عرفه العرب قديماً وجري علي السنتهم في امثالهم فقالوا (مرعي ولا كالسعدان) . . . اي مرعي ولكنه دون السعدان .

وينتهي الشتاء ، ويعود فتيه الجزو الي الحي ، ولاتسلني عن يوم عودتهم وكيف يكون استقبالهم . . . انهافرحة طاغية ، وعيد لا يدانيه عيد . . . فالزغاريد ترتفع من كل بيت - والنحاس يدوي كالرعد . . . (والدلاليك) تعوي والنسّاء والفتيات يرقصن فرحاً ومرحاً . وصفقةورقص من النوع الكباشي الاصيل امام كل حي . . . وقد وصل ركبهم مزهواً ، وقد اختار كل منهم احسن جمل عنده ، مظهراً و مخبراً ، فكأنه يريد ان يعلن به عن مدي ما بلغته إبله في الجزو من صحة وعافية و نمو .

الرقص . . . والنحاس والزغاريد . . . والرصاص يئز ولا ينقطع ازيزه طوال اليوم . . . وكل من يلقاك فرحاً مرحاً . . . والخراف تذبح اكراماً واعلاناً عن طغيان الفرحة بعودة ركب الجزو .

ومدرستي تخلو من تلاميذها فنحن كلنا في عيد كبير ولا بد ان نشارك في هذه

الفرحة الطاغية من حولنا ، وان نهنئ العائدين بعودتهم وان نتقبل هداياهم من اللبن القارص ذي النكهة اللطيفة و شرائح لحم بقر الوحش الناشفة في كثير من التقدير والامتنان ، وان نقف قليلاً هنا وهناك مع الواقفين حول حلبات الرقص يشاهدون الفتيات يعبرن عن فرحتهم بعودة شباب القبيلة من رحلة الجزو الشاقة ... والرصاص يئز أزيزاً متصلاً فوق الرؤوس يعبر عن فرحة العائدين والمستقبلين معاً .

والجزو كلمة ذات اصل عربي أصيل ... هكذا أفادني البحث القيم الذي قام به الاستاذ محمد التجاني عميد معهد المعلمين العالي عندما قدم منذ سنوات للكبابيش ليدرس لغتهم ويردها الي اصولها العربية .

ففي معلقة (لبيد) المعروفة والتي مطلعها ...

(عفت الديار محلها فمقامها)

يقول :

حتي اذا بلغت جمادي سته ـجزءاً) فطال صيامه وصيامها

وهو يصف هنا ناقته عندما بلغا معاً أشهر الشتاء السته وتجمد الماء ... « والجزء » هنا يعني به المكان الذي ينعدم فيه الماء ولا يكون به غير نبات وعشب قليل تعيش عليه الابل ... واذا عرفنا ان الهمزة المضمومة في كلمة « الجزء » يمكن للتخفيف ان تنطق « الجزو » بالواو ادركنا ان التسمية عربية عريقة وردت في شعر لبيد الجاهلي ، بنفس المعني الذي يستعمله البدوي الكباشي اليوم في صحراء السودان !

ماذا اقول وقد طال المدي وما زال قلبي يخفق حنيناً وأنا أري بظهر الغيب شباب الجزو يعود الي الحي والنحاس يدوي فرحاً والفتيات يرقصن ويزغردن في مرح طاغ والرصاص يئز دون انقطاع ... هدايا اللبن القارص وشرائح لحم الصيد تنقل إلينا من العائدين فتضاعف من البهجة وتؤكد باننا في عيد لا يشبهه عيد ! ...



مع العباسي في البادية

ألا ما اعجب تصاريف القدر ، فقد كنت أعد في هذه السلسلة عن الكبابيش جانباً هاماً لذكرياتي مع الشاعر الفذ والصديق الوفي ،محمد سعيد العباسي اذ عشنا معاً في ربوع البادية وبين تلالها ووديانها ومضارب اهلها البسطاء الكرماء اطيب عهود العمر ، وشهدت مولد اروع قصائده التي اوحت اليه بها تلك الحياة الحلوة الساذجة البهيجة بين البدويين.

بالأمس راعني نعيه وأنا أتهيأ لأكتب عنه وأتحدث عن جانب من حياته وشعره في البادية . وشد ما حزنت . . . وكبر عليَّ ان نفقد هذا الكنز الغالي من الفضل والنبل والعلم والادب ، ولكنها الايام عودتنا ألا تطيب وتصفو ،وان الموت نهاية لابد منها لكل حي لو استطعنا ان نحتمل هول الفراق وغصة الوداع .كنا في مستهل الصبا مولعين بقراءة كتب الادب والشعر وتتبع آثار شعرائنا وحفظ ما يروق لنا من اشعارهم . وبدأت معرفتي بالعباسي عن طريق شعره ، ولم أره فقد كان عازفاً عن اجتماعات الاندية واعتلاء المنابر في المناسبات التي يتهيأ لها شعراء تلك الفترة - كنا نستمع الي « البنا » وعبد الله عبد الرحمن واحمد محمد صالح والمرحوم عبد الرحمن شوقي وصالح عبد القادر وغيرهم من شعراء الجيل الذي تتلمذنا عليه واخذنا عنه وتأثرنا به . ولكننا كنا نسمع عن العباسي ونروي ما يصل الينا من شعره دون ان نراه علي منبر من المنابر وكنا نحس في شعره بحرارة الوجدان وسمو المعني ومتانة النسج ، فنحبه ونجله ونتشوق الي رؤيته .

وفي عام ١٩٣٢ وانا في بادية الكبابيش سمعت عنه من البدويين السذج الذين كانوا يحبونه ويجلونه رغم انهم لا يعرفون عن شعره شيئاً ، لكنه كان يعيش بينهم كواحد منهم عدة اشهر كل عام . كان مولعاً بحياة البادية . . . يؤثرها علي حياة المدن ،وقد جاب وديانها وسهولها وجبالها وأحياءها ولم يترك منها مكاناً لم يزره ويبق فيه ردحاً من الزمن يتملي جماله وروعته ، وقليل من البدويين انفسهم من جاب تلك الصحراء الواسعة مثلما فعل العباسي ، وكان حبه للبدويين والبادية صادقاً عميقاً امتزج بكل مشاعره وتجلي واضحاً في شعره الذي ناجي فيه البادية وأحبابه فيها وكان كالبدويين ينتقي من

الابل آصلها وأحسنها مرأي ومخبرا ، وقد اشتهر بين البدويين باستجلابه للابل والنوق الجياد ينتقيها من خيرة الجمال والنوق في شرق السودان . . . مثلما كان نظراؤه في المدن يحاولون اقتناء السيارات الفارهة ، كان همه ان يحصل كل عام علي جمال صهب لم تشهد البادية في الغرب لها مثيلاً ويبدأ بها رحلة من الخرطوم ترقل به وتخدي بين الفلوات يشده آل ويخفضة آل حتي يبلغ البادية ، فيظل متنقلاً بين أحيائها المختلفة حيث يلقاه احبابه ومريدوه وأصدقاؤه بحفاوة البدوي التي لا كلفة فيها ولا رياء وكانت تعجبه تلك البساطة في حياتهم والصدق في شعورهم .

ولقد كان صادقاً كل الصدق . وهو يتحدث عن رحلاته هذه علي ظهور العيس من الخرطوم متجهاً للبادية في الغرب . . . يقول :

لم يبق غير السرى مما تسر له

نفسي وغير بنات العيد من عيد

المدنياتي من رهطي ومن نفري

والمبعداتي من اسري وتقييدي

أثرتها وهي بالخرطوم فانتبذت

للغرب تقذف جلموداً بجلمود

تؤم تلقاء من نهوي وكم قطعت

بنا بطاحاً وكم جابت لصيخود

نجد يرفعنا آل ويخفضنا

آل –وتقذفنا بيد الي بيد

وشد ما عانقت بالليل من عنق

يضني ، ومن حيف أخدود فأخدود

وفي مستهل عام ١٩٣٢ وأنا في حمراء الشيخ اذ برسول يحمل اليَّ رسالة منه ، يحدثني فيها عن وصوله الي الحي « حي اولاد طريف » - وهو في واد ممرع بالقرب من الحمراء - وانه في الطريق الينا . . . ويرجوني ان احمل تحياته الي صديقة الحميم الشيخ علي التوم فكتبت اليه متعجلاً زيارته للحمراء ،وحملت للشيخ علي - رحمهما الله معاً - تحياته ونبأ وصوله لحي اولاد طريف وزيارته للحمراء وقد كان العباسي صديقاً وفياً للشيخ علي معجباً به كل الاعجاب ، ولقد تأثر لوفاته وحزن عليه حزناً عظيماً ، ورثاه بأبيات كتبت علي لوحة خاصة (١) ووضعت علي قبر الشيخ علي حيث يطالعها اليوم كل من يقف عند قبر هذا الزعيم البدوي مترحماً وفيها يقول :

قف بمثوي السماح قبر علي زين اهل الندي وزين النديّ

(١) قام بإعداد اللوحة السيد محمد الكامل بخيت كاتب الشيخ علي الخاص وهو صديق حميم للعباسي .

جدث ضمنوه حلو السجايا ومحيا كبارق الوسميّ
ضل من يعشق البقاء وماذا في حياة يشقي بها كل حيّ
يا كريم الجوار لقيت بشري جنة الخلد في جوار النبيّ

وجاءنا العباسي في الحمراء ترقل به العيس وتخدي ، ولقيته لأول ، كهلاً مهيباً نضر الوجه طلق المحيا ، اقرب للبدانه رغم حياة التنقل علي ظهور الابل وحياة الشظف البدوية التي يحياها مع البدويين والقرويين ، وكان يلبس لبساً يدنيه من البدويين ، جلباب طويل يلف عليه ثوباً وكان يؤثر هذا الزي . ومضينا معاً اياماً طوالاً خالدة ذكراها في اعماق نفسي ، نخرج معاً علي ظهور الجمال نجوب الوديان من حولنا ونتملي حياة البدويين الوادعة وهم منبثون تحت الاشجار وعلي سفوح التلال والجبال في طمأنينة ورضاء رغم مظاهر الحرمان من طيبات الحياة التي ألفناها في المدن ، وكلما نظر خباء بدوياً منفرداً بين أجمة من الشجر تلعب به الرياح ، والاطفال يلعبون بجانبه وبعض الغنم ترعي من حوله والمرأة صاحبة الخباء أوقدت النار في ظل شجرة مورقة تصنع (العصيدة) التي لن يكون إدامها في الغالب غير لبن تحلبه من تلك الاغنام التي ترعي من حولها والرجل بعيد مع ابله ، او يرد الماء او تراه علي شجرة يجز فروعها (بفراره) ويلقيها ارضاً ليسهل لغنمه رعيها - كلما رأي مثل هذا المنظر - توقف عن السير يهوم طويلاً وينسي وجودي بجانبه احياناً ... ثم يعود اليَّ بفكره الشارد ليقول :

ما أشقانا في هذه الحياة ، تري اي سعادة نلقاها لو ان الله أتاح لنا الطمأنينة والرضاء كهؤلاء الناس الطيبين السعداء بحياتهم علي جفافها ! ؟ ماذا لو قسم الله لنا حياة آمنة هادئة كهذه ؟... وما جدوي هذا الطموح الذي يعذبنا ولا نلقي منه خيراً ؟ .

وفي حي (أولاد طريف) حيث يعيش عدد كبير من أحبابه ومريديه (١) ، كنا نجلس مع اولئك الاحباب وهم يحيطون به احاطة السوار بالمعصم ويديرون احاديثهم الساذجة التي لا تخرج عن محيط حياتهم البدوية ، وامام الخباء خروف مذبوح وعدد منهم يهيئ الحطب ويوقد النار ، حيث تتعالي رائحة الشواء الذي يقدم بين الفينة والفينة ، وفي تلك الجفان السود ، حاراً تكادلا تقوي الأصابع علي لمسه ، الا ان البدويين قد مرنوا علي ذلك ، فهم يلتهمون قطع اللحم وهي تكاد تكون قطعاً من الجمر ، وقد استل كل منهم مديته ليقتطع من الشواء ما يطيب له ، ونحن نجاريهم في هذا ، ونجد في ذلك

لذة ومتعة لا نجدها في طيبات الطعام التي الفناها في المدن ، وبجانب الشواء يدار علي الجالسين الشاي الاسود -و لا بأس - بل يطيب لهم ان يتناولوا جرعات الشاي خلال تناولهم للشواء . . .إ ذ ما يكاد الواحد يبتلع قطعة من اللحم حتي يشفعها بجرعات من الشاي ،ثم يعود الي اللحم ويشفعه بالشاي وهكذا دواليك ،حتي يشبع فيحمدالله تعالي ويمسح يديه ببعضها جيداً دون حاجة لغسلها بالماء ، وقد يمسح بهما وجهه ، او يمشط بهما شعر ذقنه المرسلة في غبطة بما أفاءالله عليه من نعمة هذا الطعام الهنئ ، وقد يدلك بهما باطن قدميه أيضاً ! .

ولقد كنا نسايرهم في كل عاداتهم من حولنا الا هذه -- ألا نغسل أيدينا بعد تناول الشواء ، اذ نصر علي طلب الماء وغسل أيدينا ، وقد ألفوا ذلك منا فكانوا يعدون لنا الماء سلفاً كلما تهيأنا للأكل معهم .

وكانت نساؤهم وبناتهم من حولنا ، في براءة يتقدمن الي الشيخ العباسي ويقبلن يده في اكبار واحترام ولقد ذكرت في كتابي (ملامح) كيف كنت أعابثه بشعرالشريف الرضي كلما قدمت حسناء فارعة القوام ممشوقة القد فتهوي الي يده لتقبلها فأنشده في صوت خفيف والسرور يشع علي وجهه المشرق :

أهوي لتقبيل يدي فقلت : لا ! بل شفتي !

ويشاركني الانشاد لأبيات اخري للشريف الرضي في مثل هذا الموقف :

ومقبل كفي وددت لو انه أوما الي شفتيَ بالتقبيل
جاذبته رف الكلام وبيننا كبر الملول وذلة المملول !
من لي به والدار غير بعيدة من داره ، والمال غير قليل

ولكن العباسي يأبي الا ان يروي البيت الأخير علي النحو التالي :

من لي به الدار غير بعيدة * من داره « وعليَ برد شباب ! »

وكان حرياً به وقدكان في نهاية الحلقة الخامسة آنذاك ان يؤثر الشباب علي المال . . . فالشريف الرضي كان يتمني ان تكون دار الحبيب بالقرب منه والمال وفير بين يديه ، اما العباسي فهو يتمني قرب الدار وأن يعود اليه الشباب ! وما اقسي أن يذهب الشباب عن أولئك الذين كان شبابهم ربيعاً ندياً ملأوا كل لحظاته بالممتع الهنئ والطيب المرئ . . . وكان العباسي أحد هؤلاء الذين كان شبابهم ربيعاً ندياً . .

كنت أقرأ له مثل هذا الشعر فأعجب له :

استغفر الله لي شوق يجدده ذكر الصبا والمغاني أي تجديد
ان زرت حيا طافت بي ولائده يفديني فعل مودود بمودود

وكم برزن الي لقياي في مرح　　　وكم ثنين الي نجواي من جيد
لو استطعن وهن السافحات دمي　　　رشفنني رشف معسول العناقيد !

كنت اعجب كيف جعل العباسي من نفسه معشوقاً تكاد ترشفه الحسان رشف معسول العناقيد ! .

وقد ذكرت ذلك مرة لشيخ جليل أديب من أصدقاء العباسي ورفاق صباه وكنت توهمت أن العباسي انما يتأثر في وصفه وتصويره لالتفاف الحسان حوله وإعجابهن به بالشاعر الحجازي عمر بن أبي ربيعة الذي اشتهر في شعره بذكر تعلق الحسان به وتهالكهن عليه . .

قال محدثي انك لم تر العباسي في شبابه ، فقد كان من أجمل شباب عصره وأنضرهم عوداً ، وعندما كان طالباً في المدرسة الحربية بالقاهرة كان محط اعجاب فتيات القاهرة به ، اذ كان فارع القوام واضح الرجولة وسيماً نضراً .

ولهذا لم أعجب قط ان اري العباسي كثير البكاء علي شبابه ، تكاد لا تخلو قصيدة من شعره من ذكر ذلك الشباب الغابر والحزن علي ذهابه ، وان اري في هذا الشعر صورة حية من افتتان الحسان به ، فإذا ما طاف بحي منهن برزن الي لقياه في مرح وثنين الي نجواه اجيادهن ، ولو استطعن لرشفنه رشف معسول العناقيد ! . . .

وقد ظل العباسي حتي في شيخوخته محتفظاً بهذا القوام الفارع القوي وبوسامته التي لم تطغ عليها الشيخوخة الي الحد الذي يخفي معالمها كل الاخفاء .

وقد كان من اهم اسباب احتفاظه بقوته ونشاطه وحيويته حتي آخر سني عمره رحمه الله ، تلك الحياة البدوية الخشنة التي كان يحياها في ربوع البادية اذ كان يظل الشهور الطوال علي ظهور الجمال متنقلاً بين شبه الصحراء ، وتلك رياضة شاقة لا يقوي عليها إلا من أوتي مثل عزيمة العباسي وجلده واحتماله .

قلت اني لقيت العباسي لاول مرة عام ١٩٣٢ في الحمراء مقرّ زعيم بادية الكبابيش وكنت مشوقاً الي لقائه معجباً بشعره قبل أن اراه ، وفي لقائنا هذا كان العباسي قادماً الينا من مليط وهي بليدة صغيرة تقع في مديرية دارفور ذات جمال طبيعي أخاذ ، وأمواه وأشجار ونخيل ، وقل ان تري النخل في كردفان ودارفور ، والعباسي مولع بكل بقعة تسخو فيها الطبيعة وتجود فلا عجب ان تفتنه مليط فيشد اليها الرحال ليتملي جمالها وهو المولع بالجمال في كل شئ . . . ومن مليط اسرع الي بادية الكبابيش وهو ينظم قصيدته الرائعة عن مليط ، ولما بلغ الحمراء ، كانت قد اكملت الا قليلاً ، وفي ظلال الحمراء وبين خيامها ووديانها حيث كنا نتنقل معا ، كان يقرأ علي هذه القصيدة ، ويجود في بعض

كلماتها ، وكان العباسي ينتقي كلمات شعره كما ينتقي الجوهري كرائم الجواهر . فإذا ما طاب واستقام له اللفظ الذي يريد ، انتشي وأخذ ينشده بصوته الساحر الأخاذ ، ولقد أشرت اكثر من مرة الي جمال صوت العباسي وحلاوة إنشاده للشعر ، وقبل ان أسمع العباسي ينشد الشعر بصوته الرائع كنت قد التقيت بالشاعر الغنائي المبدع خليل فرح عقب ان ظهرت « اسطوانة » في اغنية (عزَ) وقصيدة عمر بن أبي ربيعة (أعبدة ما ينسي مودتك القلب) وكنت مأخوذاً بهما كغيرى من الذين استمعوا اليهما ، فقال لي الخليل : إنه حاول في قصيدة ابن ابي ربيعة ان يحذو العباسي في انشاده للشعر ولكنه أخفق ان يدانيه ،وظننت الخليل يتواضع كعادته عندما يتحدث عن نفسه فلما استمعت للعباسي ينشدني لاول مرة قصيدته عن مليط تبين لي صدق قول الخليل ، وانه لمما يضاعف من أحزاننا علي فقده الا يسجل إنشاد العباسي للشعر ، وان يصمت هذا المزمار العذب دون ترجيع لألحانه ،ولقد حاول صديقه وراوية شعره الاستاذ حامد العربي أن يقلده فأحسن في هذا بعض الاحسان - اعود لقصيدة مليط التي كان العباسي يعالج تجويدها في الحمراء استهلها بقوله :

حياك مليط ثوب العارض الغادي
وجاد واديك ذا الجنات من وادي
فكم جلوت لنا من منظر عجب
يشجي الخلي ويروي غلة الصادي
أنسيتني - برح آلامي وما أخذت
مني المطايا بإيجاف وإيخاد
كثبانك العفر ما أبهي مناظرها
أنس لذي وحشة رزق لمرتاد
فباسق النخل ملء الطرف يلثم من
ذيل السحاب بلا كد وإجهاد
كأنه ورمالاً حوله ارتفعت
أعلام جيش بناها فوق أطواد
وأعين الماء تجري من جداولها
صوارماً عرضوها غير أغماد
والورق تهتف والأظلال وارفة
والريح تدفع ميادا لمياد !

لو استطعت لأهديت الخلود لها
لو كان شئ علي الدنيا لإخلاد

وإنك لتري في هذا الشعر الصادق العذب مليط بكثبانها ووديانها ونخلها الذي يكاد يلثم ذيل السحاب وجداول الماء التي تشبه السيوف غير مغمدة والطيور تهتف وتغني والظلال وارفة ، والريح تدفع بالغصون فتميد علي بعضها ... صورة من جمال الطبيعة الساحرة وجدت الشاعر الساحر الذي يجلوها للناس في شعر سلس عذب ، وما اجمل الطبيعة وأسخاها في بلادنا لو وجدت مثل العباسي ليجلو محاسنها في مثل هذا النسق العالي من الشعر ...

ومن وفاء العباسي انه كان يحرص علي ارسال صور من كل قصيدة جديدة ينظمها الي رفاقه الخلصاء وكان يهمه ان يستمع الي آرائهم فيها ، واذكر انه ما كاد يفرغ من تجويد هذه القصيدة بين مضارب البدويين في الحمراء حتي طلب مني ان أبعث بصورة منها لصديقه الوفي الحميم الاستاذ الجيل حسن احمد بشاشة مد الله في عمره ومتعه بالعافية ، وكان آنذاك يعمل مدرساً في مدرسة ام درمان الابتدائية ،وقد فعلت .

وظل العباسي معنا لفترة غير قصيرة وهو يجوب البادية عرضاً وطولاً وكنت أرافقه أحيانًا في بعض تجوالى هذا ، وأتخلف احياناً بسبب عملي في مدرستي البدوية المتنقلة مع الحي والتي اتخذت لها من ظلال الاشجار مكاناً ومن الرمال البيضاء مقاعد للتلاميذ ! ... وكان العباسي في أي حي بدوي حل يقابل بالترحاب والمودة اذ كان البدويون كما قلت يعرفونه ويؤثرونه بالود الصادق ويحتفون بمقدمه .

وفي زيارته هذه وبين ربوع الحمراء وأحيائها نبت في قلبه حب قوي عنيف وما كان لقلب كقلب العباسي ووجدان كوجدانه المشبوب الا ان ينفعل بهذا الجمال البدوي الساحر من حوله ، وتبدت له الحمراء بتلالها ووديانها ورمالها وأناسها وحيواناتها قطعة من الجنة كم تمني الخلود فيها ! لو كان شئ علي الدنيا لإخلاد ،وبدأ لي العباسي الانسان وهو يتعذب بحبه العفيف الطاهر في أروع حالاته ! ... كان يجلس معي الساعات الطوال ويلح عليَّ ان اقرأ له من لزوميات المعري وكان مولعاً بها كل الولع وكاد يحفظها عن ظهر قلب ،فاذا ما أحس مني بالاعياء ،وان الوجد ما زال مستعراً بقلْبه ، تركني جانباً وأخرج مصحفه وأخذ يتلو القرآن ليجد فى آيه ما يبرد الغليل ... وكان مرح الشباب يدفعني كثيراً الي معابثته ،فكنت ... اذا ما فرغ من تلاوة القرآن بعد ان يكون قد استمع من قراءتي في شعر المعري ... انظر اليه وأقول ضاحكاً : « رحم الله إبن الدمينة

حيث قال : بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ! » فيضحك - رحمه الله وتسري عنه مداعباتي هذه .

ويقرر السفر ونخرج لوداعه علي ظهور الجمال كعادتنا كلما ودعنا واحداً منا ، حتي اذا بلغنا مرحلة معينة ودعناه وهو يعانقنا في حرارة وينظر الي الحمراء من بعيد وتغرورق عيناه بالدموع ، ونعود اليه ، ويتجه هو شرقاً وترقل به العيس وتخدي و في قلبه هوي ووجد بالحمراء وساكنيها يلذعه كالجمر .

ويصل القضارف ويسميها (قضروف سعد) لينزل بالكرامة منها عند صديقيه الحميمين السيدين عبد الله بكر والمغفور له الشيخ عبد القادر عبد الباسط قاضي المحكمة الشرعية ، وكان أديباً مثقفاً حلو المعشر ، ما يكاد يستقر حتي يبعث الينا في الحمراء اولي قصائده التي أنشدها بعد ان غادرها ، وقد شجانا ما جاء فيها من وجد وحنين الي ربا الحمراء وسكانها وقد استهلها بقوله عن « قضروف سعد » واصدقائه فيها :

ألاهل أتي هنداً ولا زال بالحمي
ملث من الرضوان يهمي علي هند
بأني حططت الرحل في خير بلدة
عرفت بها رهط السماحة والمجد
وكل فتي تحكي السحاب يمينه
فليس بذي الشح المطاع ولا المكدي
تقول اذا ما جئته البحر زاخراً
وكالنجم للساري ،وكالعلم الفرد
واقسم (يا قضروف سعد » لما رمي
بنا لبنيك الأكرمين هوي الرفد
ولكن أحاديث المني وهي عادة
حسان كحسن الخال في ناضر الخد

وبعد ان يثني علي صاحبه في قضروف سعد ، يقوده وجده المشبوب الي دارة . الحمراء والي احبابه بين مضاربها فيبكي شوقاً بهذا الشعر المعبر :

فيا دارة (الحمراء) بالله بلغي
هناك حبيباً بين كثبانك الربد
بأني لا أنسي وإن شطت النوي
لـيالي وصال غير مذمومة العهد

مني قد أخذناها من الدهر خلسة

بزهرة ذاك الحي في عيشة رغد

فلم يبق منها اليوم الا حديثها

وطيف يريني الرد في صورة الوعد

احن اليهم والديار بعيدة

وإ ن كان لا يدني الحنين ولا يجدي

فمن لي بمن يملي الاحاديث عنهم

ويا ليت شعري ما الذي أحدثوا بعدي

ويا هند لا والله ما خنت عهدكم

ولكن ضرورات التجول والبعد

عليكم سلام الله كم هيجتمواهوي

وجددتموا عهد الصبابة والوجد

وان عادت الايام عدنا الي الذي

الفنا ه من حسن الرعاية والود

ويغادر القضارف الي قريته (الشيخ الطيب) ويقضي اياماً في العاصمة مع اصدقائه الخلصاء يسمعهم ما جد من شعره ويسمعونه رأيهم فيه ، وأنهم به لمعجبون فخورون ، ولكن العاصمة ببهجتها ، واصدقاءه وحفاوتهم به ، وقرية الشيخ الطيب بهدوئها ، والاهل من حوله ، كل هذا لا يزيده الا ولها بالحمراء وتذكره لها ، ولو طاوع قلبه لترك كل ما حوله ومن حوله وشد الرحال عائداً ليشفي غليله بين ربوعها ، وليعيش وادعاً بين اهلها الوادعين ، ويدفعه الشوق الملح للحمراء ليشفع قصيدة القضارف بأخري يبعث بها الينا في البادية ولَما يمض علي الأولي الا فترة قصيرة ويسمي قصيدته هذه (دارة الحمراء) وفيها يقول :

قل للغمام الأربد   لا تعد غور السند

وحي عني دارة الحمرا وقل : لا تبعدي !

منازل يابرق أروت امس غلة الصدي

يا ويحها كم نظمت شمل هوي مبدد

قالوا غداً يوم الفراق قلت بعداً لغد

يا معهمون هل لكم علم بحال المنجد

صب بكم امسي يعاني صرف دهر انكد

قد نفد العمر وها وجدي بكم لم ينفد
جادك ثجاج الحيا من مبرق ومرعد
لأنت ريحان النفوس عدت ام لم تعد
يا حسنه وقد بدا لناظري من بعد
والشمس ألقت في كؤوس الغرب ذوب العسجد
يهز تحت درعه أعطاف غصن أملد
يا ما أحيلي ما أري من صلف وصيد

والقصيدة طويله مثبتة في ديوانه تحت عنوان (دارة الحمراء) - وتتوالي علينا قصائده يحملها شوقه الي البادية بجانب اغراض أخري من وطنية أو اجتماعية ولا أكاد أعدو الحقيقة اذا قلت إن العباسي لا يكاد يدفعه غرض لنظم قصيدة الا التفت فيها الي بادية الكبابيش واجداً والها يحن اليها حنيناً موجعاً وإني لأذكره وقد وقف يلقي قصيدته التي أعدها لمهرجان يوم التعليم الذي كان يحتفل به الخريجون والشعب من ورائهم يهتف مؤيداً في منتصف الاربعينيات وقد بلغ العباسي آنذاك الخمس والستين من عمره ، وحسبه · وقد مضي عهد طويل علي ايامنا بالحمراء - ان سلا قلبه وخمدت جذوته ، واذا به ينشدها :

مالي وللخمر رق الكأس أرواقا
وللصبابة تصلي القلب إحراقاً
مضي زمان تساقينا الهوي بهما
في فتيه كرموا وجداً وأشواقاً
زهر الوجوه متي سيموا الهوان لووا
سوالفاً كصوي الساري وأعناقا
صحب حملت لواء العشق بينهم
من قبل أن يصبح العشاق عشاقا

وتطالعه الحمراء وأحبابه ، فتتجدد الجذور وتتقد ولا تحول الخمس والستون من عمره بينه واجترار ذكرياته العذاب فيقول مولها « بالحمراء » و « زهرتها » وان تظاهر بالسلو :

يا برق طالع ربا « الحمرا و « زهرتها »
واسق المنازل غيداقاً فغيداقاً
ومن اذا سمعوا من نحونا خبراً

والليل داج أقاموا الليل ايراقا !

انا محيوك يا أيام ذي سلم

وان جني القلب من ذكراك أعلاقا

واليوم قصَّر بي عما أحاوله

وعاقني عن لحاق الركب ما عاقا

وأنكر القلب لذات الصبا وسلا

حتي النديمين ، أقداحاً وأحداقا !

أحبو الي الخمس والستين من عمري

حبواً وأحمل أقلاماً وأوراقاً ؟

وان لم تخني الذاكرة فإن العباسي لم يقف علي منبر عام يتلو شعره الا مرتين ، إحداها هذه التي القي فيها قصيدته ليوم التعليم ، والأخري عندما أقيم في نادي الخريجين بأم درمان حفل تأبين لصديقه الحميم المرحوم الاستاذ عبد القادر عبد الباسط ، وقد أسال الدموع حزناً عندما القي مرثيته الرائعة في الإنشاد وقد جاء فيها :

ليت مني لك الفداء وإن لم

تبق مني الأيام الا أقلي

ما بياني وقد نكرت بياني ؟

ما دموعي والدمع جهد المقل ؟ !

فسأبكي عليك ما سجعت ورق

بكائى علي الشباب المولي ! .

أحسبني قد أطلت وأنا اعيش مع العباسي وبادية الكبابيش وكلاهما حبيب الي نفسي عزيز عليَّ ، وإني لأنظر اليوم عبر هذه السنوات الطوال الي ربوع البادية متتبعا بقلبي ومشاعري الأحياء التي لقينا فيها أولئك الأحباب ،وهم في نضرة الصبا يملأون الحياة مرحاً وغناء ورقصاً ، ويستقبلوننا في بشاشة وعذوبة ويوحون للعباسي أروع ما نظم من شعر ، وأودعوا قلبي هذه الجذوة التي ما زلت أعيش بدفئها ولذعتها ، فيمرضني الحزن علي الذين ودعوا الحياة من قبلنا ، ولا أدري في أي فلاة أودعوا الثري ، والذين نال منهم الزمن فأحني ظهورهم وخدد وجوههم التي كانت تشع بأضواء الحسن والجمال... ألا إنها الحياة ... جديد يبلي ويزول وجديد يولد : ألا فلير حمنا الله جميعاً . !

عود للاغنية البدوية

تأسرني الاغنية البدوية ببساطة كلماتها وصدق تعبيرها ، ولم أمل سماعها طوال فترة حياتي بينهم . اسمعها من الفتاة في غدوها ورواحها ، ومن الفتيه حول البئر يستقون ، ومن الكهول أو الشيوخ وهم علي ظهور الجمال يقطعون الفلاة لغرض من أغراضهم . . . فالأغنية دائماً علي كل فم .

ولقد عرضت في هذه المقالات بعض ما يتغني به النساء في حلقات الرقص ، اذ ان الغناء في هذه الحلقات قاصر علي النساء فقط ، اما الشبان فان مهمتهم « الطنبور» يسايره تصفيق اياديهم وضربات أرجلهم ، وعلي أنغامه وإيقاع الأيدي والأرجل وهزيج الاهنية تتموج الراقصة وتتثني وسط الدائرة ، وتثب احياناً وثباً منتظماً نحو الشبان تارة ونحو الفتيات اخري ، وتتثني حيناً الي الخلف حتي يلامس رأسها قدميها كما ينثني الخيزران ! .

ولقد كان لي عدد من الاصدقاء من شبان البدويين أذكر من بينهم شاباً يسمى (مطر) كان يكبرني بعدة اعوام ، حلو الدعابة ، فيه سخرية محببة بالناس . . . كان اذا جاءني ابتدرته ببيت الشعر الذي يقول :

سلام الله يا مطر عليها * وليس عليك يا مطر السلام !

ولم يكن يدرك معناه أول وهلة ، ثم تفهمه فيما بعد ، فكان يغرق في الضحك كلما ابتدرته به ، بل كان احياناً يبادرني به كلما جاءني زائراً .

وكنت أوثر هؤلاء الشبان . وبينهم مطر - باصطحابي عندما يحين موعد اجازتي ، فأغادر البادية متجهاً صوب مركز سودري ومنها للابيض وهي رحلة شاقة كنت اقطعها علي ظهور الجمال في اكثر من الاسبوعين وفي احوال نادره كان ييسر الله لي عربة حكومية تكون قد جاءت من الابيض في رحلة رسمية لمركز سودري فأستغني عن الرفاق البدويين وجمالهم ونودع بعضنا في تأثر ومودة ، ودعاء حار باللقاء بعد الاجازة .

وكنا ما نكاد نخلف الحمراء وراءنا ونودع اهلها ... وتخب بنا الجمال حتي تنطلق حناجرهم بالغناء في أصوات حلوة عذبة وأكاد أجزم ، بأن الجمال كانت تطرب لغنائهم او حدائهم ذاك ، فقد لحظت اذ أصابهم الاعياء وخفتت أصواتهم وصمتوا ... أصاب الجمال الاعياء ايضاً ولم تعد تخب بنا بذلك النشاط الموفور ... فاذا ما هبوا من صمتهم وعادوا للغناء نشطت الابل في سيرها واخذت تقطع الفلاة وكأنها تثب وثباً ! .

وغناء الرجال في الفلاة وهم علي ظهور الجمال يختلف في معانيه وادائه عن غناء الفتيات في حلقات الرقص ، وعن غنائهم هم حول البئر أو وسط الحي ، ولكل من هذه الحالات غناؤها الخاص بها من حيث المعاني وطريقة الاداء ...

فأغاني الفلاة التي اتحدث عنها اليوم – وانا استوحي عبر السنين الطوال صوت صديقي مطر ورفاقه من شباب البادية المرح يتغنون بها والجمال ترقل بنا – تشبه الي حد ما ، ما نسميه بالدوبيت او (الدوباي) علي الاصح ، ولكن اداءهم لها يختلف بعض الشئ ، وتتكون الاغنية من بيتين فقط ، ويكون اولهما عادة مدحاً او مباهاة بالجمل الذي يركبه ، وكيف انه قوي الاحتمال سريع الخطو يقطع المسافات في سويعات وقد يصفه من حيث صورته ووسامته بين الابل !

اما البيت الثاني فيطرق اغراضاً مختلفة ، اكثرها شيوعاً ان يذكر محبوبته وشوقه اليها ، وحنينه الي دارها ويمجد جمالها واخلاقها .

وقد يكون حكمة مرسلة تصور فلسفتهم الساذجة البسيطة عن الحياة .

وقد يكون مدحاً لنفسه وافتخاراً بشجاعته وكرمه ونبل خلقه .

كنت أجد كل هذه المعاني مصورة في اغاني الفلاة ، وقد رسخ اكثرها في ذهني لكثرة ما ترددت علي مساعي في ترحالي بين مضارب البادية .

واني لأتمثل الآن علي بعد المدي ركبنا الصغير المكون مني ، ومطر ورفاقه الثلاثة ، والجمال تخب بنا خباً والطبيعة السخية من حولنا تقدم لنا اجمل مفاتنها حيناً وأسوأ صعابها حيناً آخر ، ومن كثبان ووديان ، وجبال ،وسهول ، فنحن نعتلي مرة كثباناً عفراً نجد مشقة وعسراً في اجتيازها ، وننزل حيناً وادياً ممرعاً عَذُب ماؤه وفاض ، واخضرّ شجره المورق الظليل ، فنقضي فيه وقتاً طيباً ترعي فيه الابل ما تشاء ، وننعم نحن بالظل والماء حتي نستجم وقد يسخر الله لنا قطيعاً من الضأن حول ذلك المكان ، ونصر علي شراء خروف منه ، ويصر الرعاة علي اكرامنا به دون ثمن بعد ان يحيونا في حرارة وقد عرفونا او عرفوا بعضنا ، واستوثقوا من أين جئنا والي اين نسير ، وهي معلومات لابد من ان يعرفها البدوي بالسؤال عندما تلتقي به في الفلاة مهما كلفته من مشقة وقد

يتظاهر بعدم الفهم ليعيد ويكرر من اسئلته حتي يستوثق مما يريد فهمه عنك .

ولكم شهدت صديقي مطر - الذي اعرف ذكاءه الفطري وسخريته البارعة بالناس ونحن في بارا او سودري في احدي رحلاتنا يتظاهر بالبلاهة والغباء ، والعبط وهو يساوم التجار في شراء بعض حاجاته ، ويهتز في اعماقه ضحكاً وسخرية منهم !

والواقع ان اكثر اهل المدن يحكمون سلفاً علي البدوي بالبلاهة والعبط والجهل المطبق ، وكم يوقعهم بعض أذكياء البدويين في الفخ الذي يريدونه استناداً علي هذا المفهوم .

أقول اذا ما يسر الله لنا ونحن في رحلتنا تلك قطيعاً من الضأن وحصلنا علي خروف منه ، طاب لنا المقام يوماً او اكثر في ذلك الوادي ويقوم بعضنا بذبح الخروف وسلخه ، آخر بجلب الحطب وإيقاد النار ، ويتحلق رعاة القطيع حولنا ، فهم وان وهبونا الخروف الا انهم حريصون علي نصيبهم فيه شواء ساخناً يشبع نهمهم .

وللبدويين طريقة في انضاج اللحم خير مما نسميه (لحماً بالفرن) اذ يدخلون زند الخروف مثلاً في عود طويل يغرسونه في الارض لصق كومة ضخمة من الجمر ، دون ان يمسه ، فينضج بالحرارة فقط ، ويسمونه (الفقيت) .

ونشد الرحال ، وتخب بنا الجمال او ترقل يخيل الي انها في حاجة ملحة لتسمع الحداء لتنتشي ، وتكون اكثر مقدرة علي قطع هذه الفلاة المتعددة الصور . . . ونحن ايضاً أشد حاجة منها لهذا الغناء يخفف عنا ما نلقي من عناء السفر وسري الليل الطويل وقد سكن كل ما حولنا الا بعض اصوات الذئاب والثعالب والضباع تحس بنا من بعيد فتعوي وتصيح . . . ولقد ألفنا سماع هذه الاصوات فلم تعد تثير في انفسنا شيئاً بل كنا نفتقدها في بعض الليالي فنتساءل لم غابت عن مسامعنا ؟

غننا يا مطر . . . غنى . . . ويرتفع صوته هادئاً عميقاً عمق هذا الليل من حولنا ، والجمال ترقل بنا في خطي منتظمة كأنها جنود مرنت علي هذه الخطي الثابتة الرتيبة :

الليلة الشايب جنا
وجاب خبا محنا
برد الزيف قابلنا
والفيها نصيب تصلنا

إنه يعني (بالشايب) جمله الذي تقادم عمره ، والذي جن من فرط نشاطه فجاء بخبب في السير لم يعهده فيه ، لقد « محنه » بهذا الخبب ، ثم يرسل بعد ذلك حكمة يستوحيها من الطبيعة حوله ، ومن ايمانهم العميق بالقدر ، فالليل برد « زيفة » ولفحهم من الامام . . . ومهما يكن ، فان ما قدره الله لهم من نصيب في الحياة سيصلهم حتماً «

برد الزيف قابلنا . والفيها النصيب تصلنا . »

ثم ماذا يا مطر . انشد فالليل طويل ، والجمال تخب مسرعة والرمال ممتدة امامنا كأن لا نهاية لها . . .

الركوب جملاً مشتي
واللباس ثوباً يغطي
ما بكاتل الماضميتي
وما بخلي الفيها نيتي

جمال الحياة ان تركب جملاً (مشتي) اي قضي فصل الشتاء في مرعي (الجزو) الخاص بهذا الفصل من العام ، والجمل الذي يقضي الشتاء هناك يعود قوياً صبوراً جلداً علي السفر مهما طال - وان تلبس ثوباً يغطيك ، لا ذلك الذي يشح عن اكثر جوانب جسمك ، فبهجة الحياة عنده ان يركب جملاً قوياً جاء لتوه من مرعي الشتاء وان يلبس ثوباً كبيراً (يغطي) . . . ثم يتلفت فيباهي بخلقه وإبائه . . . فهو لا يقاتل من هم دونه . . . (مابكاتل الماضميتي) ولن اترك تلك التي احببتها . . .

(ما بخلي الفيها نيتي) . . . لن توجد قوة في الارض تحول بيني وبين تلك التي أحببتها نفسي . . . أرأيت العزم والاباء والترفع عن الدخول في معركة مع من هم دونه ؟ والاصرار علي الا (يخلي الفيها نيته) . . . كم من الناس يترفع عن محاربة من هم دونه ؟ !

غننا يا مطر فان السري لم يأخذ بعد بمقاعد أجفاننا . . .

دوماتك جماجم
مرا قيح ومراً دم
مابترافه العمر ان تم
وما بتتخلي أم خشماً أحم

لقد أعيي السير الطويل جمله حتي سال العرق من (دوماته) بل انها تسيل حيناً قيحا وحيناً دماً لفرط ما أجهد . . . وهو ما زال يسير ويسير . . . ما غاية هذه الحياة . . . ؟ إن اجل الانسان اذا تم فلا سبيل الي رفوه كما يرفو الانسان ثوبه الممزق . . . ما بترافه العمر ان تم . . . فالعمر لا سبيل الي « ترقيعه » وهو لن يتخلي عن حبيبته ذات الشفاه السمر . . . ما بتتخلي ام خشماً أحم ؟ وكيف يتخلي عن حبه والعمر قصير محدود لا سبيل الي رفوه ان تمزق ؟ . . . كلا لن يتخلي ما دام قيد الحياة عن فتاته ذات الفم الأحم . . . او الشفاه اللعس كما يقول شعراء الفصحي . . .

ثم ماذا يا مطر ؟ . . .

ما مريديخ لي قجيجة
كبيراً طابق الهيجة
الدور الفيها دريجة
بينا وبينا فجيجة

أما زلت تفخر بجملك يا مطر ؟ فتقول انه قوي ليس بذي (قجة) من الوبر على رأسه ، وانه (هائج) منذ عامين ، (طابق الهيجة) فأنت تستحثه وقد قربت دار الحبيب ، فلم يبق بينك وبين دور دريجة ، غير (فجيجة) مسافة قصيرة . . . يرعاك الله اذن . . . حث السير . . . فما أبهج ان يلتقي الاحباء !

ان ليلنا يوشك ان ينحسر ، وكأن نجومه قد هدها الأرق كما يقول شاعرنا توفيق صالح جبريل :

ونجوم الليل ذاهلة كجفون هدها الأرق

ولكن صوت مطر ما زال يشجينا ويدفع بهذه الجمال لتخد بنا في غير وني . . .

يا بو علوقا شابرو
واب مشيا صابرو
انت الدرب بتابرو
وبيت أم خد أنا خابرو !

اني أعرف مقدار (العلوق) الذي أقدمه لك ، كثير كثير . . . وأعرف أيضاً مدى سرعتك في المشي . . . سريع . سريع فأنت تعرف كيف تجتاز هذه الدروب منطلقاً وانا اعرف دارها . . حبيبتي . . ذات الخدود الوضيئة . . . !

ببيت ام خد أنا خابرو !

لقد تملكنا الاعياء ، وقد اطل الفجر وبلغنا مرحلة جديدة من رحلتنا في تلك الفلاة . فنحن ننيخ جمالنا ، وننزل من علي ظهورها ونتركها طليقة من حولنا لترعى ، ونطرح علي الرمال البيضاء ، تحت ظلال الشجرة ، ما نحمل من فرش . مطر ورفاقه يفترش كل منهم فروته ويتمدد عليها ، وأفترش أنا سجادة صغيرة ، وسرعان ما نغط جميعاً في النوم الذي حرمنا منه الليل بطوله .

وقد تسألني لماذا تسيرون الليل كله ، وتنامون جزءاً من النهار ؟ انها الصحراء التي يصعب اجتياز بعض جوانبها ، حيث يشتد الحر ويستحيل وجود ظل نأوي اليه ، فلا بد من اجتياز مثل هذه المراحل بالليل حيث يلطف الجو ويمكن السير . . . وحيث نجد في صوت مطر ورفاقه ما يخفف عنا وطأة السري .

واتلفت نحوهم وهم يودعونني عندما نبلغ سودري او بارا حيث أتخذ وسيلة أخري للسفر ، حتي اذا ما غابوا عن عيني ، تلفت القلب وجدا وشوقاً نحو الحمرا ورباها وسكانها كما يقول الشريف الرضي :

وماتلفتت عيني فمذ خفيت　　　عني الربوع تلفت القلب

وما أشقانا عندما تختفي عنا ربوع أحبائنا ويتلفت القلب !

الهسيس والبطان في حفل الختان

كلما أمسكت القلم لأكتب عن الكبابيش ... أولئك البدويين البسطاء انثالت الذكريات ... وتتالت الصور ... فما أدري ماذا آخذ وماذا أدع ... وانا هائم بينها أبتسم لتلك ... وأهش لتيك ... وأكاد أهم بالحديث مع طيوف كثر تطالعني من خلال الذكريات ... حلوة رائعة ... علي بعد المدي وقسوة الزمن . لقد نسيت الكثير مما طاف بي في مسالك الحياة - عبر هذه السنوات التي عشتها ولكني ما نسيت قط - وهيهات - حياتي في الكبابيش منذ يومي الأول الذ ي وصلت فيه الي حي الحمراء ... شارد الذهن ... أنظر في دهشة الي ما حولي من حياة جديدة بدت لي جهمة قاسية لفرط غرابتها ... الي أن فارقتها بعد أربع سنوات دامع العينين دامي القلب وانا أنشد :

قد قلت والعبرات تسفحها	علي الخد المآقي
لما انحدرت الي الجزيرة	وانقطعت عن العراق
يا بؤس من سل الزما ن	عليه سيفاً للفراق !

ولقد كنت حريصاً أن أعيش بينهم كواحد منهم ، أشاركهم في جميع ألوان حياتهم الاجتماعية فألبي دعواتهم في السراء ، اشاركهم في الضراء ، كانت خيمتي تعج صباح مساء ، لا يتحرجون في حديث ، لا يخرج عادة من محيط بيئتهم وأجلس اليهم أيضاً في أخبيتهم ، ولا يجدون حرجاً ان نأتنس كلنا رجالاً ونساء فما في الخباء سور ولا غرف ، ولا حجاب ... نفوس طيبة تملأها الثقة والحب وأكاد أسمع رنين ضحكاتهم الصافية ، وربة الخباء تدنو مني وتقول في خفر بدوي محبب : « تشرب شاهينا يالفندي ؟! »

انها تخشي ألا يعجبني (الشاى) الذي تصنعه ، فهي تتساءل ووجهها يفيض بالترحاب والابتسام ، ان كنت أشرب الشاي الذي تصنعه ؟ وأشربه أسود حلو المذاق كالعسل ، ويسألونني عن حياة المدن ، ويسخرون من عيشنا ، من حياتنا الرتيبة في ارض واحدةو دار واحدة ! يسخرون من اننا نبيع الطعام للضيوف ... ويعنون بهذا ، (المطاعم) التي تمتلئ بها المدن . ومن حقهم أن يسخروا من بيع الطعام للضيف فهو في نظرهم

جرم لا يغتفر ، وسبة لا تقاربها سبة ، فالضيف عندهم موضع التكريم ، لا يبخلون عليه بشئ مما لديهم ... ينام معهم في هذ االخباء الواحد ، وقد يقاسم الاسرة سريرها الواحد ، مع الزوج والزوجة والاطفال . .

ولست انسي وقد جئنا حياً صغيراً بين عدوتي واد مونق ، ولم نجد رجلاً واحداً في الحي ، وأطلت علينا من بين الاخبية القليلة بعض النساء ، وتقدمت احداهن الي ركبنا تلح علينا ان ننزل ، وكنا مجهدين حقاً ، وأنخنا ركائبنا تحت ظلال الاشجار ، واسرعت المرأة الي طرف الوداي حيث كانت اغنام الحي ترعي وجاءت تقود خروفاً ضخماً أبت الا ان تذبحه اكراماً ، وحاولنا عبثاً أن نثنيها ، وحاولت عبثاً ايضاً - عندما آن لنا ان نغادر الحي بعد ان طعمنا من لحم الخروف وسقينا الشاي المعروف - أن تقبل مني هدية من النقود ... لقد أصرت اصراراً عنيفاً ألا تقبل شيئاً ، وأخذت تكثر من الاستغفار استنكاراً لما أقدمت عليه ... ولهذا فقد كنت اتقبل سخريتهم من بيعنا للطعام في المدن لضيوفنا في كثير من الاسي ، وأجدني غير قادر علي اقناعهم ... ومنذ ذلك العهد كلما رأيت بدوياً يغشي مطعماً ليأكل ، شعرت بمدي ما يعتمل في نفسه نحو المدن من بغض وكراهية لا متهانها لكرامة الضيف ...

ربما تسألني عن كلمة « افندى » التي لصقت بي في البادية ، ولست « افندياً » بل مدرساً «شيخاً» ، وان كنت هناك لا ارتدي زي المشايخ والافندية وإنما انا بدوي يجر ثوبه ويتدلي (سرواله) حتي يلامس قدميه !... ولكن في البادية كلها (شيخاً) واحداً لا يجوز ان يحمل هذا اللقب الكريم غيره ، انه (شيخ) القبيلة الشيخ علي التوم ، والبدويون قاطبة رجالاً ونساء وأطفالاً لا يتحدثون عنه ولا يخاطبونه الا (بالشيخ) فمن كان في مثل سنه قالها مجردة ، ومن كان اصغر سناً قال ... « أبوي الشيخ » ... ولهذا جردت من لقب المدرسين التقليدي (الشيخ) وحلت محله كلمة (الافندي) التي أخذت تميزني بالرغم مني حتي غادرت البادية ...

ولست أنسي ذات يوم ان جاءني صديق بدوي كان ابنه يدرس عندي ، ليقول لي اننا سنختن الصبي غداً ، ودعاني لأحضر معهم احتفالاتهم بهذه المناسبة وكنت دائماً احس بفيض من البهجة والسعادة كلما دعيت لمناسبة كهذه ، لما أستمتع به من مرح دافق تزخر به عادة هذه الحفلات ...

والبدويون - وخاصة الموسرون منهم - يحتفلون احتفالاً عظيماً لمناسبة ختان ابنائهم الذكور .

وفي صبيحة يوم الختان ذبحت الذبائح ، وأعد الشراب « ألوان من المريسة » ، وأخذت

وفود الاحياء من الرجال والنساء تتقاطر ، علي ظهور الجمال والخيل ... وقبل غروب الشمس ، أعد الصبي حيث ألبس ثوباً من الدبلان جديداً ناصع البياض ، وقميصاً يماثله ، وقد امتطي صهوة جواد ، وعلي رأسه « الضريرة » وفي يده جدلة الحرير . ويحيط بمعصم يده ايضاً عظام السمك التي رأيناها من قبل علي يد العريس والعروس مع (الخرزة) الخضراء وما زلت حتي الآن حائراً في حرص البدويين علي وجوب ضم عظام معينة من السمك في كل طقوس العرس والختان ، رغم ان البادية كلها لا تعرف السمك ... وتحرص كبار النساء علي الاحتفاظ بعظام السمك هذه كأثمن ما يحفظ لتلبس في هذه المناسبات وجميل ان تري أتراب الصبي علي ظهور الخيل وقد احتاطوا به من كل جانب مزهووين فرحين ... ويركب الرجال ايضاً الخيل والجمال وتتبعهم الفتيات يغنين ويزغردن ... ويسير الموكب بعيداً عن الحي بعض الشئ ، ويتسابق الصبية والصبي الذي يراد ختنه الي مدي بعيد ، ويحدث هذا ايضاً فتعدوا بهم الخيل او الجمال في مناحي متعددة من ذلك الفضاء ويعلو غبار السباق ويرتفع من كل جانب ، والفتيات من بعيد يزغردن ويرقصن ويحملن مجامر الطيب ... حتي اذا أخذوا حظهم صبية ورجالاً من هذه الالعاب والسباقات ، عاد الركب فانتظم واتجه نحو الحي ... وهناك تبدأ حلقات الرقص ... وفي مثل هذه المناسبات يكثر النساء من رقصة يسمونها (الهسيس) وهي رقصة سريعة الايقاع ، اغانيها خفيفة الاداء ، وكلماتها قصيرة لتناسب هذ االايقاع السريع الخفيف ... وتكثر في أغاني الهسيس ، التي يغنيها النساء في حلبة الرقص ، الاشادة ببطولة الفرسان وتمجيد الرجال البارزين - ويحتشد الرجال حول حلبة الرقص هذه ، ويشتد حماسهم كلما غنت الفتيات أغنيات حماسية كقولهن :

يا تركة الفراسة
دفر الخصم داسة
المابيك واهلواسة
رقد جوفه بي أمغاصة

أي يا وأرث الشجاعة ، قد قضيت علي خصمك ، فما اكثر (هلواس) عدوك خوفاً وجزعاً ، انه يبيت ليله جزعاً متألماً وقد تثيرهم (للبطان) اغنية كهذه :

يا عدي الروي
ماهلاً ماك قوي
أركز ليْ كدي

أي ، يا موردي (يا عدي) الذي لا يجف ماؤه ، ويا لين الجانب للناس - « ماهلاً ماك

قوي » - ، - وهي كلمة تقال للشباب الذي يتأهب (للبطان)

وهنا يلتهب حماس الشبان فيتدافعون الي وسط حلبة الرقص ، ويسارعون الي ربط ثيابهم بشدة حول خصورهم ويتركون ظهورهم عارية ... ويبدأ احدهم فيحمل السوط في يده ، ويتجه نحو الفتيات ، ويلوح بسوطه وتتعالى زغاريدهن وترتفع اصواتهن بالاغنية إثارة للحماس ، ويشتد كرير الشبان الذين يديرون حلبة الرقص ، ويتراقص الفتي والسوط في يده ، وهناك في طرف الحلبة وقف شاب آخر منتفخ الاوداج ، وقد ارتكز علي عصا ضخمة ، وتعري من ثوبه وكشف عن صدره وبطنه ، وقد ثبت في وقفته حتي ليخيل اليك انه تمثال انسان لا حراك به ... ويلوح صاحبنا بسوطه عدة مرات ويهم بضرب الفتي العاري المنكبين والظهر ، ثم يتوقف ويعاود الرقص والهز علي البنات امعاناً في اضعاف الروح المعنوية لغريمه ، ولكي ينهار تحت ضرباته ... ولكن هيهات فان الفتي ثابت الجنان ، كيف لا ، وهو يري الفتيات من جانبيه يغنين ويرقصن ،وهو يعرف ان اية اختلاجة من جسمه تعد خوفاً وهلعاً ، وانها كفيلة بإثارة السخرية والهزء من الفتيات والفتيه ، وهو امر اهون منه الموت ... ويدنو منه ... ويرفع يده ويهوي بالسوط في عنف علي ظهره ، ويمزق السوط الجلد ، ويبدو مكانه ابيض ناصع البياض ... ثم ما تلبث الكرويات الحمراء ان تسرع الي حماية الجسد ، ويسيل الدم مدراراً حتي يبتل السروال ، وقد يسيل حتي القدم ، كل هذا والفتي ثابت كالطود ، لا يختلج جسمه ولا يتحرك ، وقد عاد حامل السوط الي الحلبة يهز ويتراقص والسوط في يده ، وتتعالى زغاريد النساء كلما أهوي بالسوط علي ظهر غريمه ومزقه وسال الدم مدراراً .

وينقلب الموقف ، ويسرع الفتي بسوطه الي غريمه ، لا يضربه هذه المرة ، وانما (ليهز) علي كتفه ورأسه ، إيذاناً بأن دوره قد انتهي وتقديراً لفروسية غريمه ... ثم يلقي بالسوط في وسط الحلبة . ويقف موقف غريمه ، ويجرد منكبيه وظهره من الثياب ، (ويركز) كما فعل صاحبه الذي يدنو من السوط فيحمله ويهز في الفتيات والدم يسيل منه ، ثم يرفع يده بالسوط ويهوي به في قوة وعنف علي ظهر غريمه ... ويتمزف الجلد وتسيل الدماء ايضاً حتي ينال منه بعدد السياط التي نالها هو منه ... ثم يغادران الحلبة بين زغاريد النساء العالية ليحل محلهما شابان آخران يعاودان الضرب ... تظهاراً للشجاعة والفروسية !والفتيات يغنين ويرقصن (الهسيس) والسياط ترتفع لتهوي ، ورقصة الهسيس دائرة والفتيات يغنين ويحمسن الشباب :

اولاد العز والفراسة　　　　يعجبوك يوم الدراسة

السوط يعوي ، والظهور تتمزق ، والدماء تسيل ولا احد يرهب الموقف او يتأفف من

هذا المنظر ، حتي الصبية الصغار يستهويهم ويحاولون ان يثبتوا فروسيتهم ايضا ! .

لقد نسينا الصبي المراد ختنه ، وكيف نذكره وقد حمي وطيس الغناء والرقص (والبطان) لقد جئ به والشمس توشك ان تغيب ، وجاء الخاتن وهو رجل بدوي منهم مرن علي هذا العمل ... وعلي الصبي الا يصرخ او يبكي ، كيف وقد كان قبل هنيهة فارساً مغواراً يسابق بفرسه لداته ويعبق عطر المباخر من حوله ، ويلتف حوله الرجال ومن خلفه النساء يرددن الاغاني والزغاريد حتي اذا ما تم ختانه ، ناوله ابوه أو اخوه حربة يتجه بها نحو القبلة ، عليه ان يقذفها ثلاث مرات بكل قوة ... وان يعدو خلفها كلما قذفها مرة . لعلهم يرمزون بهذا الي اشعاره بالقوة والشجاعة وأنه صار منذ اليوم رجلاً عليه ان يذود عن حماه ... وهذه العادة كانت مألوفة في جهات عديدة من بلادنا ، ولعلها ما تزال حية في بعض الأماكن .

ويرقد الصبي اياماً يعوده فيها الختان صباح كل يوم ليعالج الجرح بماء ساخن ويسحق « بعر الماعز » سحقاً ناعماً جداً ويذروه علي الجرح بريشة من جناح طير تعد لهذا الغرض ... حتي يبرأ الجرح ... ولست أدري ماذا في « بعر الماعز » من خاصية تدمل الجروح ، ولكني أذكر ان السودانيين قبل ان تتقدم وسائل العلاج كانوا يستعملون لهذا الغرض وسائل بدائية عديدة ليست بأقل غرابة من بعر الماعز هذا ...

الا يا راقصات الهسيس ،وقد مزقت أصواتكن الندية القلوب مثلما مزق الفتية ظهورهم بالسياط امعاناً في التقرب اليكن بمظاهر الفروسية الخارقة ...

ماذا فعلت بنا وبكن الأيام ؟! .



المزين والطبال في حفل الختان

مع الصيد في الفلاة

الصيد والقنص أحب شئ للبدوي وأكثر ما يملأ به وقته . . . ولهم فيه طرق شتي ، وتقاليد ثابتة يرعونها كل الرعاية .

كنت في مستهل حياتي معهم قل أن أشاركهم رحلاتهم للصيد والقنص ذلك لأنهم يعتمدون في اكثر هذه الرحلات علي الخيل والكلاب ، ولم أكن أحسن ركوب الخيل مثلهم ، وخشيت مغبة أن أعدو معهم وراء الصيد فيسقطني الحصان وقد لقيت الامرين عندما ركبت الجمل اولا ولكنني بعد ان أجدت ركوب الخيل ، وجدت متعة فائقة في مشاركتهم بعض رحلات الصيد والقنص .

وأمتع ايام الصيد عندهم اليوم الذي ينزلون فيه مكاناً جديداً اذ يكون الصيد فيه بكل انواعه – مستقراً هادئاً قبل ان يدهمه الحي بنزوله ، اذ ما يكاد الحي يستقر في المكان الجديد ، ويكون ذلك عادة في المساء ، ويصبح الصباح – حتي يهرع الرجال الي خيولهم وتتبعهم الكلاب التي عودت علي الصيد .

يخرجون جماعات ، يحمل بعضهم البنادق ، وهذه لصيد الغزال وما قد يلاقيهم من ذئاب او حيوان آخر – ويحمل بعضهم الطرباش – او – السفروق وهي قطعة من الخشب علي هيئة الرقم ٦ وهي معروفة في كثير من اجزاء البلاد الـ (مقناص) آلة القنص – وهذه لصيد الارنب ، والثعالب وبعض الحيوانات الصغيرة كالقطط البرية وغيرها ، وما تكاد تبين أرنب مثلاً حتي تنطلق الخيل حولها في سرعة وخفة – والسفاريق تنوشها من هنا وهناك والرجال يتصايحون ويبدو مظهرهم وهم يعدون حول الارنب وكل يحاول صيدها بعصاه - السفروق أشبه بلاعبي« البولو » الا ان الكرة في اللعبة البدوية حيوان صغير شاء له القدر أن يكون ملهاة لهؤلاء الفرسان ! .

وتبرز الكلاب ضارية مسرعة خلف الارنب – أو الحيوان المطارد – فلا تدري أيقع فريسة ضربة فارس من – السفروق – ، ام محاصراً مفزعاً من الكلاب . . . والعجيب في هذه الكلاب التي ترافقهم للصيد ، انها لا تقتل الفريسة ولا تنهش لحمها ، وإنما تكتفي بحجزها ، وقد تقبض عليها بأسنانها دون ان تلتهمها حتي يلحق بها الصائدون فتتركها

لهم تقف بعيداً في انتظار هجوم آخر علي صيد جديد .
وقد يلوح غزال من بعيد ، فيتصدي له حملة البنادق ، وقد يوكلون امره الي بارعيهم في الرماية وقد يقتسمون الفرص بينهم ، وقل ان ينج منهم صيد .
وعندما ينتصف النهار يأوون الي الاشجار الوارفه الظلال في اقرب واد اليهم ، وهناك يوقدون النار ويعمدون الي بعض صيدهم فيسلخونه ويشوونه علي النار ويلتهمون شواءه في لذة ونهم ، فاذا كان الصيد ظبياً استمتعوا - بالمرارة - وهم يعتبرون مرارة الظبي أشهي وأطيب مذاقاً من « مرارة » الخرفان ، فاذا ما اخذوا حظهم من الطعام والراحة تحت ظلال الاشجار عادوا مرة اخري الي استئناف مطاردة الصيد كبيرة وصغيرة فلا ينجو منهم حيوان يلقونه في تلك الفلاة .
وهم يجدون في مطاردته بالخيل متعة فائقة ، اكثر من إستمتاعهم بما يصيدون ... وتبدو في هذا الطراد أصالة الخيول ، ويتباهي اصحاب الخيول القوية الشكيمة القادرة علي الطراد والسبق الي بلوغ الصيد ، بحسنات خيولهم هذه - وفي فترة إستجمامهم وتناول شواء الصيد - تدور أكثر أحاديثهم حول خيولهم وأيها كان أسرع عدواً نحو الصيد ويحصون علي كل حصان ما قام به وكيف تقدم أو تخلف ، كما يدور مثل هذا الحديث عن كلابهم واطراء جهود ماكان منها خفيفاً سريعاً نحو ألصيد والطريقة التي إستطاع بها أن يعطل الفريسة حتي لحق به الرجال ..وقد يتطرق الحديث الي مقارنات بحوادث أخري مشابهة او مغايرة حدثت في رحلات صيد سابقة برزت فيها كلاب معينة بما يشبه الاعجاز في الصيد يذكرون ذلك لها في إعجاب بالغ .
قلت أن لهم في الصيد تقاليد واجبة الرعاية وأهم هذه التقاليد أن من يصيد صيداً وبالقرب منه إمرأة او ظعناً للنساء ،فما يجب ان يذهب به بل عليه ان يقدم ماصاده توا الي المرأة او الظعن .. بل حتي لو جاء عائداًمن صيد بعيد علي فرس أو جمل يحمل عليه ماصاده ، ولقيته في الطريق امرأة أو ظعن وجب عليه أن ينزل عن جانب من صيده اليها ، او اليهن لو كن جماعة من النساء في -ظعينة .
ولا يستطيع أي بدوي مهما كانت حاجته لما صاده أن يتخلي عن هذا التقليد ، ويكون حسن الحظ جداً إذاكان صيده وفيراً ، إذ أن التقليد لا يقتضي منه أن يتخلي عن كل صيده -أما لو صاد حيواناً واحداً أو اكثر بقليل فقل أن يصل به داره إلا إذا كان حسن الحظ جدا وسار بطريق لم تلقه فيه امرأة أو ظعن .
وكم هو لطيف جداً منظر العائدين من الصيد علي ظهور الخيل والكلاب تلهث من خلفهم ، وهم يدخلون الحي محملين بما صادوا وكلما أقتربوا من بيت أمامه إمرأة أو

اطلت عليهم من داخل الخباء القوا إليها ببعض ما يحملون من صيد وقد يصل بعضهم الي داره وهو لا يحمل إلا قدراً يسيراً جداً مما صاد وقد يكون له نصيب الأسد من الصيد الذي القي علي بيوت الحي في الطريق .

وللصيد وسائل أخري غير هذه يجيدها البدويون ، ومن ذلك أنهم يصيدون الغزال بشرك بسيط يصنعونه من بعض (قش التمام)وسير من الجلد وعود غليظ من الشجر ، يضعونه حيث يحتمل أن تتجمع الغزلان أو في طريق تعبره . . فيطبق الشرك علي رجل الظبي (اي سير الجلد الذي ربط علي العود) وكل ما حاول الظبي ان يعدوا ليتخلص من الشرك ، عاقه العود من ذلك وإزداد إطباق الشرك عليه حتي يلحق به الصائد .

ولهم وسيلة أخري لصيد الحيوانات المفترسة أشبه بهذا الشرك إلا أنهم يستعملون هذه المرة البندقية يطلقها الحيوان علي نفسه دون أن يدري فترديه قتيلاً .

ففي المكان الذي يعرفون أن به حيوانات مفترسة ، وأكثرها الذئاب والضباع ، يحشوا الصائد بندقيته بطلقه من الرصاص ويضعها بين فرعين من شجرة ويثبتها جيداً ، ويجعل لها ستاراً من الأغصان الشائكة من الجانبين علي أن يترك فوهة البندقية خارجة قليلاً من الأغصان ويربط -غماز - البندقية بخيط ، ويربط طرفه الآخر علي فرع الشجرة خلف -الغماز- وعلي فوهة البندقية يربط قطعة كبيرة من اللحم علي أن تكون لها رائحة نفاذة قوية لتجذب الحيوان إليها من بعيد . .ويترك البندقية علي هذا الوضع ويذهب عنها بعيداً ويختبئ .

وتجتذب رائحة اللحم الحيوان فيهرع اليه ويدنو من قطعة ا للحم ويجتذبها فيجتذب البندقية معها تلقائياً . وفي هذا الوقت يكون الحيوان قد شد أيضاً الخيط الذي ربط علي -غماز - البندقية فيدوي الطلق الناري يصيب الحيوان في رأسه أو وجهه في الغالب الأعم ،ويسقط صريعاً ، ويسرع اليه الصائد أو الصائدون ان كانوا جماعة ، ليجروه الي مكانهم بعد ان يعيدوا الكرة ويعدوا البندقية من جديد علي النحو السابق .

والبدويون كما قلت مولعون ولعاً شديداً بكل الوان الصيد التي يجدونها وليس مبعث هذا الواقع حبهم لأكل ما يصيدون فقط ، بل لأن الصيد من حيث هو مصدر متعة فائقة لهم سواء أذهبوا اليه علي ظهور الخيل فيبدو كأنه رياضة ممتعة كلعبة - البولو - أم ذهبوا راجلين تتبعهم كلابهم التي مرنت علي هذا اللون من الحياة حتي فهمت واجبها في مثل هذه الحالات فهماً يرتفع بها عن مستوي الحيوان . . . أم ذهبوا اليه بعيداً علي ظهور الجمال ليقضوا اياماً عديدة يجوبون الفلاة ببنادقهم أو بأشراكهم يأكلون مما يصيدون ويعودون بخير وفير مما صادوا . وكلهم علي اختلاف طرق الصيد التي يتبعونها

، لا يستطيع واحد منهم ان يخرج علي التقليد الراسخ ، ان ينزل عن صيده كله ان كان قليلاً ، أو بعضه ان كان وفيراً لأي امرأة تلتقي به وهو يحتقب صيده ، أو أي - ظعن - للنساء يمر به وهو محمل بالصيد .

ومن امثلتهم السائرة علي السنتهم في هذا المعني « صيداً حضرته امرأة » ويعنون بهذا كل امر لا يمكن البت فيه الا بشئ واحد ، كهذا الصيد الذي تحضره امرأة ، اذ لا سبيل الي انتفاع الصائد به وليس له غير تصرف واحد ، ان تحمله المرأة التي حضرته فهو من نصيبها لا من نصيب الصائد .

انها تقاليد الفروسية والرجولة الحقة .

قصة نحاس الكبابيش

(النحاس) عند القبائل السودانية - عندما كان لها سلطانها المستقل ، وكانت كل قبيلة مملكة لها كيانها الخاص - يعتبر بمثابة العلم للدولة ، له كل ما للعلم اليوم من هيبة وتوقير وقوة ، فهو رمز العزة والكرامة - وكما تعتبر إهانة علم ايه دولة حدثاً خطيراً قد يؤدي الي اوخم العواقب ، يعد كذلك الاعتداء علي نحاس القبيلة .

لقد كان لكل قبيلة نحاس في حوزة زعيمها يتوارثه ابناؤه ما داموا في مقعد القيادة من القبيلة ، فاذا ما انتقلت زعامة القبيلة من بيت لآخر كان حتماً لزاماً ان ينتقل (النحاس) الي بيت الزعامة الجديد طوعاً او كرهاً .

وكان شر ما تمني به القبيلة ان يغنم نحاسها أعداؤها في معركة ما ، فان ذلك سبة الدهر وعار يلاحق القبيلة حتي تدفعه بالانتصار ورد النحاس اليها .

وللكبابيش (نحاس) تاريخي ، ورد ذكره في هذه الذكريات اكثر من مرة ، وقد تعرض هذا النحاس لخطر الغنيمة إبان الثورة المهدية . . . ولما كان النحاس رمز عزة القبيلة ، فقد هرب زعيم الكبابيش في المهدية الشيخ التوم - والد الشيخ علي التوم - نحاس قبيلته الي جبال بعيدة حتي لا يقع في يد الانصار وقد كتب السير هارولد مكمايكل - الاداري الانجليزي المشهور ، والذي كان يشغل منصب السكرتير الادراي لحكومة العهد الثنائي ، وكان رجلاً عالماً مولعاً بالبحث والتنقيب - الف كتاباً صغيراً عن دخول العرب للسودان باللغة الانجليزية ترجمه للعربية الدكتور منصور علي حسيب عندما كان طالباً بمدرسة كتشنر الطبية (كلية الطب الآن) - اقول كتب مكمايل قصة نحاس الكبابيش وكيف تفادوا وقوعه في أيدي ثوار المهدية وقد ذكر أنه إستقي هذه المعلومات من الشيخ ابراهيم الفحيل - عم الشيخ علي التوم .

وقد سمعت أنا أيضاً هذه القصة من الشيخ علي نفسه رحمه الله ومن عدد من شيوخ الكبابيش بينهم الشيخ ابراهيم الفحيل - الذي رواها من قبل لمكمايكل - والشيخ

ابراهيم الفحيل رجل قصير القامة نحيف الجسم ، في الحلقة السابعة من عمره عندما لقيته لأول مرة في البادية في مستهل الثلاثينيات ، وكان يعد الرجل الثاني بعد الشيخ علي التوم من حيث حدة الذكاء والدهاء ، وكان يمتاز (بالمكر) حتي ان الاداريين الانجليز كانوا يسمونه (ثعلب البادية) ... وكان علي التوم يوفده لحضور المؤتمرات القبلية - التي لا يريد حضورها - مع ابنه الكبير الشيخ التوم ليشد من ازره ولتكون قرارات المؤتمر وفق ما يريد الشيخ ... وكان ابراهيم الفحيل لدهائه وسعة حيلته قل ان يفشل في تحقيق ما يريد الشيخ علي تحقيقه في اي مؤتمر قبلي يوفده اليه اذ كانت أجندة المؤتمر ترسل اليهم مقدماً لدراستها والاستعداد لمناقشتها ووضع القرارات بشأنها ...

ومكمايكل يكتفي بذكر قصة العثور علي قطعة النحاس الكبير ويسمونها (الثور) وقد كانت هناك ثلاثة طبول متوسطة الحجم تكمل مع الثور ما تعنيه كلمة (النحاس) ، وقد عثر علي قطعتين منها بعد ذلك في عهد الشيخ علي التوم ايضاً ، وعندما كنت معهم في البادية كانت هناك قطعتان والثور ، وبقيت القطعة الرابعة مفقودة ، وقد عثر عليها اخيراً في نفس المنطقة منذ سنوات قليله في عهد الناظر الحالي الشيخ حسن حفيد علي التوم ،وقد استقبلت بحفل ضخم ذبحت فيه الذبائح وزغردت النساء ورقصن وكان عيداً قومياً ... حدث هذا ايضاً في كل المرات التي يجئ فيها البشير (للشيخ) بالعثور علي قطعة من النحاس ولا عجب ، فكما أسلفت القول فان النحاس رمز العزة والكرامة للقبيلة ، كالعلم للدولة ، ومن مظاهر تقديرهم للنحاس واعتزازهم به انهم (يرشونه بالدم) صباح كل جمعة ... دم خروف لا انسان ... وقد اعتدت صباح كل جمعة ان اصحو علي دوي ضرباته ، بعد أن يكون روي بدم الشاة ، ويجتمع حوله بعض الشبان يعرضون ويهزون ، وتتعالي زغاريد النساء من انحاء الحي المختلفة كلما علا دوي النحاس ... ويظلون حوله يقرعون في عنف ويتراقصون حتي ترتفع شمس الضحي .

أعود الي ما كتبه مكمايكل عن نحاس الكبابيش فهو يقول

... ان النحاس يتكون من اربع قطع تطلق عليها الاسماء الآتية - الثور - البقرة - العجلان - بهذا الترتيب - ومن هذه القطع الاربع نجد ان (الثور) وهو الوحيد الذي تبقي من نحاس فضل الله بك سالم جد الناظر الشيخ علي التوم ولهذا الثور قصة غريبة ... فعندما مات فضل الله بك سالم ورث النحاس ابنه الشيخ التوم ... وعند اندلاع نار الثورة الهدية بقي الشيخ التوم مخلصاً للحكومة ولكنه وقع اسيراً للانصار بعد سلسلة من الاضطرابات ، ولكنه قبل ان يقبض عليه ، ارسل رسالة الي خادمه المطيع (بخيت ود النوبة) طالباً منه ان يأخذ ابنه « محمد » وكذلك النحاس الي دار (الصافية) لأخيه

صالح بك فضل الله ... ونفذ الرسول ما أمر به - وتحرك ركب الشيخ صالح من الصافية متجهاً شمالاً بغرض الحصول علي العون والنجدة والحماية من الحكومة في دنقلا (و كانت لم تسقط في يد المهديين بعد) ... وعندما وصل الي جبل (اودون) اخذ قطع النحاس الاربع وأخفاها في طرف الجبل بمعاونة من كان معه ... حدث هذا عام ١٣٠٢ هـ ١٨٨٤م ...

بعد هذا وصل ركب الشيخ صالح الي ضواحي دنقلا واستقروا هناك ، وبعد فترة من الزمن ، استولي الامير محمد الخير علي دنقلا وحكمها باسم المهدي ، ونتيجة لذلك تحرك الشيخ صالح بعيداً في الصحراء تجاه (ام بادر) وعندما سمع الخليفة عبد الله بأمر الشيخ صالح - بعد وفاة المهدي - ارسل الامير عثمان ود ادم ليتبعه ويأسره ... وامتثالاً لأمر الخليفة ارسل الامير عثمان قوة كبيرة الي دار (أم بادر) وحدثت مذبحة رهيبة قتل فيها معظم الكبابيش وكان من بينهم بخيت ود النوبة ... وتقهقر الشيخ صالح مع من تبقي له من الأتباع الي منطقة (العين) ولكن قوة الامير عثمان لحقت به وأسرته ، وطلب من الشيخ صالح فضل الله ان يكشف لهم عن المكان الذي أخفي فيه النحاس ولكنه رفض وقتل بعد ذلك ...

وبعد مضي زمن ليس بالقليل سمع الانصار بأن النحاس مدفون في مكان ما بجبل اودون ، فأرسل الخليفة قوة للبحث عنه لكنهم لم يجدوا له أثراً .

وبما ان جميع الكبابيش الذين حضروا اخفاء النحاس قتلوا فقد خشي ان يفقد الي الأبد .

وفي خريف ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م ، كان احد الكبابيش ويدعي « عبد الله دقشين » من قبيلة (غليان) يمر بأسفل الجبل فشاهد طبلاً كبيراً بين اغصان شجرة كبيرة ، وأسرع عبد الله وأحضر شيخه (شيخ غليان) وبعد فحص دقيق عرفا انه الثور - اكبر قطع النحاس المفقودة - وأنزل الشيخ الطبل من أعلي الشجرة التي ربما يكون قد رمته اليها عاصفة من بعد ان اخرجته من مكان اخفائه . وفي نفس المكان ذبح الشيخ ثوراً (كرامة) للعثور علي النحاس ... وأسرع عبد الله دقشين ليحمل البشري الي الشيخ علي التوم الذي كان ينزل في منطقة (الحريز) آنذاك - وعندما اقترب عبد الله دقشين من الشيخ علي التوم رأي انه يمكنه الاستفادة من هذا الاكتشاف ... فصاح بالشيخ ... البشارة ، وسأله الشيخ ماذا تريد ؟

فقال اريد ان تعفيني من الضرائب مدي الحياة ... ورد الشيخ علي قائلاً « انني لا استطيع ان أمنحك هذا الطلب لأن الضرائب تخص الحكومة » ...

ولكنه وعد دقشين ان يحسن جزاءه . . .

وبعدها تحدث دقشين عن الخبر السعيد . . . ولكن « البشارة » التي أعطيت له غير معروفه الآن . . .

وأحضر النحاس « الثور » وقد نال منه البلي ، وفي الحال زين وكسي بجلد من جديد ، وتعالت ضرباته بين التهليل والزغاريد والصياح ، وذبح ثور آخر كرامة للعثور عليه .

وتوجه الشيخ علي التوم للأبيض وأبلغ « ماهون باشا » مدير المديرية بالنبأ السعيد وطلب منه أن تسمح له الحكومة باكمال النحاس وذلك باضافة الثلاث طبلات الضائعة

وبعد ان أذن له ، اخذه الشيخ محمد التوم - الأخ الاكبر لعلي التوم - وهو الذي أرسل والده مع النحاس ليكون في مأمن في « الصافية » مع عمه الشيخ صالح - أخذه الي الخرطوم لاصلاحه وإكماله بقطعه الاربع . . . وعاد بها الي البادية - ومنذ ذلك الوقت اصبح هذا هو النحاس الرسمي لعرب « الكبابيش » .

انتهي ما كتبه مكمايكل عن النحاس ، وأضيف - كما جاء في مستهل كلمتي - أن القطع الثلاث التي وجدها الشيخ محمد ود التوم في الخرطوم لم تعد ذات موضوع عندهم بعد ان توالي العثور علي القطع الاربع ذات التاريخ المرتبط بتاريخ القبيلة ، والآن فان القطع الاربع - الثور ، والبقرة والعجلان ، التي تدوي في حي ناظر الكبابيش الشيخ حسن التوم ، كما كانت تدوي امام احياء آبائه وجدوده - هي نفس القطع الأثرية التي خبأها جدهم الشيخ صالح عام ١٣٠٢هـ - ١٨٨٤م في ذلك الجبل خوفاً عليها من الاسر والغنيمة ، وان لم يخف علي نفسه ومن معه من الاسر والقتل ، ذلك لأنه يعرف سلفاً انهم ذاهبون عن هذه الحياة ، اما النحاس فيجب ان يصان ويبقي للقبيلة .

مع حمزة الملك طمبل

اعود للحديث عن سودري تلك المدينة الصغيرة التي ترقد في هدوء بين سلسلة من الجبال والتلال تلتف حولها من كل جانب . ولقد تحدثت من قبل عن بعض الرفاق الذين لقيتهم هناك ، وعن زعماء العشائر في هذا المركز ، وقد ذكرت من بينهم الشيخ النعمه سوركتي رحمه الله ناظر قبائل الكاجا ، وقد أضيفت نظارته بعد وفاته للشيخ علي التوم ناظر الكبابيش وبهذا اتسعت رقعة نفوذه ، ولن انسي ما حييت شخصية قوية من شخصيات الادارة الاهلية في مركز بارا وهو المغفور له الشيخ اسحق شداد عمدة مركز بارا وقد لقيته اكثر من مرة ، شيخاً مهيباً زاده الشيب وقاراً ومهابة ، قوي الشخصية ازرق الناب كما يقولون ، وهو عندي قريع الشيخ علي التوم من حيث قوة الشخصية والدهاء وكان الاداريون البريطانيون يعملون له الف حساب ، وقد سمعتهم عندما يتحدثون عنه يتحدثون في حيطة وحذر .

وكان مركز سودري - للجبال التي تحيط به وتعدد وديانه وكثبانه - موئلاً طبيعياً للجراد ويتكاثر فيه ويبيض ، ولهذا فقد تعددت حملات حرب الجراد مما جعل المركز يستقبل عدداً غير قليل من الاداريين وضباط الجيش يقودون تلك الحملات ضد الجراد ، وقد تعرفت من بينهم لأول مرة بالسيد عبدالقادر حاج الصافي الذي كان يخلف احياناً

كمأمور للمركز - السيد عبد الرحمن العاقب عند غيابه بالاجازات وقد اتصف السيد عبد القادر بالحزم وقوة الشخصية وكان إدارياً ملحوظ المكانة . وهناك شخصية لا أنساها قط ، هي شخصية حمزة الملك طمبل - الذي كان في وظيفة نائب مأمور وقد جئ به الي سودري ليقود احدي حملات حرب الجراد ، وقد كنت في شوق لاراه فأعرفه عن كثب ، وعندما جئت سودري ، عرفت انه في منطقة جبال الصناقر يحارب الجراد هناك ، فقررت ان أتخذ طريقي اليه لالتقي به وأقضي معه بعض الوقت .

ويعود سبب اهتمامي بهذه الشخصية الفريده الي الضجة الادبية التي أثارها في ذلك العهد علي صفحات جريدة حضارة السودان .

اذكر ونحن في عهد التلمذة في اواخر العشرينات أن استاذنا الجليل الشيخ عبد الرحمن احمد -- مد الله في عمره - الذي كان يعمل مدرساً بمدرسة الخرطوم الوسطي ومدرسة العرفاء التي كنت احد طلبتها . وفي نفس الوقت يقوم بتحرير جريدة الحضارة عند غياب رئيس التحرير السيد حسين شريف - رحمه الله - كما ظل يحررها لفترة بعد وفاته حتي تم اختيار المرحوم سيد احمد عثمان القاضي محرراً لها ، اقول اقترح استاذنا عبد الرحمن علي الشعراء ان يتباروا في تشطير هذين البيتين من الشعر :

أحب الفتي ينفي الفواحش سمعه   كأن به عن كل فاحشة وقرا

سليم دواعي الصدر لا باسطاً اذي   ولا مانعاً خيراً ولا قائلاً هجرا

وفتح صفحات الحضارة لنشر ما يرد اليه من تشطير ملزماً كل مشترك بدفع خمسة قروش طوابع بريد ، وقد جعل الجائزة للفائز الاول خمسة جنيهات ، وهو مبلغ محترم جداً في ذلك العهد .

ولقد تسابق ناشئة الادب للاشتراك في هذه المسابقة الادبية وامتلأت اعمدة الحضارة اسبوعياً بما كان يرد اليها ، وكان فيه الغث والجيد ، وقد بلغ الاهتمام بالمسابقة حداً فائقاً .

وبينما نحن نتابع ما ينشر علي صفحات الحضارة ونرقب في شوق ما يسفر عنه حكم اللجنة الادبية التي كونت لتحكم بين المتسابقين . طالعنا مقالاً سافراً في الحضارة للاديب حمزة الملك طمبل يصيح ملء فمه مستنكراً هذا اللون من الشعر شعر التشطير ، واعود الآن الي نص مقالاته تلك لأقتبس منها ما يلي :

« - لعل اقرب شاهد علي صدق ما قلناه من ان الشعر السوداني كرجع الصدي الضئيل للشعر العربي هذا الباب باب التشطير الذي فتحته الحضارة منذ أسابيع مضت ... ان الشعر لا يحسن فيه إلزام النفس بقيد من القيود والتشطير وما نحا نحوه في إلزام النفس بمشاركة نفس اخري في احاسيسها ولكن بلا طائل ليسأل قراؤنا او شاعرنا نفسه عن الفائدة التي يمكن ان تحصل من تشطير شاعر يعيش الآن في السودان لقصيدة او ابيات شاعر كان يعيش في بلاد العرب منذ الف سنة ، انه سيجد الجواب لا شئ.» .

وتثير كلمة حمزة هذه ثائرة الكثيرين وتتدافع كلماتهم نحو جريدة الحضارة تفند ما جاء في كلمة حمزة عن التشطير وتري فيه أسلوباً حسناً لتدريب الناشئه علي نظم الشعر .

ويرد عليهم حمزة مرة اخري في منطق بسيط فيقول : لتساعد علي ابراز مثل - عملي - لا - نظري -- عن التشطير - هب ان قصيدة ابن الفارض تربيزة كهذة من اربعة

ارجل مصنوعة من خشب الصندل الذكي الرائحة الذي لا يوجد في غير روضة ابن الفارض ، وهب ان مشطر القصيدة نجار دفعه الاعجاب بهذه التربيزة الي تشطيرها بحسب ما يقتضيه فن النجارة فصنع بين كل رجل واخري رجلاً من خشب جيد احضره هو ، ثم صنع بين كل درج وآخر درجاً هكذا ، فماذا يكون الحال ؟

حال عجيب لا التربيزة كما سبق ان رأيناها ، ولا هي لابن الفارض ولا هي لهذا النجار .

وهبوا اننا عارضنا بعض قصائد شعراء العرب فما هي النتيجة - هي اننا لو وضعنا كل معارضاتنا في كفة ميزان وأبيات الشيخ بابكر بدري والتي جعلها بعضهم موضع سخرية في الكفة الاخري لرجحت علي معارضاتنا لأنه يقول :

جاء الخريف وصبت الامطار　　　والناس جمعاً للزراعة ساروا

هذا بمفرده وذاك بابنه　　　والكل في الحش السريع تباروا

الخ ...

وبصرف النظر عن درجة حرارتها فانها تعطيك صورة صحيحة لوجه من وجوه الحياة في السودان فهل فهمتم مرادنا ؟ نريد ان يكون لنا كيان ادبي عظيم نريد ان يقال عندما يقرأ شعرنا من هم خارج السودان ان روح هذه القصيدة تدل علي انها لشاعر سوداني ... ان يكون ادبنا مصنوعاً بحرارة نفوسنا وعواطفنا ليسير موكب الادب السوداني فخماً جليلاً موسوماً بوسم السودان في طريق - المثل الاعلي - .

وتطلعنا جميعاً الي هذا الناقد الادبي الذي يحاول ادخال مفاهيم جديدة علي الادب السوداني ، لا أريد هنا في هذه الذكريات أن اتقصي بواعث حمزة ومدرسة العقاد ورصفائه في القاهرة التي تأثر بها آنذاك ، والي اي مدي كان يتفق او يختلف مع ناقد سبقه زمناً هو المرحوم الامين علي مدني ... ولكن الذي لا شك فيه ان حمزة أثار ضجة أدبية ضخمة حول الآراء التي كان ينشرها في الحضارة ، وأذكر مع الأسف الشديد ان محرري جريدة الحضارة ضاقوا ذرعاً بجرأته وحملته فأوصدوا ابوابها في وجهه معتذرين عن نشر مقالاته ! .

وحمزة شخصية قوية يتميز بالجرأة والشجاعة الادبية الفائقه ... قبل ان ألقاه سمعت عنه الكثير من موظفي مركز سودري وقد رووا لي قصة أري لا بد لي من ان اذكرها هنا ، فهي تكشف لنا عن جانب من شجاعته الأدبية فقد دعا مفتش المركز البريطاني موظفي مركز سودري - وهم عدد قليل - الي تناول الشاي في داره لمناسبة ما ، وكان الموظفون يحرصون حرصاً بالغاً علي تلبية هذه الدعوات التي يوجهها اليهم الاداريون الانكليز في

موعدها المحدد فاذا كان الموعد الخامسة مساء تراهم يحرصون علي ان يكونوا امام دار المفتش في الخامسة تماماً لاتنقص ولا تزيد ، وكان هو ينظر في ساعته فاذا ما جاءت الخامسة تماماً هب لاستقبالهم عند عتبة الدار ، ويندر ان يتخلف احد الا بعد سبق اعتذار ولأمر هام جداً . . . حان موعد الدعوة وجاء الموظفون في موعدهم الا حمزة ، ودارت عليهم اقداح الشاي والمرطبات وحمزة وهو نائب المأمور لم يظهر وجاء اخيراً يدير عصا صغيرة بين يديه واستقبله المفتش متثاقلاً وأراد ان يحمله علي الاعتذار فقال في برود : لعلك نمت ياحمزة ؟

فأجاب حمزة في برود لا يقل عن برود المفتش - كلا - كنت أطالع كتاباً ممتعاً جداً - ولولا انني فرغت منه لتعذر مجيئى الي هنا ! . واحمر وجه المفتش وذهل من كان في الحفل لهذه الإجابة غير المتوقعة في زمن كان فيه هو الحاكم بأمره وفي يده مصاير العباد وخاصة من كان موظفاً واداريا علي وجه أخص كحمزة - لهذا لم أعجب فيما بعد عندما كان حمزة اول من استغني عن خدمته في منتصف الثلاثينيات مع عدد من الموظفين بحجة سوء الحالة المالية آنذاك .

كانت الجمال ترقل بي من سودري صوب جبال الصناقر والطبيعة من حولي تتعدد الواانها المبهجة ، وبي شوق ملح لألقي هذا الاديب الثائر في احضان البادية وبين التلال والجبال يحارب الجراد كما مر ، وكانت قري قبيلة الكاجا وكل بيوتها من القصب تتتالي امامي ، حتي لقيت حمزة في احدها في كوخ صغير من القصب اتخذه مسكناً ، وحوله عددضخم من الرجال والجمال والجنود هم القوة المحاربة للجراد . . . وكان لقاءً كريماً ظل أثره باقياً في أعما ق النفس .

وكان حمزة فارع القوام تقريباً ، أقترب للنحافة ، ناحل الوجه ، يدمن القراءة ولا يريد عنها بديلاً ، أقرب للصرامه منه للبهجة والانطلاق . . . ولا استطيع ان أصف حياة حمزة في ذلك الكوخ يغالب المتاعب ، ويشقي وينعم بالطبيعة من حوله مما جاء في قصيدته التي أنشأها هناك بين جبال الصناقر في مركز سودري وبعث بها الي الحمراء في رسالة حاصة :

الشمس خلف الجبال	غابت ولاح الهلال
والكون في العين أمسي	حقيقة كالخيال
كأ نما كل شئ	مكون من ظلال
تلوح في القفر نار	ضئيلة الاشتعال
وفوق كوخي طيور	وخلف كوخي غزال

وحول كوخي نبات من (حسكنيت (و(نال)
وغرب كوخي واد نما عليه (السيال)
وقد انيخت جمال لتستريح الجمال
وطال تسريح طرفي من فوق أعلي التلال
هذا سكون مريح لمن أطال النضال
لكن نفسي تفانت في حيرة وانفعال
اواه مما تقاسي لجهلها بالمآل
لقد تواري الهلال والبرق في الجو صال
صار السحاب ركاماً او مثلما قيل « شال »
واشتدت الريح كِدْنا نروح تحت الرمال
فكسرت في سراها الاشجار مثل النصال
وصار للرعد صوت حتي تعالي وهال
والجو قد صار ناراً والبحر في الارض سال
وللطبيعة حرب تذوب فيها الجبال
فكيف أنجو بنفسي من شر هذا القتال
هذا هو الغيث فاعجب من وابل فى وبال
الحمد لله راقت وأعقب الحال حال
والشمس مدت الينا من الضياء (حبال)
فأغرق الكون منها بحر من التبر سال
وراحت الطير تشدو وراح يرعي الغزال
وكل شئ أنيس حتي القطا والصلال
وكل شئ عظيم حتي أقل النمال
في الارض واد ، ووادي في الماء او في الخيال
ومن سحاب جبال ومن ظلال جبال
أري جمالاً فماذا وراء هذا الجمال
هذا هو الصبح فانظر هناك بعض الرجال
فهل رأيت الضواري وقد اطلقت من عقال ؟
القوم للسير شدوا علي الجمال الرحال
وهم من الجهل كادوا لا يفقهون مقال

ثم انحدرنا جميعاً　　نجري وراء الخيال
مستأنفين قتالاً　　مع الجراد القتال !
فمات منا رجال　　ومات بعض الجمال !
هذا صيال وهذي　　يا صاح عقبي الصيال
لو كان في الارض عدل　　ما شب فيها قتال
لكن خلقنا وفينا　　ميل لهذا النضال
ما دامت الارض . دامت　　حرب عليها سجال

رحم الله حمزة الملك طمبل الاديب الثائر الذي نزع للتجديد وإني لأرجو ان أوفق للحديث في فرصة اخري من شعره ومكانته الأدبية اما الآن فهذا حديث عابر دعت اليه هذه الذكريات عن البادية وعن الشخصيات التي لقيتها هناك وما طبعته في نفسي من أثر وقد كان اثر حمزة واضحاً بارزاً وسيظل هكذا ما بقينا في هذه الحياة الفانية .

شئ من لهجتهم

كنت كلما تحدثت الي احد البدويين أحسست بفارق اللهجة بيننا وان هناك كلمات كثيرة تدور في أحاديثهم اجهل معانيها ، ولم استطع فهم لهجتهم تماماً واستيعاب كلامهم الا بعد فترة غير يسيرة ، والعجيب ان اكثر الكلمات التي كنت أراها شاذة وغير معروفة لدي عرفت بعد البحث والتنقيب انها عربية فصحي جرت علي السنةالعرب القدماء ، وجاءت في أشعارهم واراجيزهم وحكمهم وأمثالهم ، ويقيني ان أولئك البدويين الذين كنت أسخر احياناً من لهجتهم وبعض كلامهم كانوا أفصح مني لساناً وأفصح بياناً وانهم ينطقون بلسان عربي مبين ! .

أذكر مرة ان لقيت أعرابية كبيرة السن تركت حماراً عليه قربتان من الماء وسألتها اين مورد الماء منا ؟ فالتفتت وأشارت بيدها قائلة :

« شفت القف داك ؟ الاضاة تحته ؟ » ووقفت طويلاً عند كلمة - قف - ماذا تعني ؟ اما كلمة اضاة - فقد سبق لي معرفتها ، فهم يعنون بها الغدير - وفي اكثر مناطق كردفان يسمون الغدير « الفولة » ولكن الكبابيش يسمونه « اضاة » وظللت طوال بقائي هناك اسمع كلمة - « قف » ويعنون بها المكان المرتفع من الارض وظننتها لهجة محلية ومثلها الاضاة .

ورأيت ان أرجع للقاموس والي بعض ابحاث استاذنا الشيخ عبد الله عبد الرحمن عن لهجتنا السودانية في كتابه القيم (العربية في السودان) والذي أرجوا ان يجد من يعني باعادة طبعته فهو ثروة لغوية يجب ان تصان من الضياع وحدثني القاموس المحيط عن كلمة -- قف - فقال :

(القف ما ارتفع من الارض وغلظ ولم يبلغ ان يكون جبلاً) - وحدثني كتاب العربية في السودان لاستاذنا الشيخ عبد الله عبد الرحمن عن الاضاة فقال الأضاة كما في لغة العرب تطلق علي الغدير او المستنقع من الماء يبقي علي وجه الارض ، « والأضية » تصغيرأضاة ، ومنها سميت قرية الاضية لأن في أرضها مستنقعات وقال زهير بن ابي

سلمي يصف درعا بأنها :

مضاعفة كأضاة المسيل

تغشي علي قدميه نضولا

والدرع المضاعفة المنسوجة حلقتين شبهها بالاضاة أي الغدير .

اذن ما افصح تلك البدوية التي اشارت بيدها الي مكان الماء الذي يقع خلف الارض المرتفعة وقالت : « شفت القف ذاك ... الاضاة تحته » وما أجهلني عندما وقفت عند كلماتها حائراً ، وهي تنطق بالعربي الفصيح المهجور عندنا .

ويكثر في لهجة الكبابيش الترخيم ، اي حذف الحرف الاخير احياناً من الكلمات فهم ينطقون - الشمس « الشم » بحذف السين ، ويلتقون في هذا ببعض لهجات اشتهر بها الشكرية في شرق السودان .ومن ذلك بيت الحردلو المشهور :

« الشم خوخت بردن ليالي الحرة » . وفي اللغة العربية اشباه لهذا علي ان اكثر ما كان يقلقني اول عهدي به استعمال ضمير المتكلم - انا -فهم لا ينطقونها الا بالاماله للكسرة ، فيقولون - اني - وتشترك معهم اكثر قبائل كردفان ودارفور في هذه الـ« اني » المكسورة ، ويقولون في اسم الاشارة دا - دي - بإمالة الدال نحو الكسرة فاذا اراد احدهم ان يقول - انادا - قال : « اني دي » و « دي » تنطق بين الفتحة والكسرة واقرب الي نطق الحرف « جي» « J » .

وكنت اذا ما تحدثت اليهم وجاء في حديثي كلمة « انا دا » ونطقتها كما ننطقها هنا ، شعروا بمفارقة كبيرة بيني وبينهم ، وقد اضطررت لكي اتجاوب معهم شعورياً وأزيل هذه المفارقات التي تباعد بيننا روحياً ، أن اعمد الي لهجتهم فأقول : أني ... ودي... وغير ذلك من الكلمات التي تعودوا ان يميلوا بها نحو الكسرة في آخرها كلما كان الآخر ألفاً مقصوراً او ممدوداً

وقد وجدت أهل سوريا ولبنان والعراق ينطقون ضمير المتكلم - أنا ـ مثلما ينطقها الكبابيش - انى - مع مد فتحة الألف قليلاً .

ومن لهجاتهم التي استرعت انتباهي ايضاً انهم يقلبون أحياناً الالف « عيناً » وخاصة في الاسماء ، قاسم - الجاك - مثلاً - وهو من الاسماء المتعارفة بينهم كثيرا - ينطق احياناً - عجاك - وهكذا عكس قبائل - الكاجا - من حولهم الذين يبدلون العين الفا في كل احاديثهم ، كما يقلبون ايضاً الالف عيناً ...

أما الكبابيش فهم يقلبون احياناً ، الالف كقولهم - عجاك - للجاك كما اسلفت .

وقد ألهمني كتاب - **العربية في السودان** الاجابة علي تساؤل طال امده في هذا

الشأن .

ويقول استاذنا الشيخ عبد الله في كتابه آنف الذكر :

العرب يبدلون - العين همزة - والهمزة عيناً - فيقولون في - علي - ألي - وفي أمر - عمر - كما ورد ان العرب تقول - أستأديت الامير علي فلان - في معني استعديت الامير علي فلان .

تقول العرب ... موت زؤاف وموت زعاف ، كما يقولون السأف - والسعف وقال الشاعر :

« عني » غنيت بذات الرمث أي ... « اني » غنيت ... الخ

وسخرت من نفسي أضعاف سخريتي من اولئك الذين كنت اسمعهم يبدلون العين الفاً او الالف عيناً ، وظننت بهم العجمة ، وكنت اقرب اليها منهم !

فان اتيح لك يوماً - سيدي القارئ ان تسمع الي بعض البدويين يتحدثون بكلمات غريبة الي مسمعك ، او يبدلون بعض الحروف علي غير ما تعهد فاتهم نفسك بالعجمة اولا وعد الي كتب اللغة واستفتها تنبئك باليقين ، فما زالت صورة تلك الاعرابية تشير بيدها الي : القف والأضاة تطل علي ساخرة مني ، ومن جهلي يومذاك وانا اقف حائراً لا ادري ماذا اقول !

ولا انسي المرحوم الشيخ علي التوم عندما وصلت حي الحمراء أول مرة يسألني في بساطة قائلاً :

- البزُّور - يجوك متين /

وكان يعني متي يجئ اليك الاولاد لتبدأ معهم الدروس ... ولكن كلمة « بزُّور » بفتح الباء وتشديد الزاي المضمومة ... كانت شيئاً غريباً علي مسعمي وجهلت ماذا يعني بها ... وقد أدرك الشيخ في سرعة خاطفة أن كلمة « بزُّور » استعصت علي فهمي ، فضحك وقال ... نحن نقول هنا - البزور - للاولاد ! .

« والبزور » معروفه ، والتشبيه مستقيم وقوي عرفت ايضاً فيما بعد أن أهل البلاد العربية السعودية هكذا يسمون الاطفال : البذور !

ألا ما أكثر ما تعلمت من لغة الكبابيش ألفاظاً عربية فصيحة لم اسمع بها من قبل !

وكلمة : ولد واولاد ، ينطقونها « الليد » بالتصغير للمفرد ، والليدات للجمع بحذف الواو لكليهما . وللسفر عندهم الفاظ خاصة لكل منها مدلول فإذا قيل فلان (سفر) بحذف الألف في سافر فانه ذهب لشراء الذرة مع القافلة التي تتحرك لهذا الغرض .

ولما كان الكَبابيش قوماً رعاة فهم لا يحفلون بالزراعة فاذا ما عادوا من رحلة النشوغ - واستقروا في الدمر -- حول الآبار خرج الرجال في قوافل منتظمة الي مركز النهود حيث يكثر المزارعون وتوجد الاسواق لبيع « الدخن » الذي هو احب شئ لديهم في الغذاء وحملوا معهم النقود الكافية لشراء ما يكفيهم لعام كامل او بعض العام ، كل حسب طاقته ، وتعود الجمال محملة بهذا الدخن في « قراف » ضخمة والقَرفة تصنع من جلد البقر وتحمل فيّ جوفها ما يقرب من أردب كامل .

اذن فكلمة - فلان سفر - لا يعني غير هذه الرحلة ، أما ان كان سفره او غيابه لغير ذلك فتستعمل كلمة - مدّ بتشديد الدال المفتوحة . . . فلان - مدّ بمعني سافر أو خرج .

وتكاد تكون كل المصطلحات الخاصه بالابل وسقيها عربية فصيحة فهي عندما تكاد ترد الماء ، يقولون عنها « عطين » ويسمون مباركها حول الماء « المعطي » وكلها عربية فصيحة . وحبل « الدلو » يسمونه « الرشاء » وهي عربية فصيحة .

وفي اغاني الحقيبة ، شبه احد شعرائها شعر حبوبته بهذا الرشاء في طوله وغزارته فقال :

« الشعر مردوم كالرشاء » .

وقبل ان ترد الابل الماء وتكون في حاجة للسقي يقولون : الابل « ضمي » وهو تحريف بسيط لكلمة - ظماء - علي طريقتهم في الامالة ، وهم يحددون فترة ورود الابل للماء في الصيف بنحو تسعة ايام ، اما في الشتاء فقد تمتد الي اكثر من ثلاثة اسابيع ويسمونها الفترة بين « الضمي والضمي » اي بين الظمأ و الظمأ .

اما بيت الشعر الذي يسكنونه فتكاد تكون كل اجزائه تحمل اسماء عربية صحيحة ، فهو يقوم علي العمد - كما يسمونها ويشد بحبال يسمونها - الطنائب ، وواحدتها « طنيبة » .

واكثر ما كان يستهويني في الزينة التي تعلقها البدوية داخل هذا البيت وتحلي بها هودجها عند الرحيل ، سيور رقيقة من الجلد قد ضفرت بعناية فائقة وحليت بالودع من احجام مختلفة وطول هذه السيور الرقيقة الناعمة المزخرفة بالودع وحلقات صغيرة من القصدير الابيض يقارب المترين ، تنتهي عادة بأجراس صغيرة ويسمونها « ايد الفايقة » اي يد المرأة الفارغة من العمل « فايقة » ! وهو تشبيه طريف كما تري فالمرأة التي لا تعمل شيئاً تكسبُ يداها نعومة وليناً بخلاف التي تشقي وتعمل بيدها ، وقليل جداً من البدويات من لا تعمل بيدها وتشقي بجانب الرجل ، فالبدوية تعمل عملاً شاقاً وعسيراً ، فهي تحتطب ، وترد الماء وتصنع الطعام وتحلب اللبن . ما عدا لبن الابل إذ يقوم بذلك

الرعاة انفسهم وتغزل الصوف لبيتها ، وفي حالة الرحيل هي التي تقَوض البيت ليحمل علي الجمل ، وهي التي تعيد نصبه عندما يبلغون مكانهم الجديد .

ولا ادري عندما اطلقت علي سيورها اللينة الرقيقة الدقيقة - يد الفايقة أكانت تسخر من تلك اليد « الفايقة » ام هو حلم وقد حرمت منه ! .

ما كفيل المستبد الصغير

مستر ماكفيل ... مفتش الرئاسة بمديرية كردفان ، الفتي المعجب بنفسه المدل بسطوته وجبروته ، لن أنساه ما حييت ، ولن تبرح من مخيلتي هذه القصة التي أرويها اليوم وقد مضت عليها سنوات طويلة ، كأنها حدثت بالامس القريب .

انقضت اجازتي السنوية بين سنجة والخرطوم ، وتأهبت للعودة للبادية لأواصل عملي ، وانا احمل هماً ثقيلاً للسفر الي تلك المنطقة بهذه الجمال ... وكنا عندما نبلغ الأبيض - نحال الي تاجر - متعهد ترحيلات هو الشيخ « بركية » ، ليعد لنا الجمال التي ترحلنا ... وفي أحوال نادره كنا نظفر بسيارة حكومية تقوم الي سودري وبها أحد الاداريين البريطانيين .

وقبل أن أصل الأبيض لأبدأ رحلتي وصلتني رسالة من الصديق الكريم السيد عبد الرحمن العاقب - مأمور سودري في ذلك الوقت - يبلغني فيها موعد قيامه من الخرطوم للأبيض ويطلب اليَّ ان القاه بالابيض حيث يستطيع ان يعد سيارة حكومية لتقلنا الي سودري ، ومن هناك أواصل سفري بالجمال للبادية فسررت بهذا لأن السفر بالسيارة حتي سودري يعفيني من مشقة السفر بالجمال لجزء كبير من الرحلة .

ووصلت الأبيض ولقيت السيد عبد الرحمن هناك ومنه علمت أن المستر ما كفيل مفتش الرئاسة سيقوم معنا الي سودري ، وان هناك ثلاث سيارات ستكون في هذه الرحلة ، واحدة صغيرة لماكفيل ، واثنتان من نوع (اللوري الصغير) « بوكس » ستكون لنا .

وحدد موعد السفر ، وتقرر ان نجتمع في ظلال اشجار كبيرة بالقرب من « فولة الابيض » والتقينا هناك ، وجاء ماكفيل في سيارته الصغيرة ليتقدم ركبنا وجاء ايضاً جندي من بوليس سودري ومعه زوجته وابناؤه الثلاثه ، كان احدهما طفلاً تحمله امه علي كتفها - ويبدو ان هذا الجندي قد سمع بتحريك هذه السيارات الي سودري ، وكان قادماً من الاجازة في طريقه اليها فانتهز الفرصة ليسمح له بالسفر معنا ، وكان المجال متسعاً له ، فالسيارتان الكبيرتان خاليتان من الخلف الا من بعض « العفش » - وخدم المفتش -

وتقدم جندي البوليس يستأذن ، وثار ماكفيل ثورة عارمة ، وأغلظ القول للجندي ، وأمره ان ينصرف في الحال وأن يركب هو واسرته الجمال حتي سودري .

وعجبت لأمره ، ماذا يريد من تعذيب هذه الاسرة ، والاطفال امامه كزغب القطا ؟ . وكبرت في نفسي فعلته ، ولكني لا استطيع ان افعل شيئاً ، وهنا تقدم منه الرجل الطيب عبد الرحمن العاقب و ما زال به حتي استرضاه ، وسمح للجندي ان يسافر معنا في السيارة التي خصصت لي ، وفي خلفها بعض عفش ماكفيل ، واخذ الجندي يضع عفشه اليسير ، ثم ركبت زوجته وناولها الطفل الصغير ، ثم رفع طفله الثاني ، وما كاد يرفع الثالث . . . وقد انحسر جلبابه عن رجليه حتي صرخ فيه ماكفيل في وحشية غريبة ، وأمره ان ينزل اطفاله حالا من السيارة . . . ! واضطرب الجندي . ووقف بغير حراك ، وقد ارعبته المفاجأة ولم يدر - ولا نحن - سبباً لهذا الهياج ، حتي اشار ماكفيل الي رجل الطفل الاخير الذي كان يهم والده بوضعه في السيارة . . . والتفتنا الي حيث اشار ،فرأينا تسلخاً بسيطاً في رجل الطفل ، وعلمنا انه بسبب نار أحرقته قبل ايام وقد التأم الا من آثار بياض في الجلد . . . وأصر ماكفيل الا يركب الطفل حتي لا يعدي عفش ما كفيل بمرضه ! . وحرنا ماذا نفعل ، وقد ملأ الشر وجه ماكفيل وهو يعض بنواجذه علي غليونه في عصبية واضحة ، ولكن الرجل الطيب عبد الرحمن العاقب لم يأبه لغضبه ، وعاد اليه يلح في السماح للجندي واسرته بالسفر معنا مؤكداً له ان ليس برجل الطفل مرض يخشي منه ، وانما هي آثار حرق قديم . . . ورضي بعد لأي ان يركب الجندي واسرته معنا . . .

وتمثل لي السيد عبد الرحمن العاقب في تلك الآونة وهو يشفع للجندي عند ذلك الطاغيه ، فيلسوف المعرة ، ابو العلاء المعري ، وقد أكرهه اهل المعرة لكي يلقي الامير صالح ، وقد أحاط بهم بجنوده ليشفع لهم عنده وينصرف ، وخرج الشيخ الي الامير صالح ، الذي قبل شفاعته بعد لأي ، بعد ان أبدي كل ما يملك من مظاهر السطوة والطغيان . . . وعاد المعري الي اهل المعره ليقول لهم ان الامير قبل شفاعته - وعاد الي محبسه وفي قلبه حرج من هذا الموقف وقال :

بعثت من القوم الي صالح
وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمام
وأسمع منه زئير الأسد

ألا رحمك الله يا ابا العلاء فما زال في الناس مستبد نسمعه سجع الحمام ويسمعنا زئير الاسد ! . ومن « فوله الابيض » انطلقت السيارات بنا غرباً ، وكنا في اعقاب الخريف

، ومن أراد ان يرى جمال الطبيعة في أبهي صورها وألوانها فليزر كردفان في اعقاب الخريف ، لقد خفف عنا ما لقينا من لؤم ما كفيل سخاء الطبيعة من حولنا ، فالارض علي مد البصر خضراء خضراء ، والاشجار مورقة والربوات مكلله بالنبت الاخضر والوديان جنات تبهج النفس... وما زلنا ننتقل بين هذا النعيم حتي بلغنا -المزروب - حيث نأخذ قدراً من الراحة في - الاستراحة - التي هي عبارة عن عدة « قطاطي » صغيرة من القش... ونزلنا وما كدنا نستقر قليلاً حتي أهل علينا ركب المرحوم الاستاذ الطيب حويج مفتش الخلاوي النظامية لمديرية كردفان آنذاك ، والاستاذ الطيب - طيب الله ثراه - رجل عذب حلو المعشر كان في نحو الاربعين من عمره أقرب الي البدانة ولهذا كان يطوي تلك الفلوات علي ظهر حصان ويكره ركوب الجمل ، ومن خلفه الحملة تتبعه بالجمال... واني لأنظر الآن في تقدير عميق الي اولئك الرواد من رجال التعليم ، يقطعون الصحاري والوديان والوهاد علي ظهور الجمال والخيل والثيران ليؤدوا رسالتهم في ايمان وصبر ، واذكر الشيخ الطيب حويج بوجهه المشرق وحديثه العذب وقد جاء بحصانه من دار حمر - النهود - ليبلغ دار حامد - بارا - ثم يصعد حتي الهواوير - قرب دنقلا - ليعود بعدها الي الابيض علي ظهر الحصان !...

ونعمنا بجلستنا القصيرة تلك في استراحة المزروب وقد اشتهر المرحوم الطيب حويج بلازمة في الحديث لا تفارقه قط ، كان اذا اعجبه شئ ما صاح ملء فمه... تلاتين !... وان كره شيئاً ما... صاح ايضاً ملء فمه... صفر !

وتأهبنا للرحيل ، نحن الي سودري بسياراتنا الثلاث ، والاستاذ الطيب الي دار حامد علي ظهر حصانه .

وأبي ماكفيل مرة أخرى الا ان يفسد علينا تلك اللحظات الهانئة التي قضيناها ..

كان من بين عفشه - صفيحة فارغة كان خادمه يغلي فيها الماء للغسيل وقد اسود ظاهرها لكثرة ما وضعت علي النار ، حتي انك لتأنف ان تمسها بيدك... ويبدوا ان كان في الصفيحة بقية ماء فدنا منها - لسوء حظه - جندي البوليس ، ورفعها الي فمه ليشرب ما تبقي من ماء وفي تلك اللحظات خرج ماكفيل من « القطية » ليري الجندي يكرع من الصفيحة... وثار ثورة عنيفة ، وألقي الجندي الصفيحة مسرعاً وهو يضطرب فزعاً ، وقد اقترب منه ماكفيل وهو يسب ويتوعد . كيف يجرؤ هذا الجندي القذر ويشرب من صفيحة المفتش ؟ . حتي لو كانت الصفيحة مما يغلي فيها الماء وقد اسود ظاهرها وصارت غير صالحة كماعون للشرب ! . كيف كيف يحدث ذلك ؟ وبقينا فترة وماكفيل ثائر ساخط ووجهه محتقن بدماء الغضب ولا تسل كيف كانت حالتنا النفسية آنذاك وماكفيل

غاضب مهتاج لصفيحته التي عجبت كل العجب كيف طابت نفس ذلك الجندي للشرب منها !

وبعد ان أشبع ماكفيل الجندي سخطاً وتشنيعاً ، اصدر أمره الكريم في الحال ان يغير الاستاذ الطيب حويج وجهة سفره ، فيقوم معنا الي سودري وان يترك حصانه للجندي كي يركبه ويلحق بنا في سودري .

ولم يكن هناك بد من تنفيذ هذا الامر وقلنا للجندي لا تحفل بما حدث فستكون اسرتك موضع الرعاية منا حتي تبلغ سودري ، وكان للجندي لحسن الحظ شقيق هناك ومن الجنود ايضاً .

وتحركت بنا السيارات ... وكان معي في السيارة الاستاذ الطيب وهو يحوقل وينظر الي ماكفيل ويهتف في حرقة ... صفر ! ... ثم يلتفت اليَّ ليقول : هبه يريد عقاب الجندي ، فما ذنبي انا لأغير وجهة رحلتي الي سودري !

وركب الجندي الحصان ، ليبلغ سودري في اليوم التالي لوصولنا اليها . وقد أودعنا اسرته عند شقيقه .

كان الطريق بين المزروب وسودري سيئاً لكثرة كثبان الرمال فيه ، وان لم تغب عن أعيننا تلك المناظر الجميلة الخلابه التي خلفها الخريف أينما اتجهنا ... وقد أمتعنا الاستاذ الطيب رحمه الله بتعليقاته اللطيفه العذبة ، فكان كلما شاهد منظراً خلاباً حدد فيه بصره ، وشدني اليه بيده وهو يهتف ... تلاتين ! فاذا ما اعلتت السيارة كثيباً مهيلاً من الرمل واخذت تعوي كوحش أطبق عليه الشرك ، وعجلة القيادة تتلوي بين يدي السائق ، نظر الي كل هذا والابتسامة العذبة تملأ وجهه وهتف بصوت مرتفع ... صفر !

وبلغنا سودري ، ولما تنته الرواية ، اذ ما كاد الجندي يصل علي حصان الشيخ الطيب حتي أصر ماكفيل علي محاكمته ، لماذا ؟ لأنه شرب من صفيحة المفتش ... صفيحة الغسيل التي يأنف الحيوان من الشرب منها .

لئن كان بعض الاداريين البريطانيين يتظاهرون بنعومه الملمس كالثعابين ، فقد كان إخوان لهم يأبون الا ان يواجهوا السودانيين بكل ما يعتمل في نفوسهم من طغيان واستبداد

وكان ماكفيل أحد هؤلاء ، واني لشاكر له اذ أهداني في ذلك الوقت الباكر ماعمق في نفسي الاحساس ببشاعة الاستعمار !



ما كفيل المستبد الصغير

لقد عودنا الاستاذ نجيلة ان يرجع بذاكرتنا للوراء لنستمتع بذكريات الشخصيات الفذة مثل تلك التي ضمت رجالاً اوفياء لمواطنيهم ووطنهم كالوالد المرحوم الشيخ علي التوم - لذا فإني لا اترك الفرصة تمر دون ان اذكر جزءاً هاماً من مذكرات ذلك المفتش البريطاني الذي عمل فترة من الزمن في دار الكبابيش الي ان تدرج الي رتبة مدير للمخابرات بمكتب السكرتير الاداري حينذاك وما سأذكره هنا عن لسان ذلك المفتش البريطاني قد وقعت احداثه عندما كان يعمل مديراً للمخابرات كما ذكرت سابقاً ، عند زيارته لمديرية كردفان للمرة الثانية كما سجل في كتابه ، وقد انتدب لتلك الزيارة عقب اجتماع حصل بينه وبين الوالد المرحوم الشيخ علي التوم بالخرطوم ، فقد ذكر « انه كان هناك عداء بين قبيلة الكبابيش وقبيلة حمر التي تشغل جزءاً كبيراً من مركز النهود والمنتشرة بمركزي الاضية وابو زبد بما يقرب من المائة سنة ، وان هذا العداء المستحكم قد بذرت بذوره عند هجرة حمر من دارفور الي كردفان في اوائل القرن التاسع عشر - هذا ورغم الصداقة التي نجمت عن الملمات التي اكتوت بها القبيلتان في عهد المهدية والتي كان من شأنها إزالة ذلك العداء . واستطرد المفتش البريطاني في كتابه (علي ظهر الجمل) يقول : «إن حظ هاتين القبيلتين خلال الحكم الثنائي كان مختلفاً اختلافاً بيناً وغير عادي ، فالكبابيش بالرغم من خسائرهم خلال المهدية كانوا قد توصلوا الي اعادة بناء طريق حياتهم كبدو رحل ويرجع الفضل في ذلك الي امانة وقوة خلق الشيخ علي التوم اللتين ساعدتا علي تمتعهم بقوة الحكم الذاتي في كل ما يختص بشؤونهم الداخلية .

أما القبيلة الاخري فقد كانت تنقسم الي ثلاث نظارات مما جعل اتحادها ضعيفاً ، وقد كان النظار الثلاثة يقطنون بلدة « النهود » في قلب دارحمر الا انه قد حرم عليهم التجوال بحرية بين أهلهم الذين كانوا يدارون بوساطة عمد المقاطعات وشيوخ القري ، أما هم أنفسهم فليس لهم اي اشتراك فعلي في الادارة ، وكان ذلك عندما حضر الي النهود عام ١٩١٧ وكان من الصعب التكهن آنذاك عما اذا كان هؤلاء النظار الثلاثة سيكونون قائدي النهضة القبلية والادارة المحلية أم لا . . هذه هي ما كانت عليه الحالة في تلك الآونة

حتي بداية سريان تيار الانتقال عام ١٩٢٧ الي ان تدخل في الموقف عامل غير عادي اطلاقا . . . الا وهو الشيخ الشهير علي التوم الذي كان يحمل لقب السير كفارس بالامبراطورية البريطانية وهو من اعز اصدقائي ولا يحمل لي أي بغض او كراهية علي العمل الذي قمت به في تعداد مواشي الكبابيش عندما كنت مفتشاً بدارهم قبل عشر سنوات ، وقد كان الشيخ التوم لا يترك الفرصة تمر دون مقابلتي كلما وصل الخرطوم ، وفي احدي زياراته للخرطوم عام ١٩٢٧ زارني بالمنزل لتناول فنجان قهوة وكانت جلستنا تلك تختلف كثيراً عن جلساتنا السابقة بداره ببادية الكبابيش - وفي تلك الجلسة تحدثنا عن الشؤون القبلية ،وبما ان الشيخ علي له إلمام تمام بما يدور في القبائل الاخري ، الا انه لم تكن لديه الرغبة الشخصية في الخوض معي في التغيير الذي طرأ علي الادارة رغم أن ذلك يؤثر عليه كثيراً وخاصة في الصعوبات التي نجمت عن ذلك والتي من شأنها عرقلة سير الامور التي يتنسم منها عبير الحرية الكاملة ، وفي اثناء تلك الجلسة ابتدرني الشيخ علي فجأة وبدون سابق انذار - قائلاً بطريقته الموسيقيه في الحديث. . . - هؤلاء الحمر - لماذا تتركهم الحكومة منقسمين الي ثلاث نظارات عديمة الفائدة وسجينة بالنهود ؟ هذا كلام غريب ! لقد كانت نواياه حسنه نحو هؤلاء الورثة للعداء ، لكنني لم أر ما يبرر تدخله في شؤونهم . وفي نهاية ذلك السؤال ، ابتدرته قائلاً : ماذا تنتظر ان تفعل الحكومة بهم ؟؟. فرد الشيخ علي قائلاً : هناك رجل يصلح لنظارة كل القبلية كما كان يفعل اجداده فابتدرته سائلاً : من هو ؟ فرد الشيخ علي التوم : انه منعم منصور ، انه علي ما اعتقد يعمل الآن شيخاً او وكيل شيخ لقرية صغيرة منزوية بمركز أبي زبد . ولا أدري لماذا تركته الحكومة هكذا ؟ فابتدرته سائلاً : هل تقبله قبيلة حمر ناظراً عليها ؟ فرد الشيخ علي التوم قائلاً : بدون شك ، واستمر في حديثه قائلاً : وليست الوراثه هي سبب لياقته فحسب ، بل لأنه رجل طيب ومتدين ولا يتعاطي الخمر وستري مدي سرور قبيلة حمر لو أقدمت الحكومة علي تعيينه . . .

إن ثقتي عظيمة بحكم الشيخ علي في مثل هذه الامور ، ولكن هنا اشخاص آخرون يعنيهم الامر مباشرة اكثر مني ، كمفتش مركز غرب كردفان ، ومدير المديرية اللذين يجب أولاً أن يدرسا الاقتراح ويصدق عليه السكرتير الاداري . وبعد أن ناقشت هذا الموضوع مع كريج نائب السكرتير الادراي توجهت الي الابيض لأتشاور مع مدير المديرية الذي أبدي الترحيب بهذا التدخل وطلب مني التوجه الي النهود لأتباحث مع مستر مايول مفتش المركز في هذا الامر ، وتمت الترتيبات علي ان أسافر عن طريق ابي زبد لأقوم بزيارة عابرة للشيخ منعم في قريته ، أبو جفالة ، كي اتبين حقيقة هذا الرجل ،

ومزية هذ الاستطلاع الاول ، هي انني لم أكن احد المسؤولين في هذه المديرية ولذا فإن زيارتي لن تتسم بأن لها علاقة بالسياحة المحلية .

وقد وصلنا قبل الغروب الي ابي زبد وكان أول ما التقيت به باشجاويش البوليس الذي تعرفت به بمجرد ان وقع نظري عليه فهو نفس الشخص الذي عينته قبل عشر سنوات ترزياً برتبة وكيل أمباشي في سودري . واصطحبت معي احد رجال البوليس الذين يعرفون الطريق جيداً الي قرية منعم منصور ، وبدأنا السير متجهين الي النهود ، وما ان غربت الشمس بقليل حتي انحرف بنا الطريق الرئيسي الي طريق جانبي يؤدي الي « أبو جفالة » التي قيل لي بأنها ليست علي بعد كبير . ولكن هذا الطريق كان وعراً ولا تستطيع العربات الخوض فيه ، وفعلاً كنا نزحف بالسرعة البطيئة خلال الظلام الكثيف الذي كان يكتنفنا الي أن غاصت عجلات اللوري في رمال رطبة ناعمة حتي مؤخرة الشاسي .

ومضت ربع الساعة ونحن نكد ونحفر بالطورية ، ونضع الحشائش تحت العجلات وندفع بالعربة في جنون كمساعدة لما كينتها ، ولكننا لم نحرز اي نجاح ،وكم اشتقت الي اسطولي السالف - الجمال !!

وقضيت الصباح التالي في (أبو جفالة) التي لم تكن قرية كبيرة ، ولكني ذهلت لنوع شيوخها الذين خرجوا جماعة واحدة لاستقبالي والترحيب بي ، لقد كانت نفوسهم تحمل أجمل أخلاق العزة وسلوك التبجيل ، لأحسن أقوام من العرب . وعندما تحدثت إليهم خيل إليَ ان الرجل الذي يعنونه كشيخ لهم ، تنطبق عليه تلك الخصائص التي وصفها به الشيخ علي التوم .

ووصل أخيراً شيخهم ، منعم منصور ... صغير السن نسبياً أشيب اللحية ، ذو أدب واعتدال في حضور من يكبره سناً ، وساءلت نفسي عما اذا كان هذا الرجل له من القوة لكي يكون (السلطة المحلية) لكل قبيلة حمر التي هي واحدة من اكبر القبائل في أواسط السودان ؟ ،لكني لم أشعر بأي شك يخالجني في هذا المكسب الذي أحرزته .

وفي النهود استمع مايول الي قصتي بشغف ، وكما تبين ، فان منعم منصور لم يكن غير معروف كلية ، وان كان ذا طبع خجول هياب ، وقد تعهد مايول علي اي حال بأن يأخذ الرأي القبلي في صلاحيته لقيادة كل الحمر ، وقد تركت الموضوع الي هنا وعدت الي الخرطوم .

وبدأت الحوادث تتحرك تدريجياً لكن في ثبات نحو النهاية التي رسمها الشيخ علي التوم ، وفي ديسمبر عزل ناظر قسم العساكر واختير منعم ليحل محله ، وفي العام الذي

تلاه بدأت القبيلة تحت رئاسة فرد واحد مع ثلاث نظارات في تكوين وحدتها ، وكان ذلك اقتراحاً ، وتمت الموافقة عليه وبتراضي الناظرين الآخرين صار منعم ناظراً لعموم الحمر .

وقد خلق امر تعيينه روح التماسك والتضامن والفخر في القبيلة التي كانت وشيكة الوقوع في اضطرابات داخلية .

محمد التوم عبد الله عز الدين

تعقيب :

لعل المتتبع لهذه الذكريات يذكر ما نقلته عن مذكرات نيوبولد الاحاديث التي دارت بينه وبين الشيخ علي التوم والتي حاول فيها نيوبولد ان يستطلع آراء الشيخ عن نظار القبائل من حوله وفيهم من يعلم علم اليقين أن الصلة بينه وبين الشيخ لم تكن مرضية ، مع ذلك فقد ارتفع شيخ العرب الاصيل وسما في اجوبته ولم يفتح ثغرة للمستعمر ضد أحد النظار الذين جري الحديث عنهم في تلك الجلسات .

وها هو مدير المخابرات يكشف لنا في مذكراته هذه عن جانب خفي ، ويصور لنا كيف اشار الشيخ علي عليه أن يوحد شمل نظارة حمر المبدد لتكون للقبيلة كينونتها وعزتها ووحدتها رغم الخلافات القبلية القائمة ، ويشير اليه باختيار الشيخ منعم منصور لتنضوي القبيلة تحت لوائه موحدة .

لقد عشت مع الشيخ علي أربع سنوات كاملات لم أسمعه خلالها يتحدث عن نفسه مفاخراً بما فعل قط ، وكنت أجد صعوبة بالغة في جره للحديث عن نفسه عندما يتصل الحديث بشئ من التاريخ ويكون له نصيب فيه ...

ان هذه دروس رفيعة المستوي في الوطنية والخلق ما احرانا ان نتملاها ، فقليل أولئك الرجال الذين يرتفعون فوق أغراضهم ونزعاتهم الشخصية وينسون عداواتهم ويقدمون مصلحة البلاد العليا فوق كل اعتبار ، ولقد كان علي التوم - رحمه الله - مثلاً فريداً في كل ذلك

طفل وعلق

عجبت له وأنا أتأمله وبين يديه بعض عظام خروف - لوحة الكتف والذراع معاً - وهو يحاول في رفق واناة أن يخرق العظم من ناحية الكتف ، فاذا ما تم له ذلك ، أدني منه أربعة عظام اخري ، كل منها يمثل ساق خروف وأخذ يثقبها أيضاً في رفق واناة .

وسألته ماذا تفعل ؟ ... فنظر اليَّ وعلي فمه ابتسامة ساخرة وقال : الا تعرف هذا ؟ !

قلت : كلا ... قال ألا تفعلون مثل هذا عندما تلدون أطفالكم ؟ وازداد عجبي ، وتساءلت ، تري ما هي العلاقة بين عظام خروف مثقوبة وبين مولد أطفالنا .

ولم تطل حيرتي ،فقد كشف صديقي البدوي عن السر في هذا وهو يجمع العظام المثقوبة في حذر بالغ كأنما يخشي عليها أن تصاب بسوء فتثلم اطرافها أو تتكسر ، ويقول لي في عبارات متقطعة ... هذه عظام العلق ... الا تعرف العلق ؟ (بفتح العين واللام) ... قلت لا أعرف ، فماذا تعني بهذه الكلمة .؟ فأجاب متمهلاً ... إننا عندما يولد طفل ونذبح خروف (سماية) ، نأخذ سيقان الخروف الاربع ، وعظمة الكتف ، ثم نثقبها جميعاً كما تري ، وننظمها في خيط واحد ، ثم نعلق هذه العظام عند رأس ام الطفل ، ونسمي هذا علقاً !

وسألته ، أهي العظام وحدها التي تكون هذا العلق ؟ فأجاب - وبسمة السخرية ما تزال مرتسمة علي وجهه لجهلي بهذه العادة التي ما كان يعتقد ان هناك من لا يعرفها ... اننا نختار معها محجناً ... أتعرف المحجن ؟ . فأجبت هذه المرة بالإيجاب .فقد شهدت المحجن كثيراً في أيدي الصبية ، والصبايا يجذبون به فروع الاشجار المخضرة ويقطعونها بفؤسهم لترعاها الغنم من حولهم . والمحجن عصا طويلة ركبت في اعلاها قطعة من الحديد علي هيئة السنارة تجذب بها فروع الاشجار ...

وتذكرت أن « المحجن » كلمة عربية فصيحة ما زالت تعيش بين الكبابيش بلفظها ومعناها العريقين في عروبتهما - وتذكرت ايضاً « ابا محجن الثقفي » ولعل اسمه مأخوذ عن هذا المحجن .

وعدت لصديقي البدوي أسأله ... عظام خروف ومحجن ... أهذا كل العلق ... قال كلا ... اني سأذهب الي شجرة « لعوت » لأقطع منها اعواداً اصنع منها عصيا رقيقة ، وأثني بعضها علي هيئة دوائر ونسميها « الكارات » وأترك بعضها عصياً مستقيمة وأربط كل هذا وأعلقه في الخباء حذاء رأس النفساء ... ويظل هذا العلق بهيئته هذه باقياً في مكانه حتي تكمل النفساء اربعين يوماً ... وهنا سألته ، لماذا تأخذ العلق من شجر اللعوت دون سواه ؟ ... صمت فترة يبحث عن جواب ، ثم قال : لست ادري ... هكذا وجدنا اهلنا يفعلون ! ان شجرة اللعوت وحدها هي التي يجب ان تؤخذ من فروعها العلق ، كما ان عظاماً غير عظام خروف «السماية» لا تجزي ... وقلت في نفسي ما السر في جمع محجن ، وعظام خروف ، وعصي مستقيمة ومستديرة من شجرة اللعوت دون سواها من الشجر لحماية النفساء من السوء ؟ ... لا احد يدري الا أنها عادة كغيرها من العادات التي علينا ان نعرف تاريخها وما كان يرمي اليه الأوائل الذين ابتدعوها .

وتركت صاحبي يبحث عن شجرة « لعوت » يبري من فروعها ما يكمل به العلق ، وشرد ذهني يبحث عن اصل هذه العادات ، ووجدتني اسائل نفسي ايضاً عن اصل قبيلة الكبابيش ، من اين تنحدر ، فلعل معرفة هذا تلقي اضواء علي هذه العادات التي تمارسها ... فما هو تاريخهم ؟ وهل من سبيل الي معرفته ؟

ومن شيوخ الكبابيش استطعت ان أعرف تاريخهم هنا داخل السودان ، ولكنهم لا يعرفون ابعد من هذا ... وقد نكلفهم شططاً اذا ذهبنا بهم الي ما هو ابعد منه ...

وقد وقع في يدي - وانا في البادية - تاريخ لهم جمعه استاذنا الجليل المؤرخ الكبير محمد عبد الرحيم عندما كان يعمل آنذاك موظفاً في مركز بدارفور أرسله عن طريق مفتش ذلك المركز الي المستر لي مفتش دار الكبابيش ليتولي تصحيحه ومراجعته مع كبار رجالات الكبابيش - وكانت فرصة طيبة لي عندما أشركني المستر لي معه في المراجعة في احد زياراته لنا بالبادية . وتعددت جلساتنا مع شيوخ الكبابيش وخاصة الشيخ علي التوم ، وقد أيدوا كل ما جاء في مذكرات الشيخ محمد عبد الرحيم ، وأعادها المستر لي الي مفتش المركز مؤكداً له صحة الوقائع التي جاءت فيها - وأغلب الظن ان هذه المذكرات التاريخية ما زالت حبيسة أضابير أستاذنا المؤرخ حتي يأذن الله لها من يستطيع نشرها لينتفع بها رواد التاريخ .

والذي اتفق عليه الرواة ان النواة الاولي لتكوين قبيلة الكبابيش نبتت من قبيلة « النوراب » الذين كانوا يسكنون قرية « العفاض » بدنقلا وهم يعتقدون انهم ينتمون الي قبيلة « الركابية » الذين ينتسبون الي الاشراف ومع ان الركابية في تلك المنطقة عرفوا

علقيهم بشؤون الدين والزراعة ، الا ان نوراب العفاض تعلقوا بتربية الماشية ، ويبدو
يا لما تكاثرت لديهم لم تعد منطقة العفاض وحدها تكفي لهم ولماشيتهم ، فاتجهوا
يها جنوباً صوب المنطقة شبة الصحراوية متخدين من « وادي الملك » طريقاً لهم ، وهو
'د يفيض بالماء في أشهر الخريف ،ويظل ماؤه لفترة طويلة بعد الخريف ، وهو يمتد من
'رفور مخترقاً الصحراء حتي يصب في النيل عند قرية العفاض . وهذا يجعلنا نعتقد
هم اتخذوه مدخلاً لهذه المناطق لتوفر الماء والمرعي حوله .

ويحدثنا شيوخ الكبابيش كيف اخذ يتجمع حول النوراب عدد من اصحاب الماشية
ن قبائل متفرقة للاحتماء بالنوراب والسير معهم صوب مراعي تلك المنطقة ولما اشتهروا
ه من ثروة وشدة بأس ، ومن هؤلاء المحتمين بالنوراب تكونت الفروع المختلفة للقبيلة التي
صهرت في بوتقة واحدة بفعل التمازج والحياة المشتركة في بيئة واحدة .

ولا اريد هنا ان اتعرض الي ذكر المعارك الدامية التي خاضوها ضد القبائل البدوية التي
ئانت تستحوذ علي اكثر المناهل والمراعي هناك كقبائل دار حامد والكاجا وحمر حتي تم
هم الاستقرار بينها ، فذلك امر لا جدوي منه الآن ، ولكن من الخير ان نحاول لنلقي
سوءاً إن استطعنا علي اصل قبيلة الكبابيش ، وبم ينحدرون ؟

شيء من التاريخ .

كان تاريخ الكبابيش والبحث عن اصولهم موضع اهتمام عدد من الاداريين الانجليز
ل ومن حكومة ذلك العهد نفسها التي استقدمت في عامي ١٩١١ - ١٩١٢ عالم
لاجناس ، المشهور ج سليجمان والمسز سليجمان « براندا » وهي ايضاً متخصصة في
علم الاجناس ، وقد قاما معاً بزيارة لدار الكبابيش ومكثا هناك يدرسان حياتهم الاجتماعية
ويسجلان ملاحظاتهما في الفترة المذكورة ، وقد خرجا بكتاب توجد نسخة مصورة منه
بمكتبة جامعة الخرطوم . وقد حوي الكتاب دراسة اجتماعية لحياتهم لم أجد فيها جديداً
اضيفه الي ما كتبت هنا ، وفي بعضها أخطاء سبقني الي التعرض لها المستر ديفز - مدير
المخابرات - قد عزاها الي جهل سليجمان باللغة العربية .

وقد حاولت عبثاً ان اعثر علي تحقيق علمي واضح عن تاريخ الكبابيش فيما كتبه
سليجمان ، ويبدو انه كان أكثر اهتماماً بالدراسة الاجتماعية لحياتهم ، اما عن تاريخهم
فاني انقل نص ما جاء في كتابه في هذا الصدد :

« ... من الناحية العنصرية فانه بالرغم من ان الدم العربي يجري في عروق الكبابيش

فان هناك شواهد كثيرة علي ان كثيراً من تلك المجموعات يشمل عناصر من البجة ، بالاضافة الي هذا فانه يتحتم علينا الا نسقط الدم الزنجي ، اذ من المعروف ان جميع رعاة الجمال يملكون الموالي وباستثناءات يسيرة فان اكثرهم يجري في عروقهم الدم الزنجي ... وبهذا يتضح ان الكبابيش هم مجموعة من قبائل عربية مختلفة . مع اقلية يجوز لنا ان نسميها حامية الاصل واخري تجري في عروقها نقطة الدم الزنجي ، لكن بالرغم من هذا الاصل المختلط فان اجزاء القبيلة أو وحداتها المتعددة اخذت اقل قدر من الدماء غير العربية اذا ما قورنت بالقبائل السودانية الأخري » .

لقد وقفت طويلاً عند قول سليجمان « ان كثيراً من تلك المجموعات يشمل عناصر من البجة » فما اعرف عناصرفي الكبابيش تنتمي الي البجة ، وهو لم يدلل بسبب وجود قبيلة « النوراب » في شرق السودان من بين قبائل البجة - والنوراب - كما يؤكده الثقات ان النوراب كانوا اصلاً في منطقة العفاض بدنقلاً ، ثم نزحوا الي عدة اتجاهات ، منهم نوراب الكبابيش - ومنهم نوراب ما زالوا في المديرية الشمالية يشتغلون بالزراعة ، ومنهم نوراب البجة الذين تأقلموا مع بيئتهم هناك حتي صاروا جزءاً من البجة - ولعل سليجمان قد ذهب إلي أن فرع البجة من النوراب هو الاصل الذي جاء منه نوراب الكبابيش - وقد سمعت من شيوخ الكبابيش ومن الشيخ علي التوم يقولون عن نوراب البجة انهم بنو عمومتنا - وكلهم قد خرجوا من منطقة العفاض علي النحو الذي ذكرت وتفاعلوا مع البيئات التي استقروا فيها .

لقد أثني سليجمان في كتابه هذا علي البحث الذي كتبه السير هارولد مكمايكل عن الكبابيش ، وقد كان مكمايكل مفتشاً لدار الكبابيش ثم تقلد عدة مناصب حتي شغل اخيراً منصب السكرتير الادراي لحكومة العهد الثنائي وهو اعلي منصب في الحكم بعد الحاكم العام - وقد كتب مكمايكل بحثاً موجزاً بالانجليزية عن دخول العرب السودان - ترجمه للعربية الدكتور منصور علي حسيب عندما كان طالباً بمدرسة كتشنر الطبية (كلية الطب الآن) . وفي الواقع ان ما كتبه مكمايكل عن تاريخ الكبابيش يعد خير مرجع كتب عنهم حتي الآن ، وتكملة لفائدة قارئ هذا البحث اسجل هنا نص ما كتبه مكمايكل في هذا الشأن :

« ان الكبابيش يعتبرون خير مثال في مجال الدراسة لدراسة التكون العنصري بقبائل السودان . وفي الوقت الحاضر فانهم يبدون للرائي كقبيلة واحدة تحت سيطرة شيخ كبير او « ناظر » يخضع له شيوخ اقسام القبيلة المختلفة حتي الافراد ... انه لمن المسلم به ان قبيلة الكبابيش من اكبر القبائل السودانية ومن اغني رعاة الجمال الرحل في القطر

بأسره ولذا فان لقب « القبيلة » يناسبهم تماماً ، الا انهم بالرغم من ذلك كانوا أصلاً مجموعة من قبائل عربية متفرقة اختلطت بالدم الحامي « البجة والبرابرة » والدم الزنجي ، ولكنهم أقرب الي العرب من اي قبيلة سودانية اخري..

ان النمو الطبيعي لقبيلة الكبابيش والذي أدي الي وضعها الحالي يعزي الي العديد من الاحتكاكات والروابط التي كانت تحدث طوال قرون كثيرة ، ومن الاسباب الرئيسية التي ساعدت علي هذا النمو والاختلاط والترابط هي السوانح الطبيعية التي تمتاز بها ارض الكبابيش . ويحد اقليم الكبابيش بخط وهمي من ام بادر - كتول - كجمر - ام اندرابه من ناحية الجنوب ، اما من الشمال فان حدوداقليم الكبابيش هي الصحراء الكبري ... ومن ناحية الغرب فان اقليمهم يمتد عبر وادي الملك الي حدود دارفور ... ومن تجاه الشرق فانهم قد يذهبون في فصل الجفاف حتي وادي المقدم لسقي جمالهم ... وهناك جزء من القبيلة يسكن مديرية دنقلا ومع أن هؤلاء - في الغالب الأعم - يقومون برعاية الجمال « كعرب رحل » الا ان بعضهم يقوم بالزراعة علي ضفاف النيل ...

ان الخصائص الطبيعية لاقليم الكبابيش تصلح لرعاية الجمال والضأن ، وفي الجزء الجنوبي لرعاة الابقار ، ويبدو الاقليم في مظهره بتلاله الصخرية ووديانه الضحلة مثل مرتفعات « نجد » بالجزيرة العربية تماماً ... وعندما تم القضاء علي مملكة دنقلا المسيحية في بداية القرن الرابع عشر بواسطة القوات العربية وتدفقت قبائل جهينة واتباعها صوب الاراضي السودانية ، فقد اتخذوا مقامهم غرب البجة . ولم تكن تلك البقاع خاليه من السكان ، فقد وجدت قبائل جهينة مجموعات من القبائل الزنجية - والحامية ووجدوا بالجبال مستعمرات « النوبة » وقد قضوا وقتاً طويلاً قبل ان تتم لهم السيطرة علي ذلك الاقليم ... اما سلسلة الجبال الواقعة بين « الحرازة وكاجا » فانهم لم يحاولوا السيطرة عليها مطلقاً ، الا قبل فترة قصيرة جداً حيث استطاعوا طرد « النوبة » من الجبال الشمالية التي تقع فيما يسمي اليوم بدار الكبابيش .

اما اسم « الكبابيش » فانها لفظة مشتقة من جد وهمي للقبيلة يسمي « كباش » والذي يقال انه (ابن أفزر) الذي جا من سلالة « عبد الله الجهني » بغرض ربط الكبابيش بقبائل فزارة وجهينة ، ولكن المرجح ان لفظة « كبابيش » جاءت من كبش بمعني - خروف - وهذا ليس بغريب فهناك(معزه من معز) و « عنزة من عنز » ! .

اما عن الفترة التي اخذوا فيها هذا الاسم فليست لدينا اية معلومات عنها ... وانه لمن الضروري ان نورد هنا ان اسماء بعض اجزاء قبيلة الكبابيش وما نعرفه عن تاريخها تصل بنا الي القول بأن الكبابيش جاءوا اصلا من الاقليم الشمالي للحجاز ... الي هنا ينتهي

بحث مكمايكل عن تاريخ الكبابيش ولعله « اوضح » تاريخ كتب عنهم وهو ادق من التاريخ الذي جاء في كتابات الدكتور سليجمان - وفي نهاية هذه الذكريات لا يسعني الا ان اشيد بهذه الجهود العلمية الرفيعة التي بذلها بعض الموظفين البريطانيين في البحث والتنقيب عن مصادر تاريخ بلادنا واصول العادات والتقاليد في مختلف البيئات التي قادتهم اليها بظروف العمل عندنا . وهي تعتبر بحق الثروة العلمية التي خلفوها في هذا المضمار . . .



فهرست